

الموسوعة الفقهية

جمع وتصنيف

أبراهيم بن عازي

المجلد الأول

١٤٠٥ هـ - ١٤٨٤ م

الباب الأول

حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١ - الجزيرة العربية قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم
كان إلى الغرب والشمال من الجزيرة العربية المملكة البيزنطية «الروم» ،
وفي يديها مصر والشام ، وإلى الشرق والجنوب منها مملكة الفرس وفي يديها
العراق واليمن ، وكلتا المملكتين كانت طامعة في السيطرة على الجزيرة العربية ،
وكانت بينهما بسبب ذلك حروب طاحنة امتدت حقبة طويلة .

ولقد أخل الإسلام الجزيرة والحرب قائمة ، لم تحمد فارها إلا مع العام
الثامن والثلاثين بعد الستمائة . وحين أخفق الروم في بسط نفوذهم على الجزيرة
حرباً أخذوا ينفذون إليها سلباً ، فهدوا أيديهم إلى الفساسة في شمال الجزيرة
يحملون منهم أعوانهم على هذا الغزو السامى ، وكافل الرومان فعل الفرس ،
فإذا هم الآخرون يمدون أيديهم إلى المناذرة ، ملوك الحيرة في الشرق ، يحملون
منهم أعوانهم على الوقوف أمام الغزو الرومانى .

وإذا كان الروم نصارى لكن الفساسة طرفاً من النصرانية ، وإذا كان
الفرس مجوساً أخذ المناذرة بطرف من المجوسية ، وإذا النصرانية تعرف طريقها
إلى الجزيرة العربية عن طريق الشام ، كما التفت المجوسية طريقها إلى الجزيرة
العربية عن طريق الحيرة ، وإذا الحرب التي كان يلتقي فيها السيف بالسيف ،
تصبح وقد التقي فيها رأى بالرأى ، يقف المجوس ، ومن ورأىهم اليهود
والنصارى ، ويقف النصارى للمجوس واليهود ، والجزيرة العربية تشهد هذا
الصراع في رأى فتشارك فيه ، موزعة بين المجوسية واليهودية والنصرانية ،
ويزيد البيشة العربية توزعاً توزع اليهود إلى رهابيين وقرائين وسامريين ،
وتوزع النصارى إلى يعاقبة ونساطرة وأريوسيين ، هذا إلى توزع الجزيرة
العربية توزعاً آخرين عبادة الكواكب وعبادة الأصنام ، وإذا العرب أوزاع

في الرأي ، أشقات في الفكر ، يمسك كل بما يحلو له ويطيب ، وإذا هم قد نبذوا الكثير مما توارثوه من شريعة إبراهيم وإسماعيل لا يستمسكون منه إلا ببقية قليلة ، كانت تمثل في تعظيم الكعبة ، والحج إلى مكة ، وإذا هم بعد هذا أمة أضلتها الضلالات ، واستهوتها الموبقات ، واستعوزت عليها الخرافات ، تذل للأصنام ، وتستقيم للكهان ، وتستولي الأزلام ، وإذا أخلاقها تراق وتهون على موائد الخمر والميسر ، وإذا عدلها يفوته عليها بنى الأقوياء ، وإذا أمنها ليس لها منه إلا هباء .

ويقال إن أول ما كانت عبادة الحجارة في بنى إسماعيل ، فكان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم والتمسوا النُسخ في البلاد ، إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له ، فحينما نزلوا وضموه ، فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى خرج بهم ذلك إلى أن كانوا يعبدون ما استعصنوا من الحجارة ، حتى نسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات .

وكان فيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بتعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

وكان الذين اتخذوا تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم :

هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ، اتخذوا « سواعاً » برهاط (١) .

وكلب بن وبرة ، من قضاة ، اتخذوا « ودأ » بدومة الجندل (٢) .

وأنهم ، وطية ، وأهل جرش ، من مذحج ، اتخذوا « يشوت بجرش » (٣) .

(١) من أرض يلبع .

(٢) من أعمال المدينة .

(٣) من مخاليف اليمن من جهة مكة .

وخيوان — بطن عن همدان — اتخذوا « بموق » بأرض همدان من أرض اليمن .

وذو السكلاع من حمير ، اتخذوا « نسرأ » بأرض حمير .
وكان خلوات صنم يقال له : « هيانس » يقسمون له من أندامهم وحروثهم قهراً .

وكان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمة صنم يقال له : « سعد » صخرة طويلة بفلاة من أرضهم .

وكان لدوس صنم ، يقال له : « ذوالسكين » .
واتخذت فريش صنماً على إثر في جوف الكعبة يقال له : « هبل » .
واتخذوا « أسافاً » و « نائلة » على موضع زمزم ، ينحرون عندهما .
واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تسمّح به حين يركب ، فسكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره تسمّح به ، فسكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله .

وكانت لبني كنانة « العزى » بنخلة (١) .
وكانت « اللات » لثيف ، بالطائف .
وكانت « مناة » للأوس والخزرج ، ومن دان بدينهم من أهل يثرب .
وكان « ذوالخاصة » لدوس وخثعم ، وبجيلة .
وكانت « فلس » لطيم .

وكان لحمير وأهل اليمن بيوت بصنماء يقال له : « رثام » .
وكانت « رضاء » يعبأ لبني ربيعة بن كعب بن سعد .
وكان « ذوالكعبات » لذكر وتغلب ، ابنى وائل .

(١) عن يعقوب المصنف من العراق إلى مكة .

٢ - الإرهاصات بمولد الرسول

تلك كانت حال الجزيرة العربية من توزع ديني جر إلى توزع اجتماعي ، فشخصت أبصار القلة الواعية من رجالات الجزيرة الراشدين إلى السماء تنشد المون وتستعطر الرحمة ، وجمعت البلبلة الفاشية بين أربعة من هذه القلة الواعية ، وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جعش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد ابن عمرو بن نفيل ، ينظرون لأنفسهم ولأمتهم ، فما انتهوا إلى رأى ، وإذا هم أشتات حين انفضوا كما كانوا أشتاتاً حين اجتمعوا ، لأن الأمر كان أجمل من أن يحمل عبئه غير رسول مؤيد من السماء .

وكانت الإرهاصات تشير إلى ميلاد هذا الرسول ، وإلى أن هذا الرسول اسمه محمد ، وأحمد ، وبهما كان يسمى صلى الله عليه وسلم ، يقول تعالى : (النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَ عَمٍ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) . [الأعراف ١٥٧] ، ويقول تعالى : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) [الصف ٦] ، ويقول تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَتَمُّ الْقَوْمِ يَفْقَهُونَ كَمَا يَفْقَهُونَ أَبْنَاءَهُمْ) [الأنعام ٢٠] ، ويقول تعالى : (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [آل عمران ٩٣] .

فما لا شك فيه ولا تعترضه شبهة أنه لا يجوز للخصم المخالف أن يستشهد على خصمه بما في كتابه ، وينتصر عليه بالتسمية من غير أصل ثابت عنده ، أو مرجع واضح لديه ، وهل الاستشهاد على هذا إلا بمنزلة الاستشهاد على المحسوس ، الذي لا يكاد يقع الاختلاف فيه ؟

وعلى الرغم مما دخل إلى التوراة من تحريف وتبديل فثمة فيها ما يحمل هذه الإشارة إلى محمد ، ولقد جاء هذا التعريف والتبديل إلى التوراة بعدما حُرِّبَ بمختصر بيت المقدس ، وأحرق التوراة ، وساق بني إسرائيل إلى أرض بابل .

ويقال إن مزيراً أملاها في آخر عمره على واحد من تلامذته، وكان هذا الإملاء لاشك عن حفظ فردي، وعن هذه النسخة للملاء كانت النسخ المختلفة، وكان هذا التحريف. ويستدلون على ذلك بما في التوراة من أخبار عما كان من أمر موسى عليه السلام، وكيف كان موته، ووصيته إلى يوشع بن نون، وحزن بني إسرائيل وبكاؤهم عليه، وهذا ونحوه لا يجوز عقلاً أن يكون من كلام الله ولا من كلام موسى.

ثم إنه ثمة توراة في أيدي السامرة تخالف تلك التي في أيدي سائر اليهود في التواريخ والأعياد وذكر الأنبياء، كما أنه ثمة توراة في اليونانية تخالف التوراة العبرانية في السنين بما يربى على ألف وأربعمائة سنة، وهذا التخالف محال أن يتصف به كتاب من عند الله.

وينقل صاحب البدء والتاريخ عن نسخة من التوراة لأبي عبد الله اللارزي: يا داود، قل لسليمان من بعدك إن الأرض لي أورثها محمداً ليست صلاتهم بالطناير، ولا يقدسوني بالأوتار. وفيها: إن الله عز وجل يظهر من صهيون إكليلاً محمداً.

والإكليل هو الرياسة والإمامة، والمحمود: محمد صلى الله عليه وسلم. وفي التوراة العبرية، من قول الله تعالى لإبراهيم: سمعت دعائك في إسماعيل، هاهنا باركت إياه، وكثرت عدده وأنعيتة جداً جداً حتى لا تعد كثرتة اثنا عشر ملكاً يولد، وأظهره لأمة عظيمة.

وفيها: وجاء الرب من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران.

وساعير جبال فلسطين حيث ظهر عيسى، وفاران: مكة.

ونجد في التوراة العربية (سفر التثنية ، الإصحاح ١٨ ، الآية : ١٥) : يقيم
لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوانك مثلي له تسمعون .

ولقد جاء إسماعيل بن موسى عيسى ، وهو من بني إسرائيل ، ومتقضى الآية أن
يكون ثمة نبي مرتقب بهد عيسى ، وعمره من ولد إسماعيل ، وإسماعيل
أخو إسحاق ، وإسحاق جد بني إسرائيل ، وإخوانهم هم بنو إسماعيل .

وتزكي هذا الآية الثامنة عشرة من الإصحاح الخامس والعشرين ، من
سفر التكوين حيث تقول : وسكنوا - أى أبناء إسماعيل - من حوبة
إلى شور التي أمام مصر ، حينما تجيء نحو آشور أمام جميع إخوانه نزل .

وكذا تزكيه الآية الثانية عشرة من الإصحاح السادس عشر ، من سفر
التكوين : وأمام إخوانه يسكن .

وفي الإنجيل يوحنا (الإصحاح : ١٤ ، الآية : ١٥ ، الإصحاح : ١٦ ،
الآية : ٦ - ٧ م) ما يشير إلى إتيان الفارقليط ، ومعنى الفارقليط : الكثير
الحمد ، وهذا المعنى هو ما تعطيه كلمة أحد ، التي هي من أسماء النبي .

غير أن النص العربي من الإنجيل ، جعل مكان الفارقليط في الموضعين :
المعزى . ففي الموضع الأول يقول الإنجيل : ومتى جاء للمعزى الذي سأرسله
أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب يبشركم فهو
يشهد لي .

والنص في غير النسخة العربية ، على لسان عيسى وهو مخاطب الحواريين :
أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من تلقاء نفسه وهو
يشهد لي بما شهدت له ، وما جئتمكم به سرّاً يأتيكم به جهراً .

وفي الموضع الثاني يقول : وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني وليس

أحد منكم يسألني أين تمضي... ؟ لكنني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتكم المعزي ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم .
والنص في غير النسخ العربية : إن الفارقليط روح الحق الذي أرسله أبي باسمي هو الذي يملكم كل شيء . والفارقليط لا يحكم مالم أذهب .

وفي سفر رؤيا يوحنا (الإصحاح : ١٩ ، الآية : ١١ ، ١٥) : « ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب » .

ومحمد يدعى الأمين الصادق .

وفيه أيضاً (١٩ : ١٥) « ومن فيه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعضاً من حديد وهو يدوس معصرة خمر » .
والقرآن الكريم في مضاء السيف أذعنت له الأمم ، ومحمد حرم الخمر وما حرمها عيسى .

• • •

٣ - نسب الرسول

والعرب كلها من ولد إسماعيل ، ومن عدنان تفرقت القبائل ، وهو عدنان ابن أدد بن منوم بن ناحور بن تيرج بن يعرب بن يشجب بن ثابت (ثبت) ابن إسماعيل ، وأم إسماعيل : هاجر ، من أم العرب^(١) .

فولد عدنان رجلين : معد بن عدنان ، وعك بن عدنان .
ولود معد بن عدنان أربعة نفر : قضاعة بن معد ، وقنص بن معد ، ونزار ابن معد ، وإياد بن معد .

(١) أم العرب : قرية كانت أيام القرما من مصر .

وكان قضاة بكر معد الذي به يكنى ، فتيامن إلى حمير بن سبأ ، وكان اسم سبأ عبد شمس ، وإعنا سبأ ، لأنه أول من سبى في العرب .
وأما قنص بن معد فهاكت بقيتهم . وكان منهم النعمان بن المنذر ، ملك الحيرة .

وولد نزار بن معد : مضر بن نزار ، وربيعة بن نزار ، وأنمار بن نزار ، وإباد بن نزار .

فولد مضر بن نزار رجلين : إلياس بن مضر ، وعيلان بن مضر .
فولد إلياس بن مضر ثلاثة نفر : مدركة بن إلياس وكان اسمه عامراً ، وطابخة بن إلياس ، وكان اسمه عمراً ، وقعة بن إلياس ، وكان اسمه عميراً ، وأسمهم خندف ، امرأة من اليمن .

فولد مدركة بن إلياس رجلين : خزيمه بن مدركة ، وهذيل بن مدركة .
فولد خزيمه بن مدركة أربعة نفر : كنانة بن خزيمه ، وأسد بن خزيمه ، وأسدة بن خزيمه ، والهون بن خزيمه .

فولد كنانة بن خزيمه أربعة نفر : النضر بن كنانة ، ومالك بن كنانة ، وعبد مناة بن كنانة ، وملكان بن كنانة .

فولد النضر بن كنانة رجلين : مالك بن النضر ، ويخلد بن النضر .
فولد مالك بن النضر : فهر بن مالك ، وهو قریش ، فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي .

فولد فهر بن مالك أربعة نفر : غالب بن فهر ، ومحارب بن فهر .
والخارث بن فهر ، وأسد بن فهر .

فولد غالب بن فهر رجلين : لؤى بن غالب ، وتيم بن غالب .

* * *

فولد لؤى بن غالب أربعة نفر : كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى ، وسامة ابن لؤى ، وعوف بن لؤى .

فأما سامة بن لؤى فنخرج إلى عمان ، فبينما هو يسير على ناقته ، إذ وضعت رأسها ترتع ، فأخذت حية بشعرها فمهرتها ، حتى وقعت الناقة لشقها ، ثم نهشت الحية « سامة » فقتلته .

وأما عوف بن لؤى فإنه خرج في ركب من قريش ، حتى إذا كان بأرض غطفان آخاه ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، فشاع نسيبه في بني ذبيان .

* * *

فولد كعب بن لؤى ثلاثة نفر : مرة بن كعب . وعدى بن كعب ، وهصيص بن كعب .

فولد مرة بن كعب ثلاثة نفر : كلاب بن مرة ، وتيم بن مرة ، وبقظة ابن مرة .

فولد كلاب بن مرة رجلين : قصي بن كلاب ، وزهرة بن كلاب .

فولد قصي بن كلاب أربعة نفر وامرأتين : عبد مناف بن قصي ، وعبد الدار بن قصي ، وعبد العزى بن قصي ، وعبد قصي بن قصي ، ونخمر بنت قصي ، وبرة بنت قصي .

فولد عبد مناف — واسمه المخيرة بن قصي — أربعة نفر : هاشم ابن عبد مناف ، وعبد شمس بن عبد مناف ، والمطلب بن عبد مناف ، ونوفل ابن عبد مناف .

فولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة : عبد المطلب بن هاشم ،
وأسد بن هاشم ، وأبا صبي بن هاشم ، ونفلة بن هاشم ، والشفاء ، وخالدة ،
وضعيفة ، ورقية ، وحية .

فولد عبد المطلب بن هاشم عشرة نفر وست نسوة : العباس ، وحزرة ،
وعبد الله ، وأبا طالب ، واسمه عبد مناف - والزبير ، والحارث ، وحجلا ،
والمقوم ، وضراراً ، وأبا لهب - واسمه عبد العزى - وصفية ، وأم حكيم
البيضاء ، وعاتكة ، وأميمة ، وأروى ، وبرة .

• • •

فولد عبد الله بن عبد المطلب ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيد ولد آدم
عمداً ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (شيبه) بن هاشم (هرو)
ابن عبد مناف (المغيرة) بن قصي (زيد) بن كلاب بن مرة بن كعب
ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة
(عامر) بن مضر بن معد بن عدنان .

وأمه : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة
ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأما : برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب
ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأم برة : أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة
ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأم أم حبيب : برة بنت عوف بن عبيد بن مويج بن عدي بن كعب
ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف ولد آدم حسبا ، وأفضلهم نسباً ،
من قبل أبيه وأمه ، صلى الله عليه وسلم .

٤ - ولاية البيت

ولما توفى إسماعيل بن إبراهيم ، ولي البيت بعده ابنه ثابت بن إسماعيل ،
ثم ولي البيت بعده مضاض بن عمرو الجرمي .

ونشر الله ولد إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جرم ولاية البيت والحكام ،
لا ينازعهم ولد إسماعيل في ذلك غلّوثهم وقرابتهم .

ثم إن جرهما بنوا بمكة ، فظلموا من دخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال
الكعبة الذي يهدى لها . فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وغبشان
من خزاعة ، ذلك ، أجموا لحربهم وإخراجهم من مكة ، فأذنوم بحرب فانتتلوا
فغلبهم بنو بكر وغبشان ، فنقوم من مكة .

ثم إن غبشان ، من خزاعة ، وليت البيت دون بنى بكر بن عبد مناة ،
وكان الذي يليه عمرو بن الحارث الغبشاني ، وقريش إذ ذاك متفرقون في قومهم
من كنانة ، فوليت خزاعة البيت بتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان
آخرهم حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي .

ثم إن قصي بن كلاب خطب إلى حليل بن حبشية ابنته «حبي» ، فرغب
فيه حليل فزوجه فولدت له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد المزي ، وعبدأ .
فلما انتشر ولد قصي ، وكثر ماله ، وعظم شرفه ، هلك حليل ، فرأى
قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر ، وأن قريشاً
نخبة إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده ، فكلّم رجالاً من قريش وبنى كنانة
ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة ، فأجابوه . فكتب إلى أخيه

من أمه : رزاح بن ربيعة ، يدعوه إلى نصرته ، والقيام معه ، فخرج رزاح
ومعه إخوته ، فيمن تبعهم من قضاة ، وهم يجمعون لنصرة قصى .

* * *

وكان الفوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بلى الإفاضة
للناس بالحج من عرفة ، وولده من بعده ، وكان يقال له ولده : صوفة ، وإنما
ولّى ذلك الفوث بن مر لأن أمه كانت امرأة من جرم ، وكانت لا تلد ،
فندرت إن هى ولدت رجلاً أن تصدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ويقوم
عليها ، فولدت : الفوث ، فكان يقوم على الكعبة مع أخواله من جرم ،
وولده من بعده حتى انقرضوا .

* * *

وكانت صوفة تدفع بالناس من عرفة أو تميز بهم إذا نفروا من منى .
فإذا كان يوم النفر أتوا رمى الجمار ، ورجل من صوفة يرمى الناس ، لا يرمون
حتى يرمى .

فكان ذوو الحاجات التمتعلون يأتونه فيقولون له : قم فارم حتى نرمى
مك . فيقول لا والله ، حتى تميل الشمس . فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون
التعجل يرمونه بالحجارة ، ويستمتعلون بذلك ، ويقولون له : وبلك اقم ،
فارم ، فيأبى عليهم ، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ، ورمى الناس بعده .

فإذا فرغوا من رمى الجمار وأرادوا النفر من « منى » أخذت صوفة
بجانبى العقبة فحبسوا الناس وقالوا : أجزى صوفة ، فلم يجز أحد من الناس
حتى يمروا ، فإذا نفرت صوفة ومضت خلى سبيل الناس ، فانطلقوا بعدهم .

* * *

فلما كان ذلك العام فعلت صوفة كما كانت تفعل ، فأتاهم قصى بن كلاب
بمن معه من قومه من قريش ، وكفانة وقضاعة عند العقبة ، فقال : لنحن
أولى بهذا منكم ، فقاتلوه فاقتتل الناس قتالا شديداً ، ثم انهزمت صوفة ،
وغلبهم قصى على ما كان بأيديهم من ذلك ، وانصرف أخوه رزاح بن ربيعة
إلى بلاده بمن معه من قومه .

• - ولاية قصى البيت

فولى قصى البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك
على قومه وأهل مكة فملكوه ، إلا أنه قد أقبل للعرب ما كانوا عليه ، حتى جاء
الإسلام ، فهدم الله به ذلك كله .

وكان قصى أول بنى كعب بن اؤى أصاب ملكاً ، فكانت إياه الحجابة ،
والسقاية ، والرفادة^(١) ، والندوة^(٢) ، واللواء^(٣) .

فعاز قصى شرف مكة كلها ، ومعه قريش مجماً ، لما جمع من أمرها ،
ونيمنت بأمره ، فأتته كح امرأة ، ولا يتزوج رجل من قريش ، وما
يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم ، إلا
في داره .

فكان أمره في قومه من قريش في حياته ، ومن بعده موته ، كالدين

(١) الرفادة : طعام كانت قريش تجتمع كل عام لأهل الموسم .

(٢) الندوة : الاجتماع للمشورة .

(٣) اللواء ، بمعنى : الحرب .

التبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، فيها كانت قريش تقضى أمورها .

فلما كبر قصي ورق عظمه ، وكان عبد الدار بكره ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وكذلك عبد العزى ، وعهد قصي ، قال قصي لعبد الدار : أما والله يا بني لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك : لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يقد قريش لواء لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل اللوسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا تقطع قريشاً أمراً من أمورها إلا في دارك . فأعطاه دار الندوة ، التي لا تقضى قريش أمراً من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة .

فجعل قصي إليه كل ما كان بيده من أمر قومه ، وكان قصي لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه .

٦ — ولاية هاشم بن عبد مناف الرفادة والسقاية

ثم إن قصي بن كلاب هلك ، فأقام أمره في قومه وفي غيرهم بنوه . من بعده ، وأقامت على ذلك قريش معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع .

ثم إن بنى عبد مناف بن قصي : عبد شمس ، وهاشمياً ، والمطلب ، وبوفلاً ، أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بنى عبد الدار بن قصي ، مما كان قصي جعل إلى عبد الدار ، من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم ، ففرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم ، يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار

لمسكانهم في قومهم ، وكانت طائفة مع بني عبد الدار ، يرون ألا ينزع منهم ما كان قصى جبل إليهم .

فكان صاحب أمر بني عبد مناف عبد شمس بن عبد مناف ، وذلك أنه كان أسن بن عبد مناف ، وكان صاحب أمر بني عبد الدار عامر ابن هاشم بن عبد مناف .

وكان بنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تميم بن مرة بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر ، مع بني عبد مناف .

وكان بنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص ابن كعب ، وبنو جهم بن عمرو بن هصيص بن كعب ، وبنو عدي بن كعب ، مع بني عبد الدار .

وخرجت عامر بن لؤى ، ومحارب بن فهر ، فلم يكونوا مع واحد من الفريقين .



وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضاً ، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، ثم غمس القوم أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا وحلفوا ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم وتوكلوا على أنفسهم ، فسموا : المطيبين .

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاءهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ، فسموا : الأحلاف .

فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب ، إذ تداعوا إلى الصلح ، على أن يعطوا بنى عبد مناف السقابة والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لهنى عبد الدار كما كانت ، ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، ونحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوا ، فلم يزالوا على ذلك ، حتى جاء الله تعالى بالإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزد إلا شدة » ، يريد المعاقدة على الخير ونصرة الحق .

فوتى الرفادة والسقابة هاشم بن عبد مناف ، وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سفاراً قلماً يقيم بمكة ، وكان مقلاً ذا ولد ، وكان هاشم موسراً ، فكان إذا حضر الحاج قام في قريش فقال : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإنه بأتيسكم في هذا الموسم زوار الله وحُجاج بيته ، وهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاماً أيامهم هذه التي لا بد لهم من الإقامة بها ، فإنه والله لو كان مالى يسع ذلك ما كلفتكموه . فيخرجون لذلك خرجاً من أموالهم ، كل امرئ بقدر ما عنده ، فيصنع به الحجاج طعاماً حتى يصدروا من مكة .

وكان هاشم فيما يزعمون أول من سن الرحلتين لقريش رحلتى الشتاء والصيف ، وأول من أطعم الثريد بمكة ، وإنما كان اسمه عمرأ ، فاسمى هاشماً إلا بهشمه انخبز بمكة لقومه .

ثم هلك هاشم بن عبد مناف بغزة من أرض الشام تاجراً ، فوتى السقابة

والرفادة من بعده المطلب بن عبد مناف ، وكان أصغر من عبد شمس وهاشم ،
وكان ذا شرف في قومه وفضل ، وكانت قريش إغما تسميه الفضل لسماعته وفضله .

* * *

٦ -- ولاية المطلب ثم عبد المطلب ما كان يليه هاشم

وكان هاشم بن عبد مناف قدم المدينة ، فتزوج سلى بنت عمرو ،
فولدت لها هاشم : عبد المطلب ، فسقطت شيبه . فتركه هاشم عندها حتى كان غلاماً
دون المراهقة أو فوق ذلك .

ثم خرج إليه عمه المطلب ليقبضه فيلحقه ببلده وقومه ، فقالت له سلى :
لست بمرسلته معك ، فقال لها المطلب : إني غير منصرف حتى أخرج به معي .
أن ابن أخي قد بلغ ، وهو غريب في غير قومه ، ونحن أهل بيت شرف
في قومنا ، نلئ كثيراً من أمورهم ، وقومه وبلده وعشيرته خير له من الإقامة
في غيرهم . وقال شيبه : لست بمفارقها إلا أنت تأذن لي ، فأذنت له ،
ودفعته إليه .

فاحتمله المطلب ودخل به مكة مردفه معه على بعيره ، فقالت قريش :
عبد المطلب ابتاعه ، فيها سمى شيبه : «عبد المطلب» . فقال المطلب : ويحكم ، إنما
هو ابن أخي هاشم ، قدمت به من المدينة .

* * *

ثم هلك المطلب بأرض اليمن ، فولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة ،
بعده عمه المطلب ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله .

لقومهم من أمرهم ، وشرف في قومه شرقاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه .
وعظم خطره فيهم .

* * *

٨ - حفر زمزم

ثم إن عبد المطلب بينما هو قائم في الحجر إذ أمر بحفر زمزم ، فلما بين
عبد المطلب شأنها ، ودل على موضعها ، غدا بعموله ، ومعه ابنه الحارث بن
عبد المطلب ، ليس له يومئذ ولد غيره ، وقام ليحفر حيث أمر ، فقامت إليه
قريش حين رأوا جده ، فقالوا : والله لا نتركك تحفر عند وثئينا هذين اللذين
تنعر عندهما إصاف وثائلة . فقال عبد المطلب لابنه الحارث : زدني حتى
أحفر ، فوالله لأمضين لما أمرت به .

فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر ، وكفوا عنه . فلم يحفر إلا يسيراً
حتى بدا له الطي ، فكبر وعرف أنه قد صدق .

وكانت قريش قبل حفر زمزم قد احتفرت بشاراً بمكة :

حفر عبد شمس بن عبد مناف « الطوى » ، وهي البئر التي بأعلى مكة ،
عند دار محمد بن يوسف الثقفي .

وحفر هاشم بن عبد مناف « بذر » ، وهي البئر التي على فم شعب
أبي طالب .

وحفر أمية بن عبد شمس « الحفر » لنفسه .

وحفرت بنو أسد بن عبد العزى « سقية » .

وحفرت بنو عبد الدار « أم أحراد » .

وحفرت بنو جمع « السنبلة » .

وحفرت بنو سهم « الغمر » .

فمعت زمزم على البثار التي كانت قبلها ، وانصرف الناس إليها لمكانها من المسجد الحرام ، وتفضلوا على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها ، وعلى سائر العرب .

٩ - نذر عبد المطلب

وكان عبد المطلب بن هاشم قد نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم : اثنى عشر نذر ، ثم بلغوا معه حتى يمنوه ، لينحرون أحدهم لله عند الكعبة .

فلما توافى بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنونه ، جمعهم ، ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ، ثم يكتب فيه اسمه ، ثم اثنتونى ، فقموا ثم أنوه .

ثم قال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه ، وأخبره بنذره الذي نذر ، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه .

وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بنى أبيه ، كان هو والزيد

وأبو طالب لفاطمة بنت عمرو بن عبد بن عمران بن مخزوم بن بقة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر .

• • •

وكان عبد الله أحب ولد عبد المطلب إليه ، فلما أخذ صاحب القداح القداح يضرب بها ، قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضرب صاحب القداح ، فخرج القداح على عهد الله فأخذه عبد المطلب بيده ، وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به ليذبحه ، فقامت إليه قريش فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه ، فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تمذر فيه ، لئن فعلت هذا لازال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما جاء الناس على هذا ، انطلق به إلى الحجاز ، فإن بهمرافقها تابع ، فسلبها ، ثم أنت على رأس أمرك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته .

فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوها بخير ، فرسكبوا حتى جاءوها فسألوها ، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه ، وما أرادوا به ، ونذره فيه ، فقالت لهم : ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله ، فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم هدوا عليها ، فقالت لهم : قد جاءني الخبر ، كم الهدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل - وكانت كذلك - قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشرة من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فأنحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر ، قام

عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل ، وعبد المطلب قائم يدعو الله عز وجل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل . فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل ثلاثين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل أربعين . وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل خمسين . وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل سبعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل ثمانين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل تسعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل مائة . وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل ، فقالت قریش ومن حضر : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب ، فقال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات . فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، فخرج القدح على الإبل ، ثم عادوا الثانية ، وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فضربوا فخرج القدح على الإبل ، ثم عادوا الثالثة ، وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فضربوا فخرج القدح على الإبل ، فتعرت ، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع .

١٠ - زواج عبد الله بآمنة :

ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله ، فرب به على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وهي عند الكعبة ، فقالت له ، حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبي . قالت : لك مثل الإبل التي نحررت عنك وتزوجني . قال : أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه .

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً . فزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضماً .

فدخل عليها مكانه ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت . فقال لها : مالك لانرضين عليّ اليوم ما كنت عرضت بالأمس ؟ قالت له : فارقك النور الذي كان معك بالأمس .

وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ، أنه سيكون في هذه الأمة نبي .

١١ - ولادته صلى الله عليه وسلم

وأنبت آمنة عين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولي : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه محمداً . وروأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى ، من أرض الشام .

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك ، وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به .

وكان مولده صلى الله عليه وسلم بمكة عام الفيل ، بعد قدوم أبرهة بخمسين

ليلة ، وكان أول يوم من المحرم عام الفيل ، يوم الجمعة ، وقدم الفيل يوم الأحد
لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمائة واثنين وعشرين للإسكندر الرومي ،
وست عشرة ومائتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة القدر ، ومئة أربع
وأربعين من ملك أنو شروان بن قباذ ملك المعجم .

وولد صلى الله عليه وسلم ثمان ليال خلون من شهر ربيع الأول ،
وقبل لائنتي عشرة ليلة خلت منه . والصحيح أن ولادته كانت يوم الاثنين
التاسع من شهر ربيع الأول ، كما حقق ذلك المرحوم محمود حمدي الفلكي في
رسالته ، وهذا اليوم يوافق العشرين من أبريل سنة ٥٧١ م ، وكانت ولادته
صلى الله عليه وسلم بالدار التي عند الصفا ، والتي كانت بعد لمحمد بن يوسف
أخي العجاج ، فصيرتها الخيزران ، زوج للهدى ، مسجداً .

وكانت قابله التي نزل على يديها الشفاء ، أم عبد الرحمن بن عوف .
فلما وضعت أمه صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى جده عبد المطلب : أنه قد
ولد لك غلام ، فأتته فانظر إليه ، فأتاه فنظر إليه ، وحدثته بما رأت حين حملت
به ، وما قيل لها فيه ، وما أمرت به أن تسميه .

١٢ - حديث رضاعه صلى الله عليه وسلم
فأخذه عبد المطلب فدخل به السكبة ، فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه ،
ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها ، وأتمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم المراضع ،
فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر ، يقال لها : حليلة بنت أبي ذؤيب .
واسم أبيه الذي أرضعه صلى الله عليه وسلم : الحارث بن عبد المزي .
وإخوته من الرضاعة : عبدالله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة
بنت الحارث ، وهي الشيماء ، غلب ذلك على اسمها فلا تعرف في قومها إلا به ،
وهي حليلة بنت أبي ذؤيب .

وكانت - مليمة بنت أبي ذؤيب - تحدث أنها خرجت من بلدها - مع زوجها وابن لها صغير ترضعه - وفي نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتبس الرضعاء . وذلك في سنة شهباء لم تبق شيئاً .

قالت : فخرجت على أتان لي قراء ^(١) ، معنا شارف ^(٢) ، والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في مكدي ما يغنيه ، وما في شارقنا ما يغذيه ، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج .

فخرجت على أتانى تلك حتى قدمنا مكة تلتبس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه ؛ إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو للعروف من أبي الصبي فكنا نقول : يتيم ، وما عسى أن تصنع أمه وجده ! فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيرى .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إني لا أكره أن أرجع من بين صواحيي ، ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذه . قال : لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت إليه فأخذه ، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره ، فلما أخذه رجعت به إلى رَحْلي ، فلما وضعت في حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم تأما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجي إلى شارقنا تلك ، فإذا هي حافل ، فعلب منها ما شرب ، وشربت معه ، حتى انتهينا رباً وشبعنا ، فبقنا بخير ليلة .

(١) قراء لونها خضرة .

(٢) الشارف الناقة المسنة .

قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : اعلى والله يا حليلة ، لقد أخذت
نسة مباركة . فقلت : والله إنى لأرجو ذلك .

قالت : ثم خرجنا . وركبت أنا أنانى ، وحملته عليها معى ، فوالله
لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حرم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى :
يا ابنة أبى ذؤيب ، ويمك ! وأربى^(١) علينا ، ألبست هذه أنا نك التى كنت
خرجت عليها ، فأقول لمن : بلى والله ، إنها لمى هى . فيقلن : والله إن لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض
الله أجذب منها ، فكانت غنى تروح على حين قدمنا به شباعاً لبناً ، فتعلب
ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون
من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم ! اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب .
فتروح أغنامهم جياً جياً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنى شباعاً لبناً .

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة وانطير حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان
يشب شباباً لا يشبه الفلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً^(٢) .

قالت : فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شيء على مكته فينا ، لما كنا
نرى من بر كته ، فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بنى عندى حتى يغلف ،
فلانى أخشى عليه وباء مكة .

قالت : فلم نزل بها حتى رده معنا ، فرجعنا به .

• • •

وبعد أشهر حملته حليلة إلى أمه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع

(١) أربى : انتظرى .

(٢) جفراً : شديداً .

أمه آمنة بنت وهب ، وجدته عبد المطلب بن هاشم ، في كلاءة الله وحفظه ،
يقتبه الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته .

• • •

١٣ - وفاة أمه وكفالة جده عبد المطلب له

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه آمنة بنت
وهب بالأبواء ؛ بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني
عدي بن النجار ، تزيروا إياهم ، فماتت وهي راجعة به إلى مكة .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم .
وكان بوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول
فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه لإجلاله .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي ، وهو غلام شديد ، حتى يجلس
عليه ، فيأخذه أصحابه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب ، إذا رأى ذلك منهم :
دعوا ابني ، فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ،
ويسره ما يراه يصنع .

• • •

١٤ - موت عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين هلك عبد المطلب بن
هاشم ، وذلك بعد القيل بثمانى سنين .

• • •

فلما هلك عبد المطلب بن هاشم ولّى زمزم والسقاية عليها بعده العباس بن
عبد المطلب ، وهو يومئذ من أحدث إخوته سناً ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام

وهي بيده ، فأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما مضى من ولايته .

• • •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عبدالمطلب مع عمه أبي طالب .
وكان عبدالمطلب يوصي به عمه أبا طالب ، وذلك لأن عبدالله أبا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وأبا طالب ، أخوان لأب وأم ، أمهما فاطمة بنت عمرو
ابن عائذ بن عبد بن همران بن مخزوم ، فكان أبو طالب هو الذي يلي أمر
رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جده ، فكان إليه ومعه .

• • •

وكان رجل من « لخب » ، ^(١) وكان عائفاً ، فكان إذا قدم مكة أتاه
رجال من قريش بفلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم ، فأتى أبو طالب بالنبي
صلى الله عليه وسلم وهو غلام مع من يأتيه ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ثم شغله عنه شيء ، فلما فرغ قال : السلام ، على به ، فلما رأى أبو طالب
حرصه عليه غيبه عنه ، فجعل يقول : ويلك ارددوا على الغلام الذي رأيت آتفاً ،
فوالله ليسكونن له شأن . فانطلق به أبو طالب .

• • •

١٥ - حديث بحيرى الراهب

ثم إن أبا طالب خرج فركب تاجراً إلى الشام ، فلما تهيأ للرحيل وأجمع
السير تعاق به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق له ، وقال : والله لأخرجن
به معي ، ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً .

فخرج به معه ، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وبها راهب
- يقال له : بحيرى و صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، فلما نزلوا ذلك

(١) لخب : قبيلة من أزد شنوءة .

العام ببحري، وكانوا كثيراً ما يعمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لها طعاماً كثيراً ، وذلك شيء رآه وهو في صومعته : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتدلّت أغصان تلك الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها .

فلما رأى ذلك بحري نزل من صومعته ثم أرسل إليهم فقال : إني قد صنعت لكم طعاماً بامشر قریش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، صفيركم وكبيركم ، عبدكم وحرکم . فقال له رجل منهم : والله يا بحري إن لك لشأناً اليوم ، فما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟ قال له بحري : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ، وقد أحييت أن لا كرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلکم .

فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم ، لحداثة سنه ، في رحال القوم تحت الشجرة .

فلما نظر بحري في القوم لم ير الصفة التي يعرف ، فقال : بامشر قریش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي . قالوا له : يا بحري ، ما تخلف عنك أحد يفتني أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنّاً ، فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قریش مع القوم : واللوات والذرى ، إن كان اليوم بنا أن يتخلف ابن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل ياحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى مما أسألك عنه - وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يخلفون بهما - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأنسانى باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما .

فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتنى مما أسألك عنه ؛ فقال له : « سألنى مما بدا لك ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموده ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته للقى عنده ، فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له : ما هذا الغلام منك أقال : ابنى . قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما يبنى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً . قال : فإنه ابن أخى : قال : فما فعل أبوه ؟ قال ، مات وأمه حبلى به . قال : صدقت ، فارجم بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود ، فوالله لن يراوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . فأصرع به إلى بلاده .

فخرج به عمه أبو طالب سرياً حتى أقدمه مكة ، حين فرغ من تجارته بالشام ، وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى بكاؤه ويحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلاً ، وأفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ،

وأعظمهم حِلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفُحش والأخلاق التي تدنّس الرجال تنزهاً وتكرهاً ، حتى كان اسمه في قومه الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

• • •

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة ، هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة ، وبين قيس عيلان ، فشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيامهم ، أخرجهم أعمامهم معهم ، فكان ينبل على أعمامه ، أي يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .

• • •

١٦ - زواجه صلى الله عليه وسلم من خديجة

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمناً وعشرين سنة ، تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب ، وكان سداً حين ذاك ، أربعين عاماً .

وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تتاجر الرجال في مالها بشيء يجعله لهم .

فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له : ميسرة .

فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام .

ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشتري ، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ، ومعه ميسرة .
فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف .

وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة ليبة ، يلتقى نسبها مع نسب في جده الأعلى قصي ، كما يلتقى نسبها مع نسب أمه في كلاب بن مرة مع ما أراد الله بها من كرامته . فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا بن عم ، إني قد رغبت فيك لقرابتك وشرقت في قومك ، وأما نتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك .

ثم عرضت عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها ، لو بقدر عليه .

• • •

١٧ - خلف قريش في بنيان الكعبة

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبأ وتلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يهيمون بذلك ليستقروا ، ويهابون هدمها . وكان البحر قد زوى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتعطلت ، فأخذوا خشبها ، فأعدوه لتستيفها . وكان بمكة رجل قبلي نجار ، فهبأ لهم في أنقبهم بعض ما يصلحها .

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن همران بن مخزوم ، فقال : يا معشر قريش ، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم

إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمة أحد من الناس .
ثم إن الناس هابوا هدمها وقرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدوكم
في هدمها ، فأخذ المغول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير ،
ثم هدم من ناحية الركنين .

فترى الناس تلك الليلة وقالوا : فنظر ، فإن أصيب لم يهدم منها شيئاً
ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء ، فقد رضى الله صنعنا ، فهدمنا .
فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناس معه ، حتى إذا
انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام - وأفضوا إلى
حجارة خضراء أخذ بعضها بعضاً ، فانتهوا عن ذلك الأساس .

• • •

ثم إن للقبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ،
ثم بنوها ، حتى بلغ البنيان موضع الركن ، فاقتصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن
ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى أعدوا للقتال .

فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب
ابن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسموا :
لعنة الدم .

فمكنت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد
وتشاوروا وتناصفوا .

ثم إن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان عاملاً
أسن قريش كلها ، قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول
من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه ، ففعلوا .

فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا :
هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد .

فلما انتمى إليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى الله عليه وسلم : هلم إلي ثوباً ،
فأتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من
الثوب ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم
بنى عليه .

* * *

١٨ — علم اليهود والنصارى بمبعثته صلى الله عليه وسلم

وكانت الأخبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والسكمان من العرب
قد تحدّثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، لما تقارب من زمانه .

* * *

ويحدث رجال من المسلمين : أن ما دعانا إلى الإسلام ، لما كنا نسمع من
رجال يهود ، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم
علم ليس لنا ، وكانت لا تزال يدتنا وبينهم شرور ، فإذا ظننا منهم بعض
ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن ، فكنا كثيراً
ما نسمع ذلك منهم .

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبتنا حين دعانا إلى الله تعالى ،
فبادرناهم إليه ، آمنا به وكفروا به .

* * *

وكان سلمة ، من أصحاب بدر ، يقول : كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل ،
فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل ، فذكر القيامة
والبعث والحساب والليزان والجنة والنار ، فقالوا له : ويحك يا فلان ، أو ترى

هذا كائنًا ؟ قال : نعم فقالوا له : ويحك يا فلان ، فما آية ذلك ؟ قال : نبي مبعوث من نحو هذه البلاد — وأشار بيده إلى مكة واليمن — فقالوا : ومتى نراه ؟ فنظر إلى — وأنا من أحدثهم سنًا ، قال : إن يستنفذ هذا الغلام هممه يدركه .

قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدًا رسولاً صلى الله عليه وسلم .

١٩ — مبعثه صلى الله عليه وسلم

والا بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، وبشيراً للناس كافة .

وكان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة ، حين أراد الله كرامته ورحمة المعبود به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كفتاق الصبح ، وحبب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده .

ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك إلى أن جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله ، وهو محروء في شهر رمضان ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف في حراء ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاء من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكافه من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به السكبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً ، أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته .

حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر رمضان ، خرج رسول الله

صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمها الله فيها برسالته ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى فقال : اقرأ ؛ قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطاني ^(١) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ؛ فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطاني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ؛ فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطاني الثالثة ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب منه الروح . فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً .

ثم قامت فجئت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمها - وكان ورقة قد تنصّر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل - فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال ورقة : والذي نفسي ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر ، الذي كان يأتي موسى ، وإني لنبى هذه الأمة ، فقولي له : فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكافه وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقية ورقة وهو يطوف بالكعبة فقال : يا بن أخي ، أخبرني بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له ورقة : والذي نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس

(١) غطاني : مغطاني مصراً شديداً حتى وجعت منه العفة .

الأكبر الذي جاء موسى ، ولئن أنا أدركت ذلك الميعاد لأنصرن الله
فصراً يعلوه .

ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى منزله .

* * *

٢٠ - بدء التنزيل

فابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في شهر رمضان ، يقول
الله عز وجل : ﴿ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ
الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ .

ثم تمام الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن بالله
مصدق بما جاء منه . ومعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله ، على
ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى .

فآمنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاء من الله ، وكانت أول
من آمن بالله ورسوله ، وصدق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيه
صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه ، من رد عليه وتكذيب له ،
إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها .

ثم فتر الوحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة ، حتى شق ذلك
عليه فأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحى ، بقسم له ربه ، وهو الذي أكرمه
بما أكرمه ، ما ودعه وما قللاه ، يقول تعالى : ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى .
مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ
رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجْعَلْكَ يَتِيماً فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَانِلاً

فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بَيْنَكُمْ

رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

فجمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكر ما أنعم الله به عليه وعلى
العباد من به من النبوة ، سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله .

• • •

٢١ - فرض الصلاة

واقترضت الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، أتاه جبريل وهو بأعلى مكة ،
فهمز له يعقبه في ناحية الوادي فأنفجرت منه عين ، فتوضأ جبريل عليه السلام ،
ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ، ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضأ
رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل يتوضأ ، ثم قام جبريل ،
فصلى به ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته . ثم انصرف جبريل
عليه السلام .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة فتوضأ لها ، ليريه كيف
الطهور للصلاة ، كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ثم صلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صلى به جبريل ،
فصلت بصلاته .

• • •

ويقول ابن عباس : لما اقترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم
أتاه جبريل عليه السلام فصلى به الظهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر
حين كان ظله مثله ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء
الآخرة حين ذهب الشفق ، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر ، ثم جاءه فصلي
به الظهر من غد حين كان ظله مثله ، ثم صلى به العصر به حين كان ظله مثليه .
ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس ، ثم صلى به العشاء

الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول ، ثم صلى به الصبح مسفراً غير مشرق .

٢٢ - إسلام علي بن أبي طالب

وكان أول ذكر من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وصلى معه ، وصدق بما جاءه من الله تعالى : علي بن أبي طالب بن عبد المطلب
ابن هاشم ، وهو يومئذ ابن عشر سنين .

وكان من نعمة الله على علي بن أبي طالب ، ومما صنع الله له ، وأراد ربه
من الظهور ، أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه ، وكان من أسير بني هاشم :
يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من
هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بني رجلا ،
وتأخذ أنت رجلا ، فقال العباس : نعم .

فانطلقنا حتى أتيا أبا طالب فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من
عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ، قال لهما أبو طالب : إذا تركتما
لي عقيلا فاصنعا ما شئتما .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرأ
فضمه إليه . فلم يزل علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تبارك
وتعالى نبياً ، فاتبه على رضى الله عنه وآمن به وصدقته ، ولم يزل جعفر عند
العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

R وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حضرت الصلاة خرج إلى شباب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستغنياً من أبيه أبي طالب ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا .

فكنا كذلك ما شاء الله أن يمكنا ، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخي ، ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟

قال : أي عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسوله ، ودين أبيينا إبراهيم ، بعثني الله به رسولا إلى العباد ، وأنت - أي عم - أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوت إلى الهدى ، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه R فقال أبو طالب : أي ابن أخي ، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت .

٢٢ - إسلام زيد بن حارثة

ثم أسلم زيد بن حارثة . وكان حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق ، فيهم زيد بن حارثة وصيف ، فدخلت عليه همة خديجة بنت خويلد ، وهي يومئذ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك ، فاخترت زيدا ؛ فأخذته ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها ، فاستوهبه منها ، فوهبته له ، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه ؛ وذلك قبل أن يوحى إليه .

وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعا شديداً ، ثم قدم عليه وهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انت شئت فأقم عندي ، وإن شئت فانطلق مع أهلك » ؟ فقال : بل أقيم عندك . R

فلم يزل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله فصدقه ، وأسلم ، وصلى معه .

• • •

٢٤ - إسلام أبي بكر

ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة ، واسمه عتيق . وأمه أبي قحافة عثمان ابن عاصم بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر .

فلما أسلم أبو بكر رضى الله عنه أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله وإلى رسوله .

وكان أبو بكر رجلاً مألفاً^(١) لقومه ؛ محبباً سهلاً ؛ وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسه ، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به قومه ، ممن يشاء ويجلس إليه .

• • •

٢٥ - من أسلم بدعوة أبي بكر

فأسلم بدعاء أبي بكر عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس ،

(١) المؤلف : الذي يألفه الناس .

والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ،
وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب ،
وسعد بن أبي وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن مرة بن كلاب ،
وطلبة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن مرة بن كعب بن لؤى .

فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له فأسلموا وصلوا ،
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مادعوت أحداً إلى الإسلام
إلا كانت فيه عنده كبرة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن
أبي قحافة ، ما تلبث عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه .

• • •

٢٦ - من أسلموا بعد ذلك

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن
ضبة بن الحارث بن فهر ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله
ابن مر بن مخزوم ، والأرقم بن أبي الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد الله
ابن مر بن مخزوم ، وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح
ابن مرو بن حصيص بن كعب بن لؤى ، وأخوه قدامة ، وعبد الله ، ابنا
مظعون ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن
مرة ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى ، وامرأته فاطمة بنت
الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ، أخت عمر بن الخطاب ، وأسماء بنت أبي بكر ،
وعائشة بنت أبي بكر - وهى يومئذ صغيرة - وخباب بن الأرت ، حليف
بنى زهرة ، وعمر بن أبي وقاص - أخو سعد بن أبي وقاص - وعبد الله

ابن مسعود - بن الحارث - حليف بني زهرة - ومسعود بن ربيعة بن عمرو بن سعد
ابن عبد الله - من النخيلة - وسليط بن عمرو بن عبد شمس ، وأخوه حاطب
ابن عمرو وعياش بن أبي ربيعة بن النخيلة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ،
وامراته أسماء بنت سلامة التميمية ، وخنيس بن حذافة بن قيس بن عدي ،
وعامر بن ربيعة - من عنز بن وائل - وعبد الله بن جعش بن رثاب ، وأخوه
أبو أحمد بن جعش ، وجعفر بن أبي طالب ، وامراته أسماء بنت هبيل بن
النعمان ، وحاطب بن الحارث بن معمر بن حبيب بن وهب ، وامراته فاطمة
بنت الجليل بن عبد الله ، وأخوه حطاب بن الحارث ، وامراته فكيهة بنت يسار ،
ومعمر بن الحارث بن معمر بن حبيب ، والسائب بن عثمان بن مظعون بن حبيب
ابن وهب ، والمطلب بن أزمع بن عبد عوف ، وامراته رملة بنت أبي عوف
ابن صبيدة ، والنعمان بن عبد الله بن أسيد ، وعامر بن فميرة - مولى
أبي بكر الصديق - وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، وامراته
أمينة بنت خلف بن أسعد ، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس ، وأبو حذيفة
مهشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف -
حليف بني عدي بن كعب - وخالد ، وعامر ، وعاتل ، وإياس - بنو البكير
ابن عبد باليل بن قاسم - وهمار بن - حليف بني مخزوم بن يثقة -
وصهيب بن سنان ، أحد النخيلة قاسط .

ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر
الإسلام بمكة وتحدث به .

• • •

٢٧ - الجهر بالدعوة

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما جاءه

منه وأن يبادى الناس بأمره ، وأن يدعوه إليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ، ثلاث سنين من مبعثه ، ثم قال الله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾ .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشاب فاستنخروا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة ، إذا ظهر عليهم نفر من المشركين ، وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلهم . فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بهظم فشجه ، فكان أول دم هريق في الإسلام .

• • •

فلما بادی رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهم وعابها ، فلما فعل ذلك فأكروه وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من همم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل .

وحدث على رسول الله صلى الله عليه وسلم همه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهرًا لأمره ، لا يردده عنه شيء .

فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعتبهم^(١) من شيء

(١) لا يعتبهم : لا يرضيهم .

أنكروه عليه ، من فراقهم وعيب آلتهم ، ورأوا أن همه أبا طالب قد حذب عليه ، وقام دونه ، فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب : عتبة ، وشيبة - ابنا ربيعة بن عبد شمس - وأبو سفيان بن حرب ابن أمية ، وأبو البختري العاصي بن هشام بن الحارث بن أسد ابن عبد العزى ، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى وأبو جهل عمرو ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن هاشم بن حذيفة والعاص بن وائل بن هاشم ، فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلمتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آبائنا ، فإذا أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكنيكه ، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه .

* * *

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعو إليه ، ثم اشتد الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتعادوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، وحض بعضهم بعضاً عليه . ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومهزة فينا ، وإنا قد استنهييناك من ابن أخيك فلم تنه عنه ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلمتنا ، حتى تكفه عنا ، أو تنازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ؛ ثم انصرفوا عنه .

فغظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً إلا سلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاخذ لائحه .

ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق على وعلى نفسك، ولا تخلفني من الأمر ما لا أطيق.

فكُن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه رأى أنه خاذله، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته». ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى، ثم قام ^ب.

فلما ولي ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: اذهب يا بن أخي قل ما أحببت، فوالله لا أسلك لشيء أبداً.

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه، وإجماعه لقراقرهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد^(١) فتى في قريش وأجمله، فنخذه واتخذوه ولماً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أعلامهم، فقتله، فإنما هو رجل برجل.

(١) أنهد: أخذ وألوى.

فقال : والله لبئس ما تسومونني . أنمطونني أبدكم أغذوه لكم ،
وأعطيكم ابني تقتلونه ، هذا والله ما لا يكون أبداً .

فقال المطعم بن عدي بن نوفل : والله يا أبا طالب ، لقد أنصفك قومك .
وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني
ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك .

فاشتد الأمر ، وحيت الحرب ، وتنايذ القوم ، وبأدى بعضهم بعضاً .

٢٨ - تأمر قريش على المسلمين

ثم إن قريشاً تذا مروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من
المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم
منهم بعه أبي طالب .

وقد قام أبو طالب ، حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون في بني هاشم
وبني المطلب ، فدعاهم إلى ما هو عليه ، من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
والقيام دونه . فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه ،
إلا ما كان من أبي لهب ، عدو الله .

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ،
وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ،

وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً .

قالوا : فانت يا أبا عبد شمس ، قل وأقم لنا رأياً نقول به .

قال : بل أنتم تقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بكلام الكاهن ولا سبعة . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول هو شعر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرقوا منه بذلك ، فاجتمعوا يجلسون بطرق الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لم أمره .

وصدرت العرب من ذلك للموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها .

• • •

فلما انتشر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرب وبلغ البلدان .

ذكر بالدينة ، ولم يكن حتى من العرب أعلم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين ذكر وقبل أن يذكر ، من هذا الحى من الأوس والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود ، وكانوا لهم حلقاء ومعهم في بلادهم .

٢٩ - ما لقي الرسول من قومه

ثم إن قريشاً اشتد أمرهم ، للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم صفهاءم ، فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظاهر لأمر الله لا يستغنى به مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم . واجتمع أشرافهم يوماً فى الحجر فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أعلامنا ، وشتم آباءنا ، وطاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم .

فبينما هم فى ذلك ، إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، فمر فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فمر فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : « أأسمعون يا معشر قريش . أما الذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح ^(١) » . فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه

(١) بالذبح ، ينى : بالهلاك .

وصاة^(١) ليهدته بأحسن ما يحد من القول ، حتى إنه لنفسه : انصرف
يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا .

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا
في الحجر ، فقال بعضهم لبعض ذكروا ما بلغ منكم وما بلغكم عنه ، حتى إذا
بدأكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم في ذلك طالع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه
وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ - لما
كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم - فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
نعم ، أنا الذي أقول ذلك .

فأخذ رجل منهم عجم رداؤه . فقام أبو بكر رضى الله عنه عنه ، وهو
يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ فانصرفوا عنه .

٣٠ - إسلام حمزة

ثم إن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا ، فأذاه
وشتمه ، وقال منه بمض ما يكره من العيب لدينه والضعيف لأمره ، فلم
يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع
ذلك ؛ ثم انصرف عنه ، فعد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه ،
راجعا من صيد له - وكان صاحب صيد يخرج له ، وكان إذا رجع من
صيده لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على

(١) الوصية : الوصية .

فاد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز في قريش وأشد
شكينة ، فلما مر بالمولاة - وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته -
قالت له : يا أبا هارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آتفاً من أبي جهل ،
وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم
يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم .

فاحتمل حمزة الغضب ، لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف
على أحد ، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه
جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها
فشجعه شجة منكراً ، ثم قال : أنشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك
على أن استطمت !

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل :
دموا أبا هارة ، فإنني قد والله سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

ونم حمزة رضى الله عنه على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم من قوله .

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز
وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

٣٩ - ما كان بين عتبة والرسول

وحين أسلم حمزة ، ورأت قريش أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
يزيدون ويكثر ، قال عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، وهو جالس في نادي
قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يا معشر

فريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكله وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنمطيه
أبها شاء ، وبكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكله .
فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في المشيرة ، والمكان
في النسب ، وإنك قد أثبت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفقت
به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ،
فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد ، اسمع ، قال : يا بن أخي ،
إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جهنم لك من أموالنا حتى
تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا قطع
أمرأ دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا
الذي يأتيك رثياً^(١) تراه ، لا نستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب
وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع^(٢) على الرجل حتى
يदाوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه ، قال :
أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع مني . قال : أفعل . قال :
(بسم الله الرحمن الرحيم . حم : نزل من الرحمن الرحيم . كتاب فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
قُرْآنًا عَرَبِيًّا قُرْآنًا مَعْلُومًا . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَعَمَّيْوا لَا يَسْمَعُونَ .
وَقَالُوا أَكُفْرًا فِي آيَاتِنَا وَمَا نَذَعُونَ إِلَيْنَا . ثُمَّ مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الرثى : ما يترأى للإنسان من الجن .

(٢) التابع : من يتبع من الجن .

فيها يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتدلاً عليها يسمع منه . ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه . فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورأيت أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعرو ولا بالسعرو ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن نصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فلكم ملككم ، وعزّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

* * *

٣٢ - الرسول وأشراف قومه

وجعل الإسلام ينشوء بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنه من المسلمين ، فاجتمع أشراف قريش من كل قبيلة بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابشوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تمذروا فيه . فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك امكلموك فأنهم .

فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سرياً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه رأى ، وكان عليهم حرباً يحب رشدهم ، حتى جلس إليهم . فقالوا له : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لفكلك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، وما بقي أمر قبيح إلا قد

جئته فيما بيننا وبينك ، وإن كنت خير قابل منا شيئاً عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلاءاً ، ولا أقل ماءً ، ولا أشدّ عيشاً مدياً ، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فنخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، وسله فليجعل لك جناحاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما تراك تبغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم ، وتلمس المعاش كما تلمسه ، حتى تعرف فضلك ومنزلتك من ربك ، إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً . قالوا : فأسقط السماء علينا كسفاً ، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل .

وقام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حزيناً آسفاً ، لما فاته مما كان يطمح به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مبادئهم إياه .

فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، إن محمداً قد أبى إلا ما نرون من عيب
ديتنا ، وشتم آبائنا ، ونسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإنى أراه رسول الله
لأجلن له غداً بجهر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضعت به رأسه ،
فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف
ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نذلك لشيء أبداً ، فامض لما تريد . فلما أصبح أبو جهل
أخذ حجراً كما وصف ، ثم جالس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا
رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يفدو ، وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قبلته إلى الشام ، فـ كان إذا صلى جعل الكعبة بينه وبين الشام ، فقام
يصلى ، وقد غدت قريش فجاءوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعمل .

فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل
نحوه ، حتى إذا دنا منه رجم منهزماً منتقماً لونه مرعوباً قد يبت يده على
الحجر ، حتى قذف الحجر من يده . وقامت إليه رجال قريش فقالوا له :
مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قتت إليه لأفعل ما قالت لكم البارحة ، فلما
دنوت منه عرض لي دونه فخل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته قط
ولا أنيابه لتفعل قط ، فهم أن يأكلني .

فلما قال لهم ذلك أبو جهل ، قام النضر بن الحارث ، فقال : يا معشر
قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتكم به بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم
غلاماً حدثاً ، أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا
رأيتكم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قاتم : ساحر ! لا والله ما هو
بساحر ! وقلتم : كاهن ! لا والله ما هو بكاهن ! وقلتم : شاعر ! لا والله

ما هو بشاعر أو قاتم : مجنون ! لا والله ما هو بمجنون ! يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

• • •

وكان الأنضر بن الحارث من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس فذكر فيه بالله ، خلقه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش ، أحسن حديثاً منه ، فلم يأت ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟

• • •

٣٣ - أول جهر بالقرآن

واجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر بها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال عبد الله ابن مسعود ، أنا . قالوا : إنا نخشام عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه . قال : دعوني فإن الله سيمعني .

فقد ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ، وقريش في أندبته ، حتى قام عند المقام ثم قرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم) رافعاً بها صوته (الرحمن علم القرآن) ثم استقبلها يقرؤها . فتأملوه فحملوا يقولون : ماذا قال ابن مسعود ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا إليه فحملوا يضربون في وجهه ، وجمسل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك . قال : ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ، وأن شتمت لأغاديئهم بمثلها غداً ؟ قالوا : لا ، حسبك ، قد أسهمتهم ما يكرهون .

• • •

٣٤ - استماع قريش إلى قراءة الرسول

وخرج ليلة أبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل بن هشام ، والأخنس ابن شريق ، يستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع القمر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رأكم بعض سفهائكم لأوقفتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه في بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف

الشرف، أطمعوا وأطعمنا، وأعطوا وأعطينا، حتى إذا كنا كفرى رهان قالوا : منا
نبي يأتيه الوحي من السماء ، فتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا تؤمن به أبدا ولا نصدق .
فقام عنه الأحنس وتركه .

٣٥ - عدوان قريش على المستضعفين من المسلمين

ثم إن قريشا عدوا على من أسلم يمدبون من استضعفوا منهم ؛ فيفتنونهم
عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم
ويعصمه الله .

وكان بلال ، لبعض بنى جمح ؛ عoly من موالهم ، وكان صادق
الإسلام ، طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح
يخرجه إذا حيت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة
العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر
بمحمد وتبدلات والعزى . فيقول بلال وهو في ذلك البلاء : أحد ، أحد .
حتى مر به أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوما ، وهم يصنعون ذلك به
وكانت دار أبي بكر في بنى جمح ، فقال لأمية بن خلف : ألا اتقى الله في هذا
المسكين حتى متى ؟ قل : أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى . فقال أبو بكر :
أفعل ، عندي غلام أسود أقوى منه . على دينك ، أعطيك به . قل : قد قبلت
فقال : هو لك . فأعطاه أبو بكر عنه غلامه ذلك ، وأخذ فاعتقه .

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب . بلال
سابعهم . فقال أبوه أبو قحافة : يا بني ، إني أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك
إذا فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدأ يعمونك ويقومون دونك فقال
أبو بكر : يا أبت ، إنما أريد ما أريد الله .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت الإسلام - إذا حيت الظهيرة ، يذبونهم برمضاء مكة . فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوها ، وهي تآبى إلا الإسلام .

وكان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ، أفتيه ، وإن كان تاجراً قال : لتكسبن تجارتك ، وإن كان ضعیفاً غنمه وأغرى به .

٣٦ - الهجرة الأولى إلى الحبشة

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر أن يمنعهم عما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام .

فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، وهاجر إليها من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صفاراً وولدها بها ، ثلاثة وثمانين رجلاً .

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، انتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش إلى النجاشي ، فيردم عليهم ليهتنوهم في دينهم ، ويخرجوهم من ديارهم التي اطمأنوا بها وآمنوا فيها .

فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وهمرو بن العاص بن وائل، وجعلوا لهما هدايا للنجاشي، ولبطارقتة، ثم بعثوا إليه فيهم وقالوا لهما: ادعنا إلى كل بطريق هديته قبل أن نكلم النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

فخرجوا حتى قدما على النجاشي. فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلم النجاشي، وقال لكل بطريق منهم: إنه قد لجأ إلى بلد للثك غلمان مناصفاه، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إليكما ولا يكلمهم. فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي، فقبلهما منهما، ثم كلماه وكلمه البطارقة، فغضب النجاشي وقال: لا أسلمهم أبداً حتى أدعوم فأسألهم عما يقولون، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

فأرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقم فيه قومكم؟

فقال له جعفر بن أبي طالب: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلف ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، فصدقناه وآمنا به، فمداعلينا قومنا فذبونا ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك. فقال لهما النجاشي: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

٢٧ - إسلام عمر بن الخطاب

ولما قدم همرون المصاص ، وعبدالله بن أبي ربيعة على قريش ، ولم يدركا
ما طلبا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردهما النجاشي بما يكرهون ،
وأسلم عمر بن الخطاب - وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرأى ما وراء ظهره -
امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبجمزة ، حتى غابوا قريشاً .

* * *

وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم إلى الحبشة .

وتقول أم عبدالله بنت أبي حشمة : والله إنما لفترحل إلى أرض الحبشة ،
وقد ذهب عامر زوجي في بعض حاجاتنا ، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف
عليّ وهو على شركه - وكنا نأق من البلاء أذى لنا وشدة علينا - فقال :
إنه للانطلاق يا أم عبدالله ! قلت : نعم ، والله لنخرجن في أرض الله ، آذيتونا
وقهرتمونا ، حتى يجعل الله مخرجاً . فقال : صعبكم الله . ورأيت له رقة لم أكن
أراها . ثم انصرف وقد أحزنه خروجه .

فجاء عامر بحاجته تلك فقلت له : يا أبا عبدالله لو رأيت عمر آتياً ورقته
وحزنه علينا ! قال : أطمعت في إسلامه ! قلت : نعم . قال : فلا يسلم الذي
رأيت حتى يسلم حمار الخطاب بأساً منه ، لما كان يرى من غلظته
وقسوته على الإسلام .

* * *

وكانت أخته فاطمة بنت الخطاب ، عند سميد بن زيد بن عمرو بن نفيل ،
وكانت قد أسلمت ، وأسلم بعدها سميد بن زيد ، وهما مستغنيان بإسلامهما
عن عمرو .

وكان نعيم بن عبد الله النعمان ، من بني عدي بن كعب ، قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفى بإسلامه خوفاً من قومه .

وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يرثيها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطاً من أصحابه قد ذكروا أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم همه حزة ابن عبد المطلب ، وأبو بكر ، وعلى بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين ، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة .

فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الذي فرق أمر قريش فأنتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض ، وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ فقال : وأي أهل بيتي ؟ قال : خنتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلموا وتابوا محمداً على دينه فعليك بهما . فرجع عمر عائداً إلى أخته وختمه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها ، فلما سمعوا صوت عمر ، تغيب خباب في مخدع لهم ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها .

وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال :

ما هذه الهيمنة ^(١) التي سمعت ؟ قلالة : ما سمعت شيئاً . قال : بلا والله ، لقد أخبرت أنكما قابتما محمداً على دينه .

وبطش بمخنته سعيد بن زيد . فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجعها . فلما فعل ذلك قالت له أخته وخنته : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته : أعطني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها . قال : لا تخافي ، وحلف لها بألمته ليردنها - إذا قرأها - إليها .

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخى ، إنك نجس ، على شركك ، وإنه لا يمسه إلا الطاهر .

فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها « طه » ، فقرأها ، فلما قرأ منها صدرأ قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أئد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فإله الله يا عمر » .

.. فقال له عند ذلك عمر : فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه .

(١) الهيمنة : الصوت الذى لا يفهم .

فأخذ عمر سيفه فتوشعه ، ثم همد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب . فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلال الباب فرآه متوشعاً السيف . فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشعاً السيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له . فأذن له الرجل . ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ بجميع رداؤه ثم جذبه جذبة شديدة ، وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأؤمن بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله .

فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم .

فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم ، وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنها سيمعان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتصنفون بهما من عدوهم .

وكان عمر يقول : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة حتى آتته فأخبره أني قد أسلمت ؟ قلت : أبو جهل ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابي ، فخرج إلى

أبو جهل فقال : مرحباً وأهلاً يا ابن أختي ، ما جاء بك ؟ قلت : جئت
لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به .
فضرب الباب في وجهي وقال : قبعك الله وقبح ما جئت به .

٣٨ - تحالف الكفار وحديث الصحيفة

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا
بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد
أسلم فكان هو وحمة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأصحابه ، وجعل الإسلام يفسو في القبائل ، اجتمعوا واشتروا بينهم
أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم ، وبني المطلب ،
على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحهم ، ولا يبيعهم شيئاً ، ولا يتتاعوا
منهم .

فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتوافتوا على ذلك ،
ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب
ابن عبد المطلب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه ، وخرج من بني هاشم
أبو لهب إلى قريش فظاهرهم .

ولقي أبو جهل حكيم بن حزام ، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة
بنت خويلد ، وهي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه في الشعب ،
فتعلق به ، وقال : أتذهب إلى بني هاشم والله لا تبرح أنت وطعامك حتى
أفضعك بمكة .

فجاءه أبو البختری بن هاشم فقال : مالك وله ؟ قال : يحمل الطعام إلى

بنى هاشم . فقال له أبو البختري : طعام كان لعمته عنده . بعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خلّ سبيل الرجل .

فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه . فأخذ له أبو البختري مظم بغير فضر به فشجعه ، ووطمه وطمعاً شديداً .

وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك ؛ وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيشتتوا بهم .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهرّاً ، منادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس .

• • •

٢٩ - ما لقي الرسول من اذى قومه

فجعلت قريش حين منعه الله منها ، وقام عنه وقومه من بنى هاشم وبنى المطلب درنه وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ، يهزونه ويستعزثون به ويخصمون به ؛ وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداهم وفيمن نصب امداءه منهم ، فمنهم من سعى لنا ، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار ؛ فكان ممن سعى لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن : أبو لهب بن عبد المطلب ، وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية حمالة الحطب ، وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر ، فأنزل الله تعالى فيها : ﴿ تَبَّتْ رِجَاؤُنِي لَهْبٍ وَنَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ .

ثم إن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه

أبو بكر الصديق، وفي يدهما فهر من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرهما
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر. قالت: يا أبا بكر،
أين صاحبك؟ فقد باننى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه.

وكانت قريش إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مذمماً، ثم يسبون.
فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا تعجبون لما يصرف الله عنى
من أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذمماً، وأنا محمد.

• • •

وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، إذا رأى رسول
الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَبَلَّ اسْكُلُ هُمَزَةٍ
لُزْزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَمَعْدَةً. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ.
وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ. نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ. إِنَّهَا عَلَيْهِمْ
مُؤَصَّدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ.﴾

• • •

وكان خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينأى
بمسكة يعمل السيوف، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً حملها له، حتى
كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه. فقال له: يا خباب،، أليس يزعم محمد
صاحبكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتنى أهلها من ذهب، أوفضة
أوتياب، أو خدم؟ قال خباب: بلى. فقال: فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب
حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حثك فوالله لا تكون أنت وصاحبك
يا خباب آثر عند الله منى ولا أعظم حظاً فى ذلك. فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأَوْثِينَ مَالًا وَوَهْدًا . أَطْلَعِ النَّعِيبَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ وَزَيَّرْتَهُ مَا يُحُولُ وَيَأْتِينَا قَرْدًا ﴾ .

وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد
فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس ؛ وفي المجلس غير واحد من
رجال قريش ؛ فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرض له النضر بن
الحارث ؛ فذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفضعه .

ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي
حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبير : والله ما قام النضر
ابن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من
آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد الله بن الزبير : أما والله لو وجدته خلصته ،
فسلوا محمداً : أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد
الملائكة ، واليهود نعبد عزيزاً ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ، «عليهما السلام»
فجذب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبير ، ورأوا
أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم من
قول ابن الزبير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كل من أحب أن
يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ، ومن
أمرتهم بعبادته . فأنزل الله تعالى عليه في ذلك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا
الْأَسْفَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ
خَالِدُونَ ﴾ .

وكان الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بني زهرة ،
وكان من أشرف القوم وعمن يستمع منه ، فكان بصيب من رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، ويرد عليه ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلْفٍ مِمَّنْ
هَازِمٌ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ زَيْنِم ﴾

وكان أبي بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ، وعقبة بن أبي معيط ،
متصافين . حسنا ما بينهما ، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم وسمع منه ، فبأن ذلك أياً ، فأتى عقبة فقال له : ألم يبلغني أنك جالست محمداً
وسمعت منه ؟ وجهي من وجهك حرام أن أكلمك . واستغاظ من اليقين .
إن أنت جلست إليه أو سمعت منه ، أو لم تأنه فتتقل في وجهه . ففعل ذلك عدو
الله عقبة بن أبي معيط . لعنه الله . فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ وَيَوْمَ يَمُضُ الظَّالِمُ عَلَى
يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لَلْإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ .
ومشى أبي بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمظالم بال . قد
تكسر ، فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما رمى ، ثم فقه في يده
ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : نعم ، أنا أقول ذلك ، يبعث الله وإياك بعدما تكونان
هكذا ، ثم يدخلك الله النار . فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ
قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ
خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾

واعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالكعبة : الأسود بن

المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والوليد بن المغيرة ، وأمّية بن خلف ،
والعاص بن وائل السهمى - وكانوا ذوى أسنان في قومهم - فقالوا : يا محمد ،
هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فتشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان
الذى تعبد خيراً مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً
مما تعبد ، كنت قد أخذت بحظك منه . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا
الكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ
مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ . أى إن كنتم
لا تعبدون الله إلا أن أعبد ما تعبدون ، فلا حاجة لى بذلك منكم ، لكم
دينكم جميعاً ولى دىنى .

ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله
صلى الله عليه وسلم يكلمه وقد طمع فى إسلامه ، فبينما هو فى ذلك إذ مر به ابن
أم مكتوم الأعشى ، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يستقرئه القرآن ،
فشق ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضجره ، وذلك أنه
شفله عما كان فيه من أمر الوليد ، وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكره عليه
انصرف عنه عابساً وتركه . فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَن جَاءَهُ
الْأَعْمَى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ .

٤٠ - رجوع مهاجرى الحبشة

وبانغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين خرجوا إلى أرض

البشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا يتحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستغنياً .

فجميع من قسدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلاً .

* * *

٤١ - ابن مظنون ورده لجوار الوليد

ولما رأى عثمان بن مظنون ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء - وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة - قال : والله إن غدوى ورواحى آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهل دينى بلاء من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبنى ، انتقص كبير في نفسى ، فمضى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ، وقت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك . فقال له : لم يابن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومي . قال : لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ، ولا أريد أن استجير بغيره . قال : فانطلق إلى المسجد فاردد على جوارى علانية كما أجرتك علانية . فانطلقا فخرجتا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء برد على جوارى . قال : صدق وجدته وفيها كريم الجوار ، ولكنى قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره . ثم انصرف عثمان ، وليد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قریش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

قال عثمان : صدقت . قال لبيد :

* وكل نعيم لا محالة زائل *

قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول . قال لبيد بن ربيعة :
يا مشر قریش ، والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟
فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا
فلا نجدن في نفسك من قوله . فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما ، فقام
إليه ذلك الرجل فلطم عينه فغضرها . والوليد بن الغيرة قريب يرى ما بلغ
من عثمان ، فقال : أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك مما أصابها
لغنية ، لقد كنت في ذمة منيمة . فيقول عثمان : بل والله ، إن عيني المصيبة
لفغيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإنني لفي جوار من هو أعز منك
وأقدر يا أبا عبد شمس . فقال له الوليد : هلم يا ابن أخي ، إن شئت فعد
إلى جوارك . فقال : لا .

* * *

٤٢ - استجارة أبي سلمة بأبي طالب

ثم إن أبا سلمة لما استجار بأبي طالب ، مشى إليه رجال من بني مخزوم ،
فقالوا له : يا أبا طالب ، لقد منعت منا ابن أخيك محمداً ، فمالك ولصاحبنا
نمنعه منا ؟ قال : إنه استجار بي ، وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع ابن أختي
لم أمنع ابن أخي . فقام أبو لهب فقال : يا مشر قریش ، والله لقد أكثرتم
على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله
لأنتهين عنه أو لتقوين معه في كل ما قام فيه ، حتى يبلغ ما أراد . فقالوا :
بل ننصرف مما نكره يا أبا عتبة ، وكان لهم ولياً وناصراً على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فأبقوا على ذلك . فطعم فيه أبو طالب حين
سمعه يقول ما يقول ، ورجا أن يقوم معه في شأن رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، وقال شعراً يحرّضه على نصرته ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

٤٣ - أبو بكر ورده لجوار بن الدغنة

وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما رأى ، استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر مهاجراً ، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين ، لقيه ابن الدغنة أخو بني الحارث بن عبدمناة بن كنانة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، فقال ابن الدغنة : أين يا أبا بكر ؟ قال : أخرجني قومي وآذوني وضيقوا عليّ . قال : ولم ؟ فوالله إنك أتزين العشيّة ، وتعين على الذنائب ، وتفعل للعروف ، وتكسب للمعدوم ، ارجع فأنت في جوارى . فرجع معه ، حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة قفلاً : يا معشر قريش ؛ إني قد أجرت ابن أبي قحافة ، فلا يعرضن له أحد إلا بخير . فسكروا عنه .

وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح ، فكان يصلي فيه ، وكان رجلاً رقيقاً ؛ إذا قرأ القرآن استبكي ، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء بمحبون لما يرون من هيئته . فشي رجال من قريش إلى ابن الدغنة ، فقالوا له : يا ابن الدغنة ، إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ، إنه رجل إذا صلى ، وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي ، فتعفن تتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأنهيه ومُرّه أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء ،

فشى ابن الدغنة إليه فقال له : يا أبا بكر ، إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ، وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

قال : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ قال : فاردد على جوارى . قال : قد رددته عليك . فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش ، إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى فشانكم بصاحبكم .

فلقيه سفيد من سفهاء قريش ، وهو عامد إلى الكعبة ، فخنا على رأسه تراباً . فرأى بكر الوليد بن المغيرة — أو العاصى بن وائل — فقال أبو بكر : ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفية ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك .

• • •

١٤ - نقض الصحيفة

ثم إنه قام فى نقض تلك الصحيفة ، التى نكثت فيها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب ، فمر من قريش ، ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام ابن عمرو بن ربيعة بن الحارث ، وذلك أنه كان ابن أخى نضلة بن هاشم ابن عبد مناف لأمه ، فكان هشام لبى هاشم واصلاً ، وكان ذا شرف فى قومه ، فكان يأتى بالبعر ، وبنى هاشم وبنى المطلب فى الشعب ليلاً ، قد أوتره طعاماً ، حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه ، فدخل الشعب عليهم ، ثم يأتى به قد أوقره برزاً فيفعل به مثل ذلك .

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن لغيرة بن عبد الله بن هر بن مخزوم، وكانت أمة هاتكة بنت عبد المطلب، قال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب، وأخوالك حيث قد علمت، لا يباحون ولا يتعام منهم، أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل مادعائك إليهم، ما أجابك إليه أبداً. قال: ويحك يا هشام! فإذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله أن لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها حق أنقضها. قال: قد وجدت رجلاً. قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زهير: ابئنا رجلاً ثالثاً. فذهب إلى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف فقال له: يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن أمكنتهم من هذه، لتجدنهم إليها منكم سراغاً. قال: ويحك! فإذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانياً. قال: من هو؟ قال: أنا. قال: ابئنا ثالثاً. قال: قد فلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية. قال: ابئنا رابعاً. فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحموا بما قال للمطعم بن عدى، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: زهير ابن أبي أمية، والمطعم بن عدى. وأنا معك. قال: ابئنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلّمه، وذكر له قرابتهم وحقوقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمي له القوم.

فاتعدوا خطم الحجون ليلاً بأهل مكة، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم

وتعاقدوا على القيام في الصعيفة حتى ينتفضوها ، وقال زهير : أنا أبدؤكم ،
فأكون أول من يكلم . فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبي أمية
عليه حلة فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ،
أنا كل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكت لا يباع ولا يبتاع منهم ؟
والله لا أقعد حتى تشق هذه الصعيفة القاطمة الظالمة .

قال أبو جهم ، وكان في ناحية المسجد : كذبت والله لا تشق . قال
زمنة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت . قال
أبو البختري : صدق زمنة ، لا رضى ما كتب فيها ، ولا تقربه . قال
المطعم بن عدي : صدقما وكذب من قال غير ذلك ، نيرا إلى الله منها ، وما
كتب فيها . وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك . فقال أبو جهم : هذا أمر
قضى بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان .

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد ، فقام للمطعم إلى الصعيفة ليشتقها فوجد
الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » .

* * *

٤٥ - إسلام الطفيل بن عمرو

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما يرى من قومه ، يبذل لهم
النصيحة ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه ، وجعلت قريش ، حين منعه الله منهم ،
يحذرون الناس ومن قدم عليهم من العرب .

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يحسد أنه قدم مكة ورسول الله
صلى الله عليه وسلم بها ، فشى إليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلاً
شريفاً شاعراً ليلاً ، فقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل

الذى بين أظهرنا قد أعضل^(١) بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشقت أمرنا ، وإنا
قوله كالسعر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين
الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ،
فلا تكلمنه ولا تسمع منه شيئاً .

قال : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، حتى
حشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفاً^(٢) فرغاً من أن يبلغنى شئ .
من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمع . قال : فعذوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله
صلى الله عليه وسلم قائم يصلى عند الكعبة . قال : فقامت منه قريباً ، فأبى الله
إلا أن يسمعنى بعض قوله : فسمعت كلاماً حسناً . فقلت فى نفسى : وائكل
أبى والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن
أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذى يأتى به حسناً قبضته ، وإن
كان قبيحاً تركته .

فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبته ،
حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لى كذا
وكذا ، للذى قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفونى أمرك حتى سددت أذنى
بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك ، فسمعت به قولاً
حسناً ، فأعرض على أمرك . قال : فمرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم
الإسلام ، ونلا على القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً
أعدل منه . قال : فأسلت وشهدت شهادة الحق . وقلت : يا نبي الله ، إني

(١) أعضل : اشتد أمره .

(٢) الكرسف : القطر .

امرو مطاع في قومي ، وأنا راجع إليهم ، وداعيتهم إلى الإسلام . ولقد أسلم
بإسلام الطفيل أبوه وزوجته ونفر من قومه .

• • •

٤١ - الإسراء والمعراج

ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى ، وهو بيت المقدس من إيلياء ، وقد فشا الإسلام بمكة في قريش ، وفي
القبائل كلها .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق - وهي الدابة التي كانت
تحمل عليها الأنبياء قبله - فحمل عليها ، ثم خرج به صاحبه ، يرى الآيات فيما
بين السماء والأرض ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم
الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له ، فصلى معهم ، ثم أتى
بثلاثة آنية : إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء . فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : فسمعت قائلاً يقول حين عرضت علي : إن أخذ الماء غرق
وغرقت أمته ، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته ، وإن أخذ اللبن هدى
وهديت أمته قال : فأخذت إناء اللبن ، فشربت منه ، قال لي جبريل عليه
السلام : هديت وهديت أمتك يا محمد .

• • •

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غدا على
قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أذكركم الناس هذا والله الأمر ^(١) البين والله
إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيزهد ذلك
محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ فارتد كثير من كان أسلم ، وذهب

(١) الأمر : العجب .

الناس إلى أبي بكر ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة . فقال لهم أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يوجبكم من ذلك ، فوالله إنه ليخبرني أن انظر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما نعجبون منه . ثم أتبل حق انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال : يا نبي الله ، فصفه لي ، فإني قد جئته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرفم لي حتى نظرت إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئاً ، قال : صدقت . أشهد أنك رسول الله ، حتى إذا انتهى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : وأنت يا أبا بكر الصديق فيومئذ سماء الصديق .

* * *

٤٧ - خروج الرسول إلى الطائف

ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه . ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده .

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى فخر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف ، وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد باليل بن عمرو

ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير ، فبعاس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال له أحدهم : هو ينزع ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلّمك أبداً ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لا أنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي لي أن أكلّمك . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد بنس من خير ثقيف ، وقد قال لهم : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيثيرهم ذلك عليه .

فلم يفعلوا ، وأغروا به سفاهم وعبيدهم ، وألجئوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفاه ثقيف من كل يتبعه ، فعمد إلى ظل شجرة من عنب ، فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان مالتى من سفاه أهل الطائف .

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

فلما رآه ابنا ربيعة : عتبة وشيبة ، ومالتى ، تحركت له رجليهما^(١) ، فدعوا

(١) الرحم : الصلة والقرابة .

غلاماً لهما نصرانياً ، يقال ، له : عدّاس ، فقالا له : خذ قطعاً من هذا العنب ،
فضمه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، قتل له يأكل منه . ففعل
عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : باسم الله ،
ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قل : والله إن هذا الكلام ما يقوله
أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أهل أي البلاد
أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .
فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي . فأكب عداس على رسول الله
صلى الله عليه وسلم بقبل رأسه ويديه وقدميه . فلما جاءها عداس قال له :
وبلك يا عداس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدي ،
ما في الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بامر ما يعلمه إلا نبي . قال له :
ويحك يا عداس ! لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .



٤٨ - عرض الرسول نفسه على قبائل مكة

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من
خلافة وفراق دينه ، إلا قليلاً مستضعفين ، بمن آمن به ، فكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يعرض نفسه في اللوازم ، إذا كانت ، على قبائل العرب يدعوهم
إلى الله ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويعتصموا به حتى
يبين لهم الله ما بعثه به .

ويحدث ابن عباس فيقول : إني لفلان شاب مع أبي بنى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، بأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعلموا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتصدقوا بي وتمنوني ، حتى أبين عن الله ما بعثني به . قال : وخلفه رجل أحول وضوء ، له غديران عليه حلة عذنية . فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا إليه ، قال ذلك الرجل : يا بني فلان ، إن هذا يدعوكم أن تسامخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

قال : فقلت لأبي : يا أبت ، من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟
قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، أبو لهب .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم : أرايت إن نحن بأمرناك على أمرك ، ثم أظهر لك الله على من خالفك ، أيبكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله بضعه حيث يشاء . فقال له : أفنهدف^(١) نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهر لك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم ، قد كانت أدركته السن ، حتى لا يقدر أن يوافق معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه

(١) تهدف ، بالبناء للجھول : تمير هدفاً .

بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألمهم عما كان في موسمهم ، فقالوا : جاءنا فتى من قريش ، ثم أحد بني عبد المطلب ، يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا . فقال : فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ، هل لها من تلاف ؟ والذي نفس فلان بيده ، ما تقولها إسماعيلي^(١) قط ، وإنما لحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟

* * *

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه ، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب ، له اسم وشرف إلا تصدى له ، فسدماه إلى الله ، وعرض عليه ما عنده .

* * *

٤٩ - إسلام الأنصار

وقدم أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتصقون بالحلف من قريش على قومهم من الخزرج . فسمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل على الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاما حدثا : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له . فأخذ أنس بن رافع حفنة

(١) إسماعيل : أي ما ادعى النبوة كاذبا أحد من بني إسماعيل .

من تراب البطحاء ، ففرض بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ،
فلعمري لقد جئنا لغير هذا . فصمت إياس ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم
عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج .

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ،
وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي أتته
فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع في كل
موسم ، فبينما هو عند العقبة وجد رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً .

ولما أتتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أنتم ؟ قالوا : نفر
من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون
أكلكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم
الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع الله بهم في الإسلام ، أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا
أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوه
ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن ، قد أغل
زمانه تنبهه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله صلى الله عليه
وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا والله
أنه للنبي الذي توعدكم به يهود ؛ فلا تسبقكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه
بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا
قومنا ، ولا قوم بينهم من المداوة والشر ما بينهم ، فسي أن يجمعهم الله بك ؛ فنفق

عليهم ، فتدعوهم إلى أمرك ، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين
فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم وقد
آمروا وصدقوا.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
ودعاهم إلى الإسلام حتى نشأ فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار
إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فتوجه
بالمقبة فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب
ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، وأمره أن يقرئهم
القرآن ، ويهديهم الإسلام ، ويقيمهم في الدين ، فسكن يسمى القرئ بالمدينة :
مصعب ، وكان ينزل على أسعد بن زرارة بن عدس أبي أمامة ، وهو أول من
جمع بين أسلم بالمدينة ، وكانوا أربعين رجلا .

• • •

• • • مبايعة الأنصار للرسول

وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم
من أهل الشرك ، حتى تسموا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

العقبة ، من أوسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته ،
والنصر لنبيه ، وإعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله .

يقول كعب بن مالك : ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ، قال : فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، ومعنا أبو جابر عبد الله ابن عمرو بن حرام ، سيد من سادتنا ، وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من سادتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطباً للنار غداً ، ثم دعونا إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا العقبة ، فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان نقيباً .

فتمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نذلل أسال القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نساءنا .

فاجتمعنا في الشعب ننظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءنا معه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يامعشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى

من الأنصار : الخزرج ، خزرجها وأوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم ، قد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أجبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتهم إليه ، وما نعوذ من خالفه ، فأنتم وما تعمان من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده . قتلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فنخذ لنفك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذي بعثك بالحق نبياً ، لنمنعك مما تمنع منه أزرتنا^(١) ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة^(٢) ، ورتناها كائراً عن كائبر . فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم - أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الهم الهم ، والهدم الهدم^(٣) ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسلم من سالمتم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا إلى منكم اثني عشر قتيلاً ،

(١) أزرتا : نساءنا .

(٢) الحلقة : السلاح .

(٣) الهدم : أي حرمتي حرمتكم .

ليكونوا على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للنباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين اميسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي — يعني المسلمين — قالوا : نعم .

وكان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم للبراء بن معرور ، ثم بايع بعده القوم .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفضوا إلى رحالكم . فقال له العباس بن عباد بن فضالة : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم تؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، فرجعنا إلى مضاجعنا ، فمدا عليها حتى أصبحنا .

فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش ، حتى جاءونا في منازلنا ، فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، والله ما من حي من العرب أبغض إلينا ، أن تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم . فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء ، وما علمناه .

ونفر الناس من « منى » ، فبعث القوم الخبير ، فوجدوه قد كان ، وخرجوا في طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عباد بأذاخر^(١) ، والنذر بن عمرو ، أخا

(١) أذاخر : موضع قريب من مكة .

بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج وكلاهما، كان نقيباً . فأماللنذر فأعجز القوم
وأما سعد فأخذوه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه
مكة يضربونه ، ويجذبونه بحمته ، وكان ذا شعر كثير .

٥١ - الهجرة إلى المدينة

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في
الحرب ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ، والصنح عن الجاهل .
وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم
وقومهم من بلادهم ، فهم من بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم ، ومن بين
هارب في البلاد فراراً منهم ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ،
وفي كل وجه . فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم
به من الكرامة ، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا ونفوا
من عبده ، ووحده وصدق نبيه واعتمص بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله
صلى الله عليه وسلم في القتال والانتصار عن ظلمهم وبغى عليه .

فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في الحرب ، وبأيمه هذا الحى من
الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه ، وأدى إليهم من المسلمين ، أمر رسول
الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من
المسلمين ، بالخروج إلى المدينة والمهجرة إليها ، والاحرق بإخوانهم من الأنصار ،
وقال : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها . فخرجوا أرسالا ،
وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج
من مكة ، والمهجرة إلى المدينة .

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين من قريش ، من بنى مخزوم : أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة ، فلما آذنه قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً .

وتقول أم سلمة : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ، ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة في حجرى ، ثم خرج بي بقود بعيره ، فلما رآته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبك هذه ؟ علام تتركك تسير بها في البلاد ؟ فترعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه . وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، رهط أبي سلمة ، فقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتعاذبوا ابني سلمة بينهم حتى ظلموا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة ففرق بينى وبين زوجى وبين ابنى ، فكنت أخرج كل غداة أجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنة أو قريباً منها ، حتى مر بي رجل من بنى عسى ، أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ! فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها فقالوا لى : الحتى زوجك إن شئت . ورد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابنى ، فارتحلت بعيرى ، ثم أخسذت ابنى فوضعتة فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، وما معى أحد من خلق الله ، قلت أنبلغ بمن لقيت

حتى أقدم على زوجي ، حتى إذا كنت بالتنعيم^(١) لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ قلت : أريد زوجي بالمدينة . قال : أو ما معك أحد ؟ قلت : لا والله ، إلا الله وبني هذا . قال : والله مالك من مترك ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معي يهوي بي ، فوالله ما صنعت رجلا من العرب قط ، أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري ، فحط عنه ، ثم قيده في الشجرة ، ثم تنعى غنى إلى شجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الروح قام إلى ببعيري فقدمه فرحله ، ثم استأخر عني ، وقال : اركبي ، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخنثامه ، فقاده ، حتى ينزل بي . فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني للمدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقاء ، قال : زوجك في هذه القرية . وكان أبو سلمة بها نازلا . فادخلها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا إلى مكة .

فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

• • •

ثم خرج عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبي ربيعة الخزومي ، حتى قدما المدينة . قال عمر بن الخطاب : اتطعت ، لما أردنا الهجرة إلى المدينة ، أنا وعياش ابن أبي ربيعة ، وهشام بن العاصي بن وائل السهمي ، التناضب^(٢) ، وقلنا

(١) التنعيم : موضع على فرسخين من مكة .

(٢) التناضب : موضع .

أبنا لم يصبح عنده. فـدُحِيسُ فليعض صاحباه ، فأصبحت أنا وعياش
ابن أبي ربيعة عند التناضب ، وحبس عنا هشام ، وقتن فانتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل
ابن هشام ، والحارث بن هشام ، إلى عياش بن أبي ربيعة ، وكان ابن ههما
وأخاهما لأمهما ، حتى قدما علينا المدينة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم
بمكة ، وقالوا :

إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من
شمس حتى تراك ، فرق لما . فقلت له : يا عياش ، إنه والله إن يريدك القوم
إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرم ؛ فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو
قد اشتد عليها حر لاستظلت . فقال : أير قسم أمي ، ولي هنالك مال آخذه .
قلت : والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قریش مالا ، فلك نصف مالي ولا
تذهب معهما . فأبى علي إلا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلا ذلك ، قلت له :
أما إذا فعلت ما فعلت ، فعند ناقتي هذه ، فإنها ناقة نجبية ذلول ، فالزم ظهرها ،
فإن رابك من القوم ريب ، فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل :
يا بن أخي ، والله لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تعينني على ناقتك هذه ؟ قال :
بلى . فأناخ ، وأناخا ليتحول عليها ، فلما استوى بالأرض هدوا عليه ، فأوثقاه
وربطاه ، ثم دخلا به مكة ، وقتناه فانتن .

ثم إنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهرا مؤثقا ، ثم قالوا : يا أهل مكة ،
هكذا فافلوا بسفهاكم ، كما فعلنا بسفهيها هذا .

٥٢ - هجرة الرسول إلى المدينة

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخاف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أوفقن ، إلا هلي بن أبي طالب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق رضي الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمجل أهل الله بعمل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعه وأصحاب من غيرهم بغير بائهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً ، وأصابوا منهم منة ، فعذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تفضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . حين خافوه .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً . فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الثمراء الذين كانوا قبله ، زهيراً ، والنابغة ، ومن مضى منهم ، من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم . ثم قال

قاتل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ، فنتقيه من بلادنا ، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ، ولا حيث وقع . إذا ظاب عنا فرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألقتنا كما كانت . فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لي فيه رأيا ما أراكم وقتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطي كل فتي منهم سيفا صارما ، ثم يعدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالمقل^(١) ، فمقلناه لهم . وتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له . .

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبث هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبث عليه . فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام ، فيثبثون عليه . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : نم على فراشي ونسج يبردى هذا الحضرى الأخضر ، فتم فيه فإنة لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك إذا نام .

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آت من لم يكن معهم ، فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟

قالوا : محمدا . قال : خيبكم الله لقد والله خرج عليكم محمد ، ثم جعلوا

(١) المقل : الدية .

يتظلمون فيرون علياً على الفراش متسجياً يبرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فيقولون : والله إن هذا لحمد غائماً ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى
أصبغوا ، فقام على رضى الله عنه عن الفراش ، فقالوا : والله لقد كان صدقنا
الذى حدثنا .

وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلاً ذا مال ، فكان حين استأذن رسول
الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تجعل ،
لعل الله يجعل لك صاحباً ، قد طمع بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم
إنما يعنى نفسه ، حين قال له ذلك ، فابتاع راحلتين ، فاحتبسهما في داره ؛
يعلنهما إعداداً لذلك .

تقول عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخطى أن يأتي
بيت أبي أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى
أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ؛ وانخرج من مكة بين
ظهرى قومه ، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، في ساعة كان
لا يأتي فيها . فلما رآه أبو بكر ، قال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلا لأمر حدث .

فلما دخل صلى الله عليه وسلم تأخر له أبو بكر عن مريره ؛ فجلس رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبي
بكر ، فقال ، رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عني من عندك ؛

فقال : يا رسول الله إنما هنا ابتلى ؛ وما ذاك ؟ فذاك أبى وأمى . فقال : إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة .

فقال أبو بكر : الصعبة يا رسول الله . قال : الصعبة . ثم قال : يا نبي الله ، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتها لهذا . فاستأجرا عبد الله بن أريقط ، رجلا من بنى الدئل بن بكر ، وكانت أمه امرأة من بنى سهم بن عمرو — وكان مشركا — يدلها على الطريق ، فدفعنا إليه راحلتيهما ، فكاتتا عنده يرعاها لميادهما . ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج ، إلا على بن أبى طالب . وأبو بكر الصديق ، وآل أبى بكر ؛ أما على ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخاف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته ، صلى الله عليه وسلم .



فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج ، أتى أبا بكر بن أبى قحافة ، فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم حمدا إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبى بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولا أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يرعيها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى فى الغار . وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمسى بما يصلحهما .

وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا ، فدخل

أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمس الفار ، لينظر
أفيه سبع أو حية ، يقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .
فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفار ثلاثاً ومعه أبو بكر ، وجعلت
قريش فيه ، حين قدوه ، مائة ناقة ، لمن يرده عليهم . وكان عبد الله بن
أبى بكر يكون في قریش نهاره معهم ، يسمع ما يأمرون به ، وما يقولون في شأن
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر .
وكان عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر رضى الله عنه ، يرعى في رعيان أهل مكة ،
فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبها ، فإذا عبد الله بن أبى بكر
غدا من عندهما إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يقبض عليه . حتى
إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه
ببيريهم أو بغير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها بسفرتها ،
ونسيت أن تحمل لها عصاماً ^(١) ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها
عصام ، فتحل نطاقها فتجعله عصاماً ، ثم علقتهما به .

فكان يقال لأسماء بنت أبى بكر : ذات النطاق ، لذلك .

فلما قرب أبو بكر ، رضى الله عنه ، الراحلتين إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، قدم له أفضلهما ، ثم قال : اركب ، فذاك أبى وأمى . فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : إني لا أركب بغيراً ليس لى . قال : فهى لك يا رسول
الله بأبى أنت وأمى . قال : لا ، ولكن ما للثمن الذى ابتعتما به ؟ قال : كذا

(١) العصام . مانعاً به السفرة .

وكذا . قال : قد أخذتها به . قال : هي لك يا رسول الله فركبها وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصديق رضي الله عنه عامر بن فهيرة مولاة خلفه ، ليعدهما في الطريق .

وتقول أسماء : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر رضي الله عنه ، أنا أنا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ قلت : لا أدري والله أين أبي ؟ فرفع أبو جهل يده - وكان قاحشاً خبيثاً - فاطم خدي لكمة طرح منها قرطلي ثم انصرف ، فكنتنا ثلاث ليال وما ندري أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أربعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهما .

وتقول أسماء : ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم أرسسنة آلاف ، فانطلق بها معه . قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة ، وقد ذهب بصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قلت : كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . قالت : فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ، ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم ، ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

• • •

ويقول سراقه بن مالك : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن يردده عليهم . قال : فبينما أنا جالس في نادى قومي إذ أقبل رجل منا ، حتى وقف علينا ، فقال : والله لقد رأيت ركة ثلاثة مروا على آفتا ، إني لأراهم محمداً وأصحابه فأومأت إليه بعيني : أن اسكت ، ثم قلت : إنعام بدو فلان ، يتبعون ضالة لهم . قال : لعنه ، ثم سكت ، ثم مكثت قليلاً ، ثم قلت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفرسي ، فتيدلي إلى بطن الوادي ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لى من دبر حجرتى ، ثم أخذت قداحى التى أستمست بها ، ثم انطلقت ، فابست لأمنى^(١) ، ثم أخرجت قداحى فاستمست بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، وكنت أرجو أن أرده على قريش فأخذ المائة الناقة ، فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشتد بى عثر بى فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستمست بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فبينما فرسى يشتد بى عثر بى فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستمست بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فبينما فرسى يشتد بى عثر بى فسقطت عنه فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستمست بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره . فلما بدا لى القوم ورأيتهم ، عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ، فمرفت حين رأيت ذلك ، أنه قد منع منى ، فناديت القوم فقلت : أنا سراقه بن جشم ، انظرونى أكلكم ، فوالله لأأريكم ولا يأتىكم منى شئ تكرهونه فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : قل له : وما تبتغى منا ؟ فقال ذلك أبو بكر .
قلت : تكتب لى كتاباً يكون آية بينى وبينك . قال : اكتب له يا أبا بكر .
ثم ألقاه إلى ، فأخذته ، فجعلته فى كنانتى ، ثم رجعت ، فسكت فلم أذكر
شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرغ
من حنين والطائف ، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فرفعت يدى بالكتاب ،
ثم قلت : يا رسول الله ، هذا كتابك لى ، أنا مصراقة بن جشم ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبرءادته ، قد نوت منه فأسلت .

ويقول رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما سمعنا
بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، كنا نخرج إذا صلبنا الصبح ،
إلى ظاهر حرتنا فننظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله لا نبرح حتى تغلبنا
الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلاً دخلنا ، وذلك فى أيام حارة ، حتى إذا
كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جلسنا كما كنا
نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين دخلنا البيوت ، فساكن أول من رآه رجل من اليهود ، فصرخ بأعلى
صوته : يا بنى قيلة^(١) ، هذا جدكم قد جاء . فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل حته ، وأكثرتنا
لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، وركبه الناس - وما
يعرفونه من أبى بكر - حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقام أبو بكر وأظله بردائه ، فمرفناه عند ذلك .

فنزّل رسول الله صلى الله عليه وسلم على كاثوم بن هدم ، أخى بنى عمرو
ابن عوف .

(١) قيلة : هم الأنصار ، وقيلة إخوة كانت لهم .

ونزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على خبيب بن أساف .

وأقام على بن أبى طالب عليه السلام بمكة ثلاث ليل وأيامها ، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل معه على كلثوم ابن هدم .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس ، وأسس مسجده . ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة ، فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة .

٤٤ — مسجد الرسول بالمدينة وبيته

فأتاه رجال من بنى سالم بن عوف فقالوا : يا رسول الله ، أقم عندنا فى المدد والمدة والمنة . قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، لناقة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا وازنت دار بنى بياضة ، تلقاه رجال من بنى بياضة ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا ، إلى المدد والمدة والمنة . قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة اعترضه رجال من بنى ساعدة فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا إلى المدد والمدة والمنة . قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج ، قالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا إلى المدد والمدة

والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا
مرت بدار بني عدي بن النجار - وهم أخواله دنيا - اعترضه رجال من بني
عدي بن النجار ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلى أخوالك ، إلى العدد والعدة
والمنعة . قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ،
حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار ، بركت على باب مسجده صلى الله
عليه وسلم ، وهو يومئذ مر به لفلانين يقيمون من بني النجار ، فلما بركت ،
ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل ، وثبت فسارت غسبر بعيد ،
ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضح لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفت إلى
خلفها ، فرجعت إلى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ، فنزل عنها رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فاحتل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في يده ،
ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل عن المريد لمن هو ؟ فقال له
عاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسمل وسهيل ابني عمرو ، وهما يتيان لي ،
وسأرضيهما منه ، فاتخذ مسجداً .

فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ، ونزل رسول
الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمل فيه
رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون
والأنصار ، ودأبوا فيه .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبي أيوب حتى بنى له مسجده
ومساكنه .

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق بمكة منهم
أحد إلا مفتون أو محبوس ، ولم يهرب أهل هجرة من مكة بأهلهم وأموالهم
إلى الله تبارك وتعالى ، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أهل دور

مسمون: بنو مظلومون من بنى جمح ، وبنو جعش من رثاب، حلفاء بنى أمية ، وبنو البكير، من بنى سمد بن ليث، حلفاء بنى عدى بن كعب، إزدورهم غلقت بمكة هجرة ، ليس فيها ساكن .

ولما خرج بنو جعش بن رثاب من دارهم ، عدا عليها أبو سفيان بن حرب ، فباعها من هرو بن علقمة ، فلما بلغ بنى جعش ما صنع أبو سفيان بدارهم ، ذكر ذلك عبد الله بن جعش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى يا عبد الله أن يمطيك الله بها داراً خيراً منها في الجنة ؟ قال : بلى . قال : فذلك لك . فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة كلمه أبو أحمد بن جعش في دارهم ، فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الناس لأبى أحمد : يا أبا أحمد ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم في الله عز وجل ، فأمسك عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• • • المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصعابه من المهاجرين والأنصار ، فقال :

تآخروا في الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد علي بن أبى طالب ، فقال : هذا أخى .

فلما أطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، واجتمع إليه الإخوان من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استعكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ

الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تسبوا والدار والإيمان .

• • •

٥٦ - حديث الأذان

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة لما يجتمع الناس إليه للصلاة حين مواقيتها ، بغير دعوة ، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها أن يجعل بوقاً كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه .

فبينما هم على ذلك ، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه ، أخو بلعازث بن الخزرج ، النداء ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله ، إنه طاف بى هذه الليلة طائف ، مربى رجل عليه ثوبان أخضران ، يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت له : يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قل : وما تصنع به ؟ قلت : ندعوه إلى الصلاة . قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قل : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حتى على الصلاة ، حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح ، حتى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فلما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فأتها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً منك . فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب ، وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجر رداءه ، وهو يقول : يا نبي الله ، والذى بعثك

بالحق ، لقد رأيت مثل الذي رأى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا الحمد على ذلك .

• • •

٥٧ - الرسول ويهود المدينة

ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة . بغياً وحسداً وضمناً ، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ، ممن كان بقي على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق على دين آباؤهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام واتخذوه جنة من الانتل ، وناقضو في السر ، وكان هوام مع يهود ، لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعودهم الإسلام ، وكانت أحبار يهودهم هم الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقتنون ، ويأتونه باللبس ، ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه ، إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام ، كان المسلمون يسألون عنها .

• • •

وكان من حديث عبد الله بن مسلام حين أسلم ، وكان حبراً عالماً ، قال : لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوقع له ، فكنت مسروراً لذلك ، صامتاً عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

فلما نزل بقاء ، في بني عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبره بقدمه ، أنو في رأس نخلة لي أهل فيها ، وعمى خالدة بنت الحارث تمحي جالسة ، فلما

سمعت الخبير بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت ، فقالت لي هني ،
حين سمعت تكبيري : خيبك الله ! والله لو كنت سمعت بموسى بن هيران
قادمًا ما زدت ! فقلت لها : أي حمة ، هو والله أخ موسى بن هيران ، وعلى
دينه ، بعث بما بعث به . فقالت : أي ابن أخي ، أهو الذي القى كذا نخبأ أنه يبعث
مع نفس الساعة ؟ فقلت لها : نعم . فقالت : فذاك إذن . قال : ثم خرجت
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل يثرب ،
فأمرتهم فأسلموا .

وكان من حديث مخبري ، وكان حبراً عالمًا ، وكان رجلاً غنياً كثير
الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ،
وما يجد في علمه ، وغلب عليه لآل دينه ، فلم يزل على ذلك ، حتى إذا كان
يوم أحد ، وكان يوم أحد يوم السبت ، قال : يا معشر يهود ، والله إنكم
لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال :
لا سبت لكم . ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بأحد ، وعهد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم ، فأموالي لحمد
صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما أراه الله . فلما اقتتل الناس ، قاتل حتى
قتل ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مخبري خير يهود .
وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله ، فعامة صدقات رسول الله صلى
الله عليه وسلم بالمدينة منها .

وكان حي بن أخطب ، وأخوه أبو ياسر بن أخطب ، من أشد يهود

للعرب حسداً ؛ إذ خدعهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله تعالى فيهما : (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَنُوا وَاصْنَعُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

• • •

وكان ممن انضاف إلى يهود : جلاس بن سويد بن الصامت ، وأخوه الحارث بن سويد .

وجلاس الذي قال — وكان ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك — : إئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحر . فرغم ذلك من قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم همير بن سعد ، وكان في حجر جلاس ، خلف جلاس على أمه بعد أبيه ، فقال له همير بن سعد : والله يا جلاس ، إنك لأحب الناس إلي ، وأحسنهم عندي بدءاً ، وأعزهم على أن يصيبه شيء بكرهه ، ولقد قلت مقالة لننرفعها عليك لأفضحك ، ولئن صحت عليها ليهلكن ديتي ، ولا حداها أيسر على من الأخرى . ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر له ما قاله جلاس ، فحلف جلاس بالله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كذب على همير ، وما قلت ما قال همير بن سعد . فأنزل الله عز وجل فيه : **مَنْ عَصَى اللَّهَ فَإِنَّهُ كُفْرٌ وَلَئِنَّ اللَّهَ فَازٌ بِالْإِيمَانِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ اللَّهُ بِهِ لَخُلُوفٌ مِنْ أَفْئِدَتِهِمْ يُظْفَرُونَ** .

فزهوا أنه تاب فعسفت توبته ، حتى عرف منه الخير والإسلام . وأخوه الحارث بن سويد ، الذي قتل الجذر بن زياد البلوي ، وقيس بن زيد ، أحد

بنى صيعة ، يوم أحد ، خرج مع المسلمين ، وكان منافقاً ، فلما التقى الناس عدا
عليهما فقتلها ثم لحق بقريش .

• • •

ونبتل بن الحارث ، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب
أن ينظر إلى الشيطان ، فليتنظر إلى نبتل بن الحارث . وكان رجلاً جسيماً
أسود نائر شعر الرأس ، أحمر العينين ، أسفم الخدين ، وكان يأتي رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، يتحدث إليه ، فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ،
وهو الذي قال : إنما محمد أذن من حديثه شيئاً صدقه . فأنزل الله عز وجل فيه .
(وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيُكْفُرُونَ هُوَ أَذْنٌ قُلْ أَذْنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمَنْ
بِاللَّهِ وَيَوْمَنْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

• • •

ومربع بن قبيص ، وهو الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أجاز
في بستانه ورسول الله صلى الله عليه وسلم عامد إلى أحد : لا أحل لك يا محمد ،
إن كنت نبياً ، أن تمر في بستانى ، وأخذ في يده حفنة من تراب ، ثم قال :
والله لو أعلم أنى لا أصيب بهذا التراب غيرك لميتك به . فابتدره القوم
ليقتلوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوه . فهذا الأعمى أعمى القلب ،
أعمى البصيرة . فضربه سعد بن زيد ، أخو بنى عبد الأشهل ، بالقوس فشجعه .

• • •

وعبد الله بن أبي بن سلول ، وكان رأس المنافقين وإليه يجمعون ،

وهو الذي قال : لئن رجعنا إلى المدينة لينخرجن الأعز منها الأذل ، في غزوة
بنى المصطلق ، وفي قوله ذلك ، نزلت سورة « المنافقون » بأسرها .

• • •

وكان ممن تعمود بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره ،
وهو منافق ، من أحبار يهود : زيد بن اللصيت ، الذي قاتل عمر بن الخطاب
رضي الله عنه بسوق بنى قينقاع ، وهو الذي قال ، حين ضلت ناقة رسول الله
صلى الله عليه وسلم : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقة
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءه الخبر بما قال مدوا الله في رحله ،
ودل الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ناقة : إن قائلا قال : يزعم
محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدرى أين ناقة ؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله
وقد دلتني الله عليها ، فهي في هذا الشعب ، قد حبستها شجرة بزمامها . فذهب
رجال من المسلمين ، فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وكما وصف .

• • •

ورافع بن حرملة ، وهو الذي قال له الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين
مات : قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين .

• • •

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون إلى المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين
ويسخرون ويستهمزئون بدينهم ، فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس ، فرآهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبدون بينهم خافض أصواتهم ، قد لصق
بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد
إخراجاً عذيقاً .

ففي هؤلاء من أحبار يهود ، وللناقين من الأوس والخزرج ، نزل صدر
سورة البقرة إلى المائة منها .

• • •

وكان يهود يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعته ، فلما بعث الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، أخو بني سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته . فقال سلام ابن مشكم ، أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكركم لكم ، فأنزل الله في ذلك من قولهم : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فأنزله الله على الكافرين) .

• • •

وقال رافع بن خزيمة ، ووهب بن زيد ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، اتقنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وفجر لنا أنهاراً ، نقبعك ونصدقك . فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما : (أم تريدون أن نسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) .

• • •

ولما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رافع ابن خزيمة : ما أنتم على شيء ، ومكفر بعيسى وبالإنجيل ، فقال رجل من

أهل نجران من النصارى لليهود ، ما أنتم على شيء ، وجهد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) .

* * *

وقال رافع بن حرملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، إن كنت رسولا من الله كما تقول ، فقل لله فليكلما حتى نسمع كلامه . فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ يَفْقَهُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) .

* * *

ولما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة ، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعة بن قيس وآخرون ، فقالوا : يا محمد ، ما ولاك من قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها ، نتبعك ونصدقك ، وإنما يريدون بذلك فتنه عن دينه ، فأنزل الله تعالى فيهم : (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلشَّرِيقِ والمَغْرِبِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

٥٨ - حديث الجاهلة

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، ستون راكبا ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، في الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم بثول أصرم : العاقب ، أمير القوم وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيهم ، واسمه عبدالمسيح ؛ والسيد ، ثمالم (١) ، وصاحب رحابهم ومجتمعتهم ، واسمه الأيهم ؛ وأبو حارثة بن علقمة ، أحد بني بكر ابن وائل ، أسقفهم وحبرهم وإمامهم ، وصاحب مدارسهم .

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ، ودرس كتبهم ، حتى حسن عمله في دينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه . وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات ، لما يلفهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم .

فلما رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران ، جلس أبو حارثة على بئلة له موحيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى جنبه أخ له ، يقال له : كرز بن علقمة ، فمثرت بئلة أبي حارثة ، فقال كرز : تعس الأبعد ، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست . فقال : ولم يا أخي ؟ قال : والله إنه للنبي الذي كنا نتظر . فقال له كرز : ما يملك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا ومولونا وكرمونا ، وقد أبوا إلا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى . فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة ، حتى أسلم بعد ذلك .

ولما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم للدينه ، فدخلوا عليه وسجدوا

(١) ثمال القوم ، ككتاب : غياثهم الذي يقوم بأمرهم .

حين صلى العصر ، عليهم ثياب الخيرات ، جُيب وأردية ، في جبال رجال بني الحارث بن كعب ، وقد حانت صلاتهم ، فقاموا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوهم ، فصَلُّوا إلى المشرق .

فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم : أبو حارثة بن عتمة ، والعاقب عبدالمسيح ، والأبيهم السيد ، وهم من النصرانية على دين الملك ، مع اختلاف من أمرهم ، يقولون : هو الله ، ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة . وكذلك قول النصرانية .

فلما كلمه الخبران ، قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسلما . قالوا : قد أسلمنا . قال : إنكما لم تسلما فأسلما . قالوا : بلى ، قد أسلمنا قبلك . قال : كذبتما ، بمنكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير . قالوا : فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهما .

فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم : واختلاف أمرهم كله ، صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أمر من ملاعتهم ، دعاهم إلى ذلك .

فقالوا له : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه . فانصرفوا عنه ، ثم حلوا بالعاقب - وكان ذا رأيهم - فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟ فقال : يا معشر النصارى ، لقد عرفت أن محمداً نبي

مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاهن قوم نبيًا
قط فبقى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإياه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن
كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في
صاحبكم ، فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاءذك ، وأن نتركك على
دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابث معنا رجلا من أصعابك ترضاه لنا ،
يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوني العشية أبث معكم القوي
الأمين . فكان عمر بن الخطاب يقول : ما أحببت الإمارة قط حتى إياها يومئذ ،
رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً ، فلما صلى بنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه ، وعن يساره ، فجأت أنطاول
له ليراني ، فلم يزل يلمس ببصره ، حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح ، فدعاه ،
فقال : اخرج معهم ، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه . قال عمر : فذهب
بها أبو عبيدة .

• • •

٥٩ - من أخبار منافق المدينة

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وسيد أهلها عبدالله بن أبي بن
سلول الموفى ، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج
قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره ، حتى جاء الإسلام ،
ومعه في الأوس رجل ، هو في قومه من الأوس شريف مطاع ، أبو عامر عبد
مرو بن صبي بن النعمان ، أحد بني ضبيعة بن زبد ، وهو أبو حنظلة ، الفسيل
يوم أحد ، وكان قد ترهب في الجاهلية ، ولبس السوح ، وكان يقال له :
الراهب ، فشقيا بشرفهما وضرهما .

فأما عبد الله بن أبي ، فكان قومه قد نظدوا له انخرز ليتوجوه ، ثم
يملكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم ، وهم على
ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ، ورأى أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام ؛ دخل فيه
كارهاً مصرغاً على نفاق وضغن .

وأما أبو عامر فآبى إلا الكفر وانفراق قومه ، حين اجتمعوا على الإسلام
فخرج منهم إلى مكة بيضة عشر رجلاً ، مفارقاً للإسلام ورسول الله صلى
الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا : الراهب .
ولكن قولوا الفاسق .

وكان أبو عامر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ،
قبل أن يخرج إلى مكة ، فقال : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ فقال : جئت
بالحنيفية دين إبراهيم . قال : فأنا عليها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
إنك لست عليها . قال : بلى . قال : إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها
قال : ما فعلت ، ولكن جئت بها بيضاء نقية . قال : الكاذب أمانته الله طريداً
غريباً وحيداً — يعرض برسول الله صلى الله عليه وسلم — قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : أجل ، فمن كذب فعل الله تعالى ذلك به . فكان هو ذلك
عدو الله ، خرج إلى مكة ، فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج
إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، فأت بها طريداً
غريباً وحيداً .

٦ - غزواته صلى الله عليه وسلم

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة يوم الاثنين ، حين اشتد الضياء ، وكادت الشمس تمعدل ، اثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة . وذلك بعد أن بعث الله عز وجل بثلاث عشرة سنة ، فأقام بها بقية شهر ربيع الأول ، وشهر ربيع الآخر ، وجهاديين ، ورجباً ، وشعبان ، وشهر رمضان ، وشوالاً ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، والحرم ، ثم خرج غازياً في صفر ، على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة واستعمل على المدينة سعد بن عباد .

حتى بلغ ودان ، وهي غزوة الأبواء ، يريد قريشاً . وبنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فوادعته فيها بنو ضمرة ، وكان الذي وادعه منهم عليهم مخشى بن عمرو الضمري ، وكان سيدهم في زمانه ذلك . ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ولم يبق كيداً ، فأقام بها بقية صفر ، وصدرًا من شهر ربيع الأول . وبمث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في مقامه ذلك بالمدينة ، عبدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي ، في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز ، بأسفل ثنية المرة ، فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش ، فلم يكن بينهم قتال ، إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمى به في الإسلام .

ثم انصرف القوم عن القوم ، والمسلمين حامية ، وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرايمي ، حليف بني زهرة ، وعتبة بن غزوان بن جابر اللاتفي ، حليف بني نوفل بن عبد مناف ، وكانا مسلمين ، ولكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار ، وكان على القوم عكرمة بن أبي جهل .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامه ذلك ، حمزة بن عبد المطلب ابن هاشم إلى سيف البحر ، من ناحية الميصر ، في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثمانية راكب من أهل مكة ، فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجمهوى - وكان موادعاً للفريقين جميعاً - فانصرف بعض القوم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال .

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول يريد قريشاً ، واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ، حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً ، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر ، وبعض جهادى الأولى .

ثم غزا قريشاً ، فاستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، فلاك على نعب بنى دبنار ، ثم على فيفاء الخباز ، فنزل تحت شجرة يبطحاء ابن أزر ، يقال لها : ذات الساق ، فصلى عندها . ثم سجد صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم فترك الخلائق^(١) يسار ، وسلك شعبة يقال لها : شعبة عبد الله ، وذلك اسمها اليوم ، ثم حسب لليسار حتى هبط بليل ، فنزل بمجتمعه ومجتمع الضبوعة ، واستقى من بئر بالضبوعة ، ثم سلك الفرش - فرش ملل - حتى اتى الطريق بصعيرات اليمام ، ثم اعتدل به الطريق ، حتى نزل العشيرة من بطن بنبع ، فأقام بها جهادى الأولى وإيالى من جهادى الآخرة ، ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً .

• • •

وقد كان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما بين ذلك من غزوة ، سعد

(١) الخلائق : أرض كانت لعبد الله بن جعش بناحية المدينة .

ابن أبي وقاص ، في ثمانية رهط من المهاجرين ، فخرج حتى بلغ الخرار ، من أرض
الحجاز ، ثم رجع ولم يلق كيدا .

• • •

ولم يَم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين قدم من غزوة العشرة
إلا ليالي قلائل ، لا تبلغ العشرة ، حتى أغار كرز بن جابر الفهري على مسرح
للمدينة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه واستعمل على المدينة
زيد بن حارثة .

حتى بلغ واديا ، يقال له : صفوان ، من ناحية بدر ، وفاته كرز بن جابر ،
فلم يدركه ، وهي غزوة بدر الأولى ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
المدينة ، فأقام بها بقية جمادى الآخرة ، ورجبا وشعبان .

• • •

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جعش بن رثاب الأودي
في رجب ، مقاتله من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ،
وليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتابا ، وأمره ألا ينظر فيه حتى
يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضي لسا أمره به ، ولا يستكره من أصحابه
أحدا .

فلما سار عبد الله بن جعش يومين فتح الكتاب ، فنظر فيه ، فإذا فيه :
إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخله ، بين مكة والطائف ، فتصد
بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم . فلما نظر عبد الله بن جعش في الكتاب ،
قال : سمعا وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن أمضى إلى نخلة ، أرصد بها قريشاً ، حتى آتيتهم منهم بخبر ، وقد نهاني أن
أستكره أحداً منكم . فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينتلق ، ومن كره
ذلك فليرجع ، فأما أنا فهاض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمضى ومعه
أصحابه ، لم يتخاف منهم أحد .

وسلك على الحجاز ، حتى إذا كان بمعدن ، فوق الفرع ، يقال له : بحران ،
أضل سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان ، بميراً لهما ، كانا يعتقانه ، فتخلفا
عليه في طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة ،
فمرت به غير لقريش تحمل زيباً وأدماً ، وتجارة من قريش ، فيها عمرو بن
الحضرمي ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله ، الحزوميان ،
والحكم بن كيسان ، مولى هشام بن المغيرة .

فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريباً منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن
محسن ، وكان قد حلق رأسه ، فلما رآه أمتوا ، وقالوا : همار ، لا بأس
عليكم منهم ، وتشاور القوم فيهم ، وذلك في آخر يوم من رجب ، فقال القوم :
والله لئن تركتم القوم هذه الآية ليدخلن الحرم ، فليقتلن منكم به ، ولئن
قتلنهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم وهاجوا الإقدام ، ثم شجعوا
أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، وأخذ ما معهم ،
فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان
ابن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله ، فأعجزهم ،
وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالخير والأسيرين ، حتى قدموا على رسول
الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، قال : ما أمرتكم
بقتال في الشهر الحرام ، فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك
شيئاً . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم سقط في أيدي القوم ، وظنوا
أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا . وقالت قريش :
قد استعمل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه
الأموال ، وأسروا فيه الرجال .

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم :
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ) .

فلما نزل القرآن بهذا الأمر ، وفرج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه
من الخوف ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين ، وبعثت إليه
قريش في فداء عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : لا تفديكما حتى يقدم صاحبانا - يعني : سعد بن أبي وقاص ،
وعتبة بن غزوان - فإننا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما تقتل صاحبكم . قدم
سعد وعتبة ، فأفداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم .

فأما الحكم بن كيسان فأسلم ، فحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بدر معونة شهيداً ، وأما عثمان بن عبد الله
فلحق بمكة ، فأت بها كافراً .

* * *

٦١ - غزوة بدر

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي سفيان بن حرب مقبلا من

الشام، فذهب لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش، وتجارة من تجارتهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، منهم: مخزومة بن نوفل بن أحيب ابن عبد مناف بن زهرة، وعمر بن العاص بن وائل بن هشام.

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلاً من الشام، قدب المسلمين إليهم، وقال: هذه غير قريش، فيها أموالهم، فأخرجوا إليها، لعل الله ينفلكهمها، فالتدب الناس، فغف بعضهم، وقتل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حرباً. وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتعسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمد قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فعذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الففاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً، فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه. فخرج ضمضم بن عمرو سريماً إلى مكة.

وقد رأت هاتكة بنت عبد المطلب، قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال، رؤيا أفزعها فمشت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب، فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتمت عنى ما أحدثك به. فقال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أفل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا فدر^(١) لمصارعكم، في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فيدنا

هم حوله ، مثل به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها : ألا انفروا بالغدر لمصارعكم ، في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس ، فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى ، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت ، فما بقي بيت من بيوت مكة ، ولا دار ، إلا دخلها منها قلقة . قال العباس : والله إن هذه رؤيا ، وأنت طاكتها ، ولا تذكريها لأحد .

ثم خرج العباس ، فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صديقاً ، فذكرها له واستكنمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، ففشا الحديث بمكة ، حتى تحدثت به في أنديتها .

قال العباس : فقدوت لأطوف بالبيت ، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود ، يتحدثون برؤيا عائكة ، فلما رآني أبو جهل قال : يا أبا الفضل ، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا ، فلما فرغت أقبلت ، حتى جلست معهم ، فقال لي أبو جهل : يا بني عبد المطلب ، متى حدثت فيكم هذه النبوة ؟ قلت وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التي رأت عائكة . قلت : وما رأت ؟ قال : يا بني عبد المطلب ، أمارضيتهم أن يتنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم ؟ قد زعمت عائكة في رؤياها أنه قال : انفروا ، في ثلاث ، فستريص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول فيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب . قال العباس : فوالله ما كان مني إليه كبير ، إلا أني وجدت ذلك ، وأنكرت أن تكون رأت شيئاً . قال : ثم تفرقنا .

فلما أمسيت ، لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني ، فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن

هتلك غير شيء مما سمعت أقات : والله قد فعلت ، ما كان منى إليه من كبير ،
وإيم الله لا تعرض له ، فإن عاد لا كفيئتكه .

فقدوت في اليوم الثالث من رؤيا عائكة ، وأنا حديد منضرب ، أرى أنى
قد فأتى منه أمر أحب أن أدركه منه ، فدخلت المسجد فرأيت ، فوالله إنى لأمشى
نحوه أتعرضه ليمود لبعض ما قال ، فأقع به - وكان رجلاً خفيفاً ، حديد الوجه ،
حديد اللسان ، حديد النظر - إذ خرج نحو باب المسجد يشتد . فقلت في نفسي :
ماله لعنه الله ، أكل هذا فرق منى أن أشاتم ، وإذا هو قد سمع ما لم أسمع : صوت
ضخم بن عمرو الغفارى ، وهو يصرخ ببطن الوادى واقفاً على بعيره ، قد جدم
بعيره ، وحول رجله ، وشق قميصه ، وهو يتول : يا مشرق برش ، اللطيمة^(١) ،
اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن
تدركوها ، الفوث الفوث . فشاقى عنه ، وشغلنى عني ، ما جاء من الأمر .

فتجهز الناس سراعى ، وقالوا : أياظن محمد وأصحابه أن تكون كبير
ابن الحضرمي ، كلا والله ليعلمن غير ذلك . فكانوا بين رجلين : إما خارج ،
وإما باعث مكانه رجلاً . وأوءبت قريش ، فلم يتخلف من أشرافها أحد .

إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب تخلف ، وبعث مكانه العاصي بن هشام
ابن المغيرة ، وكان قد لاطله بأربعة آلاف درهم كانت له عليه ، أفلس بها ،
فاستأجره بها ، على أن يجزى عنه ، بعثه فخرج عنه ، وتخلف أبو لهب .

ولما فرغوا من جهازهم ، وأجهزوا السير ، ذكروا ما كان بينهم وبين
بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب ، فقالوا : إنا نخشى أن يأتونا من
خلفنا ، وكاد ذلك يشبههم ؛ فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك

(١) اللطيمة : الإبل تحمل البر والطيب .

ابن جشم الدبلي ، وكان من أشرف بني كنانة ، فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ، فتخرجوا سراها .
وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه ، واستعمل هرو بن أم مكتوم - أخا بني عامر بن لؤي - على الصلاة بالناس ، ثم رد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة .
ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وكان أبيض .

وكان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان : إحداهما مع علي بن أبي طالب ، يقال لها : العقاب ، والأخرى مع بعض الأنصار .

وكانت إبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سبعين بعيراً ، فاعتقبوها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلي بن أبي طالب ، ومرثد ابن أبي مرثد الفزوي ، يعتقبون بعيراً ، وكان حمزة بن عبد المطلب ، وزيد ابن حارثة ، وأبو كبشة ، وأنسة ، موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعتقبون بعيراً ، وكان أبو بكر ، وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، يعتقبون بمسيراً .
وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة ، أخا بني مازن بن النجار . وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ . فسلك طريقته من المدينة إلى مكة ، على نقب المدينة ، ثم على العتيق ، ثم على ذي الحليفة ، ثم على أولات الجيش .

واقفوا رجلاً من الأعراب ، فسألوه عن الناس ، فلم يجدوا عنده خبراً ، فقال له الناس : سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : أوفيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم ، فلم عليه ، ثم قال : إن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه . قال له سلمة بن سلامة بن وقش : لا تسأل رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، وأقبل على ، فأنا أخبرك عن ذلك : تزوت عليها ، ففى
بطنها منك سخله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفعثت على الرجل !
ثم أعرض عن سلمة .

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجج ، وهى بُر الروحاء ، ثم
ارتحل منها ، حتى إذا كان بالنصرف ، ترك طريق مكة يسار ، وسلك ذات
اليمين على النازية ، يريد بدرآ ، فلاك فى ناحية منها ، حتى جزع وادباً ، يقال
له : رحقان ، بين النازية وبين مضيق الصفراء ، ثم على المضيق ، ثم انصب
منه ، حتى إذا كان قريباً من الصفراء ، بعث بسيس من الجهنى ، حليف
بنى ساعدة ، وعدى بن أبى الزغباء الجهنى ، حليف بنى النجار ، إلى بدرية هسان
له الأخبار ، عن أبى سفيان بن حرب وغيره ، ثم ارتحل رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وقد قدمهما . فلما استقبل الصفراء ، وهى قرية بين جبلين ، سأل عن
جبليهما ما اسماهما فقالوا : يقال : لأحدهما هذا ملح ، والآخر : هذا منخري ،
وسأل عن أهلها ، فقيل : بنو النار ، وبنو حراق ، بطنان من بنى غفار ، فكرههما
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرور بينهما ، وتقال باسميهما واسماء أهلها ،
وتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم والصفراء يسار ، وسلك ذات اليمين
على واد يقال له : ذفران ، فجزع فيه ، ثم نزل .

وأناه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيهم ، فاستشار الناس ، وأخبرهم
عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق ، فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال
وأحسن ؛ ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن
معك ، والله لا نقول لك كقالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ،
إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ،
فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغنادر لقاتلنا معك من دونه ، حتى
تبلغه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعاه به .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علي أيها الناس . وإنا
يريد الأنصار ، وذلك أنهم عـدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة ،
قالوا : يا رسول الله . إنا برآء من ذمامك ، حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا
فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا عن دمه
بالمدينة من عدوه ، وأن أبس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم . فلما
قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك
تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . قال : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن
ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموائيقنا ، على
السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي
بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته ، لخضناه معك ، ما تخلف منا
رجل واحد ، وما نكره أن يبقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في
الائمان . ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال :
سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني
الآن أنظر إلى مصارع القوم .

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزل قريباً من بدر ، فركب هو
وأبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش ، وعن محمد
وأصحابه ، وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخراني عن أمتي ؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أخبرتنا أخبرناك . قال : أذاك بذاك ؟
قال : نعم قال الشيخ : فإنه بائني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ،
فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، لمكان الذي به رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا كذا ، وإن كان
الذى أخبرنى صدقنى ، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذى فيه قريش .
فلما فرغ من خبره ، قال : عن أنما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
نحن من ماء ، ثم انصرف عنه . قال : يقول الشيخ : ما من ماء ؟ أمن ماء
المراق ؟

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على
ابن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، فى نفر من أصحابه ،
إلى ماء بدر ، يلتصقون الخيل له عليه ، فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم ، غلام
بنى الحجاج ، وعريض أبو يسار ، غلام بنى العاص بن سعيد ، فأتوا بهما ، فساووهما ،
ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، فقالا : نحن سقاة قريش ، بعثونا
نستقيهم من الماء ؟ فسكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان ، فضر بهما ،
فلما بالغوا فى ضربهما قالوا : نحن لأبى سفيان ، فتركوهما ، وركع رسول الله
صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتين ثم سام ، وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما ،
وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا ، والله إنهما لقريش ، أخبرانى عن قريش ؟
قالا : هم والله وراء هذا الكتيب الذى ترى بالمدوة القصوى . والكتيب :
العنقل . قل لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم القوم ؟
قالا : كثير . قال : ما عدتهم ؟ قالا : لا ندرى . قال : كم ينحدرون كل يوم ؟
قالا : يوماً تسماً ، ويوماً عشراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم
فيما بين التسعمائة والألف . ثم قال لهما : فن فيهم من أشرف قريش ؟ قالا :
عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البغثرى بن هشام ، وحكيم بن حزام ،
ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ،

والنضر بن الحارث ، وزمة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأميرة بن خلف ،
ونبيه ، ومنبه ، إينا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبدود . فأقبل رسول
الله صلى الله عليه وسلم على الناس ، فقال : هذه مكة قد آتت إليكم
أفلاذ أكبادها .

وكان بسبس بن عمرو ، وعدى بن أبي الزغباء ، قد مضيا حتى نزلا بدرأ ،
فأناخا إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا شئاً لهما يستقيان فيه ، ومجدى بن عمرو
الجهنى على الماء ، فسمع عدى وبسبس جاريتين من جوارى الحاضر ، وهما
يتلازمان على الماء ، وللزومة تقول لصاحبتها : إنما تأتى العير غداً أو بعد غد ،
فأعمل لهم ، ثم أقضيك الذى لك . قال مجدى : صدقت ، ثم خلص بينهما .
وسمع ذلك عدى وبسبس ، فجلسا على بعيريهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فأخبراه بما سمعا .

وأقبل أبو صفيان بن حرب ، حتى تقدم العير حذراً ، حتى ورد الماء ،
فقال لمجدى بن عمرو : هل أحسست أحداً ؟ فقال : ما رأيت أحداً أنكره ،
إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيان فى شئ لهما ، ثم
انطلقا . فأتى أبو صفيان مناخهما ، فأخذ من أبقار بعيريهما ، فقتله ، فإذا فيه
النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، فرجع إلى أصحابه سريعا ، فضرب
وجهه عبره عن الطريق ، فساحل بهما ، وترك بدرأ يسار ، وانطلق حتى أسرع .

وأقبلت قريش ، فلما نزلوا الجحفة ، رأى جهوم بن الصلت بن مخزومة بن
الطلب بن عبد مناف رؤيا ، فقال : إني رأيت فيما يرى النائم ، وإني لبين النائم
واليقظان ، إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس ، حتى وقف ، ومعه بميرله ،
ثم قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأميرة

ابن خلف ، وفلان وفلان ، فعدد رجالا ممن قتل يوم بدر ، من أشرف قريش ،
ثم رأيت ضرب في لبة بعيره ، ثم أرسله في السكر ، فما بقي خباء من أخبية
السكر إلا أصابه نضج من دمه .

فبلغت أبا جهل ، فقال : وهذا أيضاً نبي آخر من بني المطلب ، سيمم غداً
من للقتول إن نحن التقينا .

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز غيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما
خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله ، فارجموا . فقال
أبو جهل بن هشام : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ - وكان بدر موسماً من مواسم
العرب ، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ،
ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وأسمع بنا العرب ، ويمسرونا وجهنا ،
فلا يزالون بها يومنا أبداً بعدها ، فامضوا .

وقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، وكان حليفاً لبني
زهرة ، وهم بالحنظلة : يا بني زهرة ، قد نبى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم
صاحبكم مخزومة بن نوفل ، وإنا نفرتم لتتمسوه وماله ، فاجعلوا لي جنبها
وارجموا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة ، لا ما يقول هذا ،
يعني أبا جهل ، فرجموا ، فلم يشهدوا زهرى واحداً طاعوه ، وكان فيهم مطاعاً .
ولم يكن بقي من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس ، إلا بني عدي ، من كعب ،
لم يخرج منهم رجل واحد ، فرجعت بني زهرة مع الأخنس بن شريق ، فلم يشهد
بدرأ من هاتين القبيلتين أحد ، ومضى القوم . وكان بين طالب بن أبي طالب -
وكان في القوم - وبين بعض قريش محاورة ، فقالوا : والله لقد عرفنا يا بني

هاشم ، وإن خرجتم معنا ، أن هوأكم لمع محمد ، فرجع طاب إلى مكانه مع من رجع .

ومضت قريش حتى نزلوا بالمدوة القصوى من الوادي ، وبعث الله السماء ، وكان الوادي دهساً ، فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ، ولم يمنعم من السير ، وأصاب قريش منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه ، فتخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم إلى الماء ، حتى إذا جاء أدنى ماء من بئر نزل به .

ثم أن الحباب بن المنذر بن الجوح قال : يا رسول الله ، أ رأيت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلك الله ، ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فنزله ، ثم نفور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً ، فنماؤه ماء ، ثم تقتل القوم فتشرب ولا يشربون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأي . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلب فقورت ، وبني حوضاً على القلب الذي نزل عليه ، فملأه ماء ، ثم قذفوا فيه الأنية .

ثم إن سعد بن معاذ قال : يا نبي الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم تلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلعنت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام - يا نبي الله - ما نحن بأشد لك حُباً منهم ، ولو غنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، ينعك الله بهم ، يناصحوك ويجهدون

صعك؟ فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعاه بخير . ثم بنى
لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً ، فكان فيه .

وقد ارتحلت قريش حين أصبحت ، فأقبلت ، فلما رآها صلى الله عليه وسلم
تصوب من العققل - وهو الكنيب الذي جاءوا منه إلى الوادي - قال :
اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولاك ، اللهم
فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنهم الغداة .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقد رأى عتبة بن ربيعة في القوم
على جمل له أحمر - إن يكن في أحد من القوم خير ، فمعد صاحب الجمل الأحمر ،
إن يطعموه يرشدوا .

وقد كان خفاف بن أيماء بن رخصة الغفاري ، أو أبوه أيماء بن رخصة
الغفاري ، بحث إلى قريش ، حين مروا به ، ابناً له بجزائر أهداها لهم ، وقال :
إن أحببت أن ندمكم بسلاح ورجال فلعنا . فأرسلوا إليه مع ابنته : أن وصلتك
رحم ، قد قضيت الذي عليك ، فلم يرد لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من
ضئف عنهم ، ولئن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد ، فما لأحد بالله من طاقة .

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فيهم حكيم بن حزام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوهم ،
فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل ، إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم
يقتل ، ثم أسلم بعد ذلك ، فحسن إسلامه . فكان إذا اجتمع في بيته قال : لا
والذي نبأني من يوم بدر .

ولما اطمأن القوم ، بهنوا حمير بن وهب الجمعي ، فقالوا : احزر لنا أصحاب
محمد . فاستجبال بفرسه حول المسكر ، ثم رجع إليهم ، فقال : ثلثة أئمة رجل يزيدون

قليلًا أو ينتصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر : ألقوم كين أو مدد ؟ ف ضرب
في الوادي حتى أبعدته ، فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئاً ، ولكني
قد رأيت ، ياممشر قریش ، البلاء لا تحمل المغايا ، فواضح يترى تحمل اللوت النافع ،
قوم ليس بهم منعة ولا ملاحاً إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم
حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟
فروا رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة ، فقال :
يا أبا الوليد ، إنك كبير قریش وسيدها ، والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال
تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذلك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس
وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي . قال : قند فعلت ، أنت على بذلك ،
إنما هو حليفي ، فملى عتله وما أصيب من ماله ، فأت ابن المنظلية فأنى لا أخشى
أن يشجر أمر الناس غيره . ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً ، فقال : ياممشر
قریش ، إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لنن أصبتموه
لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله
أو رجلاً من عشيرته ، فازجوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن
أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا منه
ما تريدون .

قال حكيم : فأنطلقت حتى جئت أبا جهل ، فوجدته قد نثل درعاً له من
جرايها - فهو يهينها - فقلت له : يا أبا الحكم ، إن عتبة أرسلني إليك بكذا
وكذا ، لا ذى قال ، فقال : انتفع والله سعره حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا
والله لا ترجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعثت ما قال . ولكنه قدر رأى

أن عمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه ، فقد تخوفكم عليه . ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي ، فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت نارك بعينك ، فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمي ، فاكتشف ثم صرخ : واهراء ! واهراء ! فعميت الحرب ، وحجب أمر الناس ، واستوسقوا على عام عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأي الذي د عام إليه عتبة .

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل « انتفخ والله سعره » ، قال : سيملم مصفر استه من انتفخ سعره ، أنا أم هو ؟

ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأسه ، فلما وجد في الجيش بيضة تسعه ، من عظام هامته ، فلما رأى ذلك اعتجر على رأسه يرد له .

وقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، وكان رجلاً شرساً مبيع الخلق ، فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه . فلما خرج ، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشعب رجله دماً نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض ، حتى اقتنعم فيه ، يريد أن يربميته ، وأتبعه حمزة فضربه ، حتى قتله في الحوض .

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة ، بين أخيه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد ابن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف ، دما إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم : عوف ، ومعوذ - ابنا الحارث ، وأمهما عفراء - ورجل آخر ، يقال : هو عبيد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار . قالوا : مالنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا

أَكْفَاءُ نَا مِنْ قَوْمِنَا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَ قُمْ يَا حِزَّةُ ، وَ قُمْ يَا هِلَالُ ، فَلَمَّا قَامُوا وَدَنُوا مِنْهُمْ ، قَالُوا : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالَ عُبَيْدَةُ : عُبَيْدَةُ ، وَقَالَ حِزَّةُ : حِزَّةُ ، وَقَالَ هِلَالُ : هِلَالُ . قَالُوا : نَعَمْ ، أَكْفَاءُ كَرَامٌ . فَبَارَزَ عُبَيْدَةُ ، وَكَانَ أَسْنَى الْقَوْمِ ، عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَبَارَزَ حِزَّةُ شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَبَارَزَ هِلَالُ الْوَلِيدَ بْنَ عَتَبَةَ . فَأَمَّا حِزَّةُ فَلَمْ يَعْمَلْ شَيْبَةَ أَنْ قَتَلَهُ ، وَأَمَّا هِلَالُ فَلَمْ يَعْمَلْ الْوَلِيدَ أَنْ قَتَلَهُ ، وَاخْتَلَفَ عُبَيْدَةُ وَهَتَبَةُ بَيْنَهُمَا خَرِبَتَيْنِ ، كَلَاهُمَا أَثَبَتْ صَاحِبَهُ ، وَكَرَّ حِزَّةُ وَعَلَى بِأَسْيَافِهِمَا عَلَى عَتَبَةٍ فَذَقْنَا عَلَيْهِ ، وَاحْتَمَسَا صَاحِبَهُمَا ، فَعَارَزَاهُ إِلَى أَصْحَابِهِ .

ثُمَّ تَرَاخَفَ النَّاسُ ، وَدَنَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ أَلَّا يَحْمِلُوا حَتَّى يَأْمُرَهُمْ ، وَقَالَ : إِنْ أَكْتَنَفَكُمْ الْقَوْمُ فَانْصَحُوهُمْ عَنْكُمْ بِالنَّبْلِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَرِيشِ ، مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ .

فَكَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَبِيحَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ .

• • •

ثُمَّ إِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَلَ صَفُوفَ أَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَفِي يَدِهِ قَدَحٌ بِمِثْلِ بَهِ الْقَوْمِ ، فَمَرَّ بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَّةَ ، حَلِيفِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ ، وَهُوَ مُسْتَقْتَلٌ^(١) ، نِصْفُ الْبَطْنِ فِي بَطْنِهِ بِالْقَدَحِ ، وَقَالَ : اسْتَوِ يَا سَوَادُ . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ . أَوْجَعْتَنِي : وَقَدْ بَعَثَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ . قَالَ : فَأَقْدَنِي ، فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَطْنِهِ ، وَقَالَ : اسْتَقْد . قَالَ : فَاعْتَقَنِي ، فَتَقَبَّلَ بَطْنُهُ ، فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حَضَرَ مَا تَرَى

(١) مُسْتَقْتَلٌ . مُتَقَدِّمٌ .

فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ، وقال له خيراً .

وبعد أن عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف رجع إلى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر الصديق ليس معه فيه غيره . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد . وأبو بكر يقول : يا نبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعده . وقد حقق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفته وهو في العريش ، ثم انشبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أنك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثغايه النقم .

وقد رمى مہجع ، مولى عمر بن الخطاب ، بسهم فقتل ، فكان أول قتيل من المسلمين ثم رمى حارثة بن سراقة ، أحد بني عدي بن النجار ، وهو يشرب من الخوض ، بسهم ، فأصاب نحره ، فقتل .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فعرضهم ، وقال : والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . فقال عمر بن الخطاب ، أخو بني سلمة ، وفي يده تمرات بأكلهن : بخ بخ ، أما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل .

ثم إن عوف بن الحارث ، وهو بن عفراء ، قال : يا رسول الله ، ما

بضعك الرب من عبده ؟ قال : غمسه يده في الدماء وحاسراً . فتزع درعاً كانت عليه ، فقتلها ، ثم أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل .
ولما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قال أبو جهل بن هشام :
اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا يعرف ، فأخذه الفداة . فكان هو المستفتح .
ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل قريشاً بها ، ثم قال : شاهدت الوجوه ، ثم نفعتهم بها ، وأمر أصحابه ، فقال :
شدوا ، فكانت الهزيمة ، فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش ، وأسر من
أسر من أشرافهم . فلما وضع القوم أيديهم بأسرون ، ورسول الله صلى الله
عليه وسلم في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش ، الذي فيه رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، متوشح السيف ، في نفر من الأنصار يحرسون رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، يخافون عليه كره العدو ، ورأى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له رسول
الله صلى الله عليه وسلم : والله لا أكأنك باسمك تذكره ما يصنع القوم ؟ قال :
أجل والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك . فكان
الإغاثان بأهل الشرك أحب إلي من استبقاء الرجال .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يومئذ : إني قد عرفت أن
رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي
منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا الجحترى بن هشام بن الحارث
ابن أسد فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله صلى الله
عليه وسلم فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مستكراً . فقال أبو حذيفة : أقتل آباءنا

وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ، وترك العباس ؟ والله لن نلقيته لألحنه السيف .
فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص -
قال عمر : والله إنه لأول يوم كُناني فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي
حفص - أ يضرب وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ؟ فقال عمر :
يا رسول الله ، دعني فلا أضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد وافق . فكان
أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها
خائفاً ، إلا أن تكفرها عني للشهادة . قتل يوم اليمامة شهيداً .

ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أبي البختري ، لأنه
كان أكف القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ،
ولا يبلغه عنه شيء يكرهه ، وكان ممن قام في نقض الصحيفة ، التي كتبت قريش
على بني هاشم وبني المطالب ، فلقبه الجذر بن زياد البسولي ، حليف الأنصار ،
ثم من بني سالم بن عوف ، فقال الجذر لأبي البختري : إن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قد نهانا عن قتلك - ومع أبي البختري زميل له ، قد خرج معه من
مكة ، وهو جنادة بن مليحة بنت زهير بن الحارث بن أسد ، وجنادة رجل من
بني ليث . واسم أبي البختري : العاص - قال : وزميلي ؟ فقال له الجذر :
لا والله ، ما نحن بداركي زميلك ، ما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا
بك وحدك . فقال : لا والله ، إذن لأموتن أنا وهو جميعاً ، لا نتحدث في نساء
مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة .

ثم إن الجذر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : والذي بعثك
بالحق ، لقد جهدت عليه أن يغاسر فأنيك به ، فأبى إلا أن يقانني ، فقاتلته
فقتلته .

ويقول عبد الرحمن بن عوف : كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة ، وكان اسمى عبد عمرو ، فتسميت ، حين أسلمت : عبد الرحمن ونحن بمكة ، فكان يلغاني إذ نحن بمكة ، فيقول : يا عبد عمرو ، أرغبت عن اسم سماك أبواك ؟ فأقول : نعم . فيقول : فإنني لأعرف الرحمن ، فأجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لأعرف . قال : فكان إذا دعاني : يا عبد عمرو ، لم أجب . قال : فقلت له : يا أبا علي ، اجعل ما شئت ، قال : فأنت عبد الإله . قال : فقلت : نعم . قال : فكنت إذا مررت به قال : يا عبد الإله ، فأجيبه فأحدث معه ، حتى إذا كان يوم بدر ، مررت به وهو واقف مع ابنته ، علي بن أمية ، آخذ بيده ، ومعى أذراع ، قد استلبتها ، فأنا أحملها ، فلما رأيته قال لي : يا عبد عمرو ، فلم أجبه ، فقال : يا عبد الإله ؟ فقلت : نعم . قال : هل لك في ، فأنا خير لك من هذه الأذراع التي معك ؟ قلت : نعم ، ها الله ذا . فطرح الأذراع من يدي ، وأخذت بيده وبدايته ، وهو يقول : ما رأيت كالיום قط ، أما لكم حاجة في اللبن ؟ ثم أخرجت أمشي بهما .

قال لي أمية بن خلف ، وأنا بينه وبين ابنته ، آخذاً بأيديهما : يا عبد الإله ، من الرجل منكم الملم بريشة نعامة في صدره ؟ قلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب . قال : ذاك الذي فعل بتنا الأفاعيل . قال عبد الرحمن : فوالله إني لأقودها إذا رآه بلال ممي . وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام ، فيخرج به إلى رمضان مكة إذا حيت ، فيضججه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد ، فيقول بلال : أحد أحد - قال : فلما رآه ، قال : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن

نجا . قلت : أى بلال ، أبأ سبى ا قال : لانبجوت إن نجا . قلت : أسمع
 ما بن السوداء . قال : لانبجوت إن نجا . قال : ثم مرخ بأعلى صوته : يا أنصار
 الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لانبجوت إن نجا . فأحاطوا بنا حتى جعلونا
 في مثل الحلقة وأنا أذب عنه . قل : فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه
 قوقع ، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط . فقلت : انج بنفسك ، ولا نجاء
 بك ، فوالله ما أغنى عنك شيئاً . فهبروها بأسيا فهم ، حتى فرغوا منها ، فكان
 عبد الرحمن يقول : رحم الله بلالا ، ذهبت أذراعى ولجفتى بأسبى .

• • •

ويقول رجل من بنى غفار : أقبلت أنا وابن عم لى ، حتى أصمدنا في
 جبل يشرف بنا على بدر ، ونحن مشركان ، فننظر الوقعة على من تكون
 الدبرة ، فننهب مع من ينهب . قال : فبينما نحن فى الجبل ، إذ دنت منا
 سحابة ، فسمعنا فيها حممة الخيل ، فسمعت قائلاً يقول : أقدام حيزوم ، فأما
 ابن عمى فأنكشف قناع قلبه ، فأت مكانه ، وأما أنا فكنت أهلك ثم
 تماسكت .

ولم تقا تل الملائكة فى يوم سوى بدر من الأيام ، وكانوا يكفون فيما
 سواه من الأيام عدداً ومدداً . لا يضربون .

وكان شمار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : أحد
 أحد .

فأما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه ، أمر بأبى جهل أن
 يرمى فى القتلى .

قال معاذ بن عمرو بن الجحوح : سمعت القوم ، وأبو جهل في مثل الحرجة ، وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه . قال : فلما سمعتها جعلته من شأني ، فصعدت نحوه ، فلما أمكنتني حملت عليه ، فضربتته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها . قال : وضربني ابنه حكرمة على عاتقي ، فطرح بدني ، فتعاقبت بجملة من جنبي ، وأجتمعتني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومى ، وإني لأسعيها خافي ، فلما آذنتي وضمت عليها قدمي ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها . ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمان عثمان .



ثم مر بأبي جهل ، وهو عتيق ، معوذ بن عفرأ ، فضربه حتى أثبتته ، فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل ، فرعبد الله بن مسعود بأبي جهل ، حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتبس في القتلى ، وقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : انظروا ، إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته ، فإني أزدحم يوماً أنا وهو على مائدة لعبد الله بن جدهان ، ونحن غلامان ، وكنت أشف منه يسير ، فدفعته ، فوقع على ركبته ، فجعش في إحداها جعشاً لم يزل أثره به . قال عبد الله بن مسعود : فوجدته بأخر رمق ، فرفقته ، فوضعت رجلي على عنقه . قال : وقد كان ضيث بن مرة بمكة ، فأذاني ولكرني ، ثم قلت له : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزاني ؟ أهد من رجل^١ قتلتموه ! أخبرني لن الدائرة اليوم ؟ قلت : لله ولرسوله .

ثم احتززت رأسه ، ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبي جهل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) أي هل لوق رجل لثله قومه ؟

الله الذي لا إله غيره - وكانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم - قالت :
نعم ، والله الذي لا إله غيره ، ثم أقيت رأسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فحمد الله .

* * *

وقاتل عكاشة بن محسن بن حريثان الأسدي ، حليف بني عبد شمس بن
عبد مناف ، يوم بدر ببيته ، حتى انقطع في يده ، فأبى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فأعطاه جذلاً من حطب ، فقال : قاتل ، بهذا باعكاشة ، فلما أخذه
من رسول الله صلى الله عليه وسلم هزه ، فعاد سيفاً في يده طويلاً القامة ،
شديدة المتن ، أبيض الحديد ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين ، وكان
ذلك السيف يسمى : العمون . ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، حتى قتل في الردة ، وهو عنده ، قتله طليحة بن خويلد الأسدي
وعكاشة بن محسن الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : يدخل الجنة سبعون ألفاً من أمتي على صورة القمر
ليلة البدر ، قال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم . قال : إنك منهم ، أو
الهم اجعلني منهم . فقام رجل من الأنصار ، فقال : يا رسول الله ، ادع الله
أن يجعلني منهم ، فقال : سبقك بها عكاشة ، وبردت الدعوة ^(١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغنا عن أهله : منا خير
فارس في العرب ، قالوا : ومن هو . يا رسول الله قال عكاشة بن محسن
فقال خزار بن الأزور الأسدي : ذاك رجل منا يا رسول الله : قال
ليس منكم ولكنه منا للعلف .

* * *

(١) بردت الدعوة : ثبت .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتل أن يطرحوا في القليب ،
طرحوا فيه ، إلا ما كان من أمية بن خلف ، فإنه انتفخ في درعه فملاها ،
فذهبوا ليعرکوه ، فتزائل له ، فأقروه ، وألقوه عليه ما غيبه من التراب
والحجارة . فلما أقام في القليب وقف عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :
يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني
ربي حقاً . فقال له أصحابه : يا رسول الله ، أنكلم قومًا موتى ؟ فقال لهم : لقد
علموا أن ما وعدهم ربهم حقاً .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقيوا في القليب ، أخذ عتبة
ابن ربيعة ، فسحب إلى القليب ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجه
أبي حذيفة بن عتبة ، فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال : يا أبا حذيفة ، لعلك
قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ - أو كما قال صلى الله عليه وسلم - فقال : لا والله
يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنني كنت أعرف
من أبي رابعاً وحليماً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما
رأيت ما أصابه ، وذكرت مآلات عليه من الكفر ، بعد الذي كنت أرجو له ،
أحزنتني ذلك ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ، وقال له خيراً .



ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بما في العسكر ، مما جمع الناس ،
فجمع ، فاختلف المسلمون فيه ، فقال من جهة : هو لنا ، وقال الذين كانوا
يقاتلون العدو ويطلبونه : والله لولا نحن ما أصبتموه ، لنحن شغلنا عنكم القوم
حتى أصبتم ما أصبتم ، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
مخافة أن يخذل إليهم العدو : والله ما أنتم بأحق به منا ، والله لقد رأينا أن

قتل العدو إذ منعنا الله تعالى أكتافه ، ولقد رأينا أن نأخذ للناس حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولسكننا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كره العدو ، قمنا دونه ، فما أنتم بأحق به منا .

* * *

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية بما فتح الله عز وجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة . قال أسامة بن زيد : فأتانا الخبر — حين سوي بنا التراب على رقية ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي كانت عند عثمان بن عفان . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفني عليها مع عثمان — أن زيد بن حارثة قدم . قال : فبعثته ، وهو واقف بالمصلى قد غشيته الناس ، وهو يقول : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وأبو البغثرى العاص بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ، ومنبه ، أبنا الحجاج . قال : قلت : يا أبت ، أحق هذا ؟ قال : نعم ، والله يا بني .

* * *

ثم أقبل رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً إلى المدينة ، ومعه الأسارى من المشركين ، وفيهم عتبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث . واحتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه النفل الذي أصيب من المشركين ، وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف بن مهبول .

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا خرج من مضيق الصفراء ، نزل على كتيب بين المضيق وبين النازية ، قسم هناك النفل الذي أفاء الله عن المسلمين من المشركين على السواء ، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهتفون بما فتح الله عليه ، ومن معه من المسلمين ، فقال لهم سلمة بن سلامة : ما الذي تهتفوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلماً كالبدن للملقة ، فتعزناها . فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أي ابن أخي ، أولئك الملا .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدم المدينة قبل الأسارى يوم واحد .

وقدم بالأسارى حين قدم بهم ، وسودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند آل عفراء ، في مناحتهم على هوف ومعوذ ابني عفراء ، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب .

• • •

تقول سودة : والله إنى لعندم إذ أتينا ، قتل : هؤلاء الأسارى قد أتى بهم . قالت : فرجعت إلى بيتي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو ناحية الحجر ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل . قالت : فلا والله ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه ، أن قلت : أعطيتكم بأيديكم ، ألا ممت كراماً ؟ فوالله ما أنبهنى إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت : يا سودة ، أعلى الله ورسوله نحرطين ؟ قلت : يا رسول الله ، والذي بمنك بالحق ، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه ، أن قلت ما قلت .

• • •

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل بالأسارى ، فرقمهم بين أصعابه ، وقال : احتوصوا بالأسارى خيراً .

وكان أول من قدم مكة بمصباح قریش ، الحيدمان بن عبد الله الخزاعي ،
فقالوا : ما وراءك ؟ قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم
ابن هشام ، وأممية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ،
وأبو البختري بن هشام . فلما جعل يعدد أشرف قریش قال صفوان بن أمية ،
وهو قاعد في الحجر : والله إن يعقل هذا ، فاسألوه عنی . فقالوا : ما فعل صفوان
ابن أمية ؟ قال : ها هو ذاك جالساً في الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه
حين قتلا .

ويقول أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت غلاماً
لعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ،
وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ،
وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه ، وكان أبو لهب
قد تخلف عن بدر ، فبعث مكانه العاصي بن هشام بن المذيرة ، وكذلك كانوا
صعدوا ، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً ، فلما جاءه الخبر عن
مصباح أصحاب بدر من قریش ، كتبته الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا
قوة وعزاً .

ويقول أبو رافع : وكنت رجلاً ضعيفاً ، وكنت أعمل الأقداح ، أنحتما في حجرة
زمزم ، فوالله إني لجالس أنحت أقداحي ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا
من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجر رجله بشر ، حتى جلس على طنب الحجرة ،
فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان
ابن الحارث بن عبد المطلب قد قدم . فقال له أبو لهب : هلم إلي ، ففندك
لعمرى الخبر . فجلس إليه والناس قيام عليه ، فقال : يا بن أخي ، أخبرني كيف

كان أمر الناس ؟ قال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم ، فمنعناهم أكتافنا ،
يقودوننا كيف شاءوا ، وبأسرونا كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك ما ملت
الناس ، لقينارجالاً بيضاً ، على خيل بلق ، بين السماء والأرض ، والله ما تلبس
شياً ، ولا يقوم لها شيء . قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجر بيدي ، ثم
قلت : تلك والله الملائكة ، فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهي ضربة
شديدة . قال : وثأورته فاحتماي ، فضرب بي الأرض ، ثم برك على يصري ،
وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى هود من همد الحجر ، فأخذته
فضربت به ضربة شنت في رأسه شعبة منكبة ، وقالت : استغفنته أن غاب
عنه سيده . فقام مولياً ذليلاً . فوالله ما عاش إلا سبع ليال ، حتى رماه الله
بالعسة ، فقتلته .

وناحت قريش على قتلاهم ، ثم قالوا : لا تفعلوا فيبأن عمداً وأصحابه ،
فيشتوا بهم ، ولا تبهثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم^(١) ، لا يارب^(٢) عليكم
محمد وأصحابه في الفداء . وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثة من
ولده : زمعة بن الأسود ، وعقيل بن الأسود ، والحارث بن زمعة ، وكان
يحب أن يبكي على بنيه ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل فقال للعلام له ،
وقد ذهب بصره : انظر هل أحل النعب ، هل بكت قريش على قتلاها ؟
لعل أبكي على أبي حكيمة ، يعني زمعة ، فإن جوفى قد احترق . فلما رجع
إليه العلام قال : إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته .

وكان في الأسارى أبو وداعة بن ضبيرة السهمي ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : إن له بمكة ابناً كيماً تاجراً ذامالاً ، وكأنكم به
قد جاءكم في طلب فداء أبيه . فلما قالت قريش : لا تعجلوا بفداء أسراكم ،

(١) حتى تستأنوا بهم ، أي حتى تؤخروا فداءهم .

(٢) لا يارب : لا يشتد .

لا يأرب عليكم محمد وأصحابه . قال المطلب بن أبي وداعة : صدقتم .
لا تمجلوا ، وانسل من الليل قدم للدينة ، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم ،
فانطلق به .

ثم بعثت قريش في فداء الأسارى ، فقيل لأبي سفيان : اقد هراً ابنك .
قال : أجمع على دمي ومالي ، قتلوا حنظلة ، وأفدى هراً ، دعوه في أيديهم ،
يمسكوه ما بدا لهم .

ففيما هو كذلك ، محبوس بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
إذ خرج سعد بن النعمان بن أكال ، معتمراً ، ومع مربة^(١) له ،
وكان شيخاً مسلماً ، في غنم له بالنقيع ، فخرج من هناك معتمراً ، ولا يخشى
الذي صنع به ، لم يظن أنه يحبس بمكة ، إنما جاء معتمراً ، وقد عهد
قريشاً لا يتعرضون لأحد جاء حاجاً ، أو معتمراً ، إلا بخير ، فمدا عليه أبو
سفيان بن حرب بمكة ، فحبسه بآبنة عمرو ، ومشى بنو عمرو بن عوف إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخبروه خبره ، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن
أبي سفيان ، فيفكوا به صاحبهم ، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعثوا به
إلى أبي سفيان ، فدخل سبيل سعد .

وقد كان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس .
خفف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته زينب .

(١) مربة ، تصغير امرأة .

وكان أبو العاص من رجال مكة للمدودين : مالا ، وأمانة ، وتجارة ، وكان هالة بنت خويلد ، وكانت خديجة خالته ، فسألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخالفها ، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي ، فزوجه ، وكانت تعده بمنزلة ولدها ، فلما أكرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بنبوته ، آمنت به خديجة وبناته ، فصدقته ، وشهدن أن ما جاء به الحق ، ودين بدينه ، وثبت أبو العاص على شركه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوج عتبة بن أبي لهب رقية ، أو أم كلثوم . فلما بادي قريشاً بأمر الله تعالى وبالمدأوة ، قالوا : إنكم قد فرغتم محمداً من همه ، فردوا عليه بناته ، فاشغلوه بهن ، فمشوا إلى أبي العاص ، فقالوا له : فارق صاحبك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت . قال : لا والله ، إني لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثنى عليه في صهره خيراً . ثم مشوا إلى عتبة بن أبي لهب ، فقالوا له : طلق بنت محمد ونحن ننكحك أي امرأة من قريش شئت . فقال : إن زوجتموني بنت أبيان بن سعيد بن العاص ، أو بنت سعيد بن العاص ، فارقتها ، فزوجوه بنت سعيد بن العاص وفارقها ، ولم يسكن دخل بها ، فأخرجها الله من يده كرامة لها ، وهواناً له ، وخلف عليها عثمان بن عفان بعده .

• • •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل بمكة ولا يحرم ، مغلوباً على أمره . وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

حين أسلمت ، وبين أبي العاص بن الربيع ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدر أن يفرق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه ، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سارت قريش إلى بدر ، سار فيهم أبو العاص بن الربيع فأصيب في الأسارى يوم بدر ، فكان بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما بعث أهل مكة في فداء أسرائهم ، بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أختها بها ، على أبي العاص حين بنى عايها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ربق لها رقة شديدة ، وقال : إن رأيتم أن تعاقبوا لها أسرها ، وتردوا عايها مالها ، فافعلوا ، فقالوا : نعم يا رسول الله . فأطلقوه ، وردوا عليها الذي لها .

• • •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ عايه ، أن يخلى سبيل زينب إليه ، فلما قدم أبو العاص مكة ، أمرها بالحق بأبيها ، فخرجت تجهز .

فلما فرغت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهازها ، قدم لها حموها كنانة بن الربيع أخو زوجها ، معها فركا ، وأخذ قوسه وكناته ، ثم خرج بها تهاواً يهود بها ، وهي في هودج لها . وتحدث بذلك رجال من قريش ، فخرجوا في طلبها ، حتى أدركوها بذي طوى ، فسكن أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن الطالب بن أسد بن عبد العزى ، والنهرى ، فزوجها هبار بالرمح ، وهي في هودجها ، وكانت للراة حاملاً - فيما يزعمون - فلما ربت طرحت ذا بطنها ، وبرك حموها كنانة ، ونثر كنيته ، ثم قال : والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما ، فرجع الناس عنه . وأتى أبو سفيان في جلة من قريش فقال : أيها الرجل ، كف عنا نيكك حتى نكلمك ، فكف ، فأقبل

أبو سفيان حتى وقف عليه ، فقال : إنك لم تصب ، خرجت بالمرأة على رءوس
الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد ، فيظن
الناس إذا خرجت بابتته إليه علانية على رءوس الناس من بين أظهرنا ،
أن ذلك عن ذل أصابنا من مصيبتنا التي كانت ، وأن ذلك منا ضعف ووهن ،
ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، وما لنا في ذلك من قار ، ولكن
ارجع بالمرأة ، حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلها
سرّاً ، وألحفها بأبيها ، ففعل ، فأقامت ليالي ، حتى إذا هدأت الأصوات ،
خرج بها ليلاً ، حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقدمها على رسول
الله صلى الله عليه وسلم .

وأقام أبو العاص بمكة ، وأقامت زينب عند رسول الله صلى الله عليه
وسلم بالمدينة ، حين فرق بينهما الإسلام . حتى إذا كان قبيل الفتح ، خرج
أبو العاص تاجراً إلى الشام ، وكان رجلاً مأموناً ، بماله وأموال لرجال
من قريش ، أبضموها معه ، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً ، لقيته سرية
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابوا ما معه ، وأعجزهم هارباً ، فلما قدمت
السرية بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت الليل ، حتى دخل على
زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستجار بها ، فأجارته ، وجاء في
طلب ماله ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح ، فكبر وكبر
الناس معه ، صرخت زينب من صفة النساء : أيها الناس ، إني قد أجرت
أبا العباس بن الربيع ، فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة ،
أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا : نعم ، قال :
أما والذي نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه
يجير على المسلمين أديانهم . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل

على ابنته ، فقال : أى بنية ، أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك ، فإنك
لا تحلين له .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى المربة الذين أصابوا
مال أبى العاص ، فقال لهم : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له
مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، فإننا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فى الله
الذى أفاء عليكم ، فأنتم أحق به . فقالوا : يا رسول الله ، بل نرده عليه ،
فردوه عليه ، حتى إن الرجل لياتى بالذلو ، ويأتى الرجل بالشنه ، وبالإداوة ،
حتى إن أحدهم لياتى بالشظاظ ، حتى ردوا عليه ماله بأسره ، لا يفتقد منه شيئا .
ثم احتمل إلى مكة ، فأدى إلى كل ذى مال من قريش ماله ، ومن كان أبضع
معه ، ثم قال : يا معشر قريش ، هلبقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ،
قالوا : لا ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما . قال : فانا أشهد أن
لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده .
إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله
إليكم ، وفرغت منها ، أسلمت ، ثم خرج حتى قدم على رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

وجلس حمير بن وهب الجمعى مع صفوان بن أمية ، بعد مصاب أهل بدر
من قريش ، فى الحجر بدير ، وكان حمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ،
وعن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولقى منه عناء وهو
بمكة ، وكان ابنه وهب بن حمير فى أسارى بدر .

فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله ليس في العيش
بعدم خير ، قال له حمير : صدقت والله ، أما والله لو لا دين على ليس له عندي
قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ،
فإن لى قبلهم علة : ابنى أسير فى أيديهم ، فاعتقتموها صفوان ، وقال : على دينك ،
أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أو أسيرهم ما بقوا ، لا يسئنى شيء ويعجز عنهم .
فقال له حمير : فاكتم شأنى وشأنك . قال : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه ، فشعذه له وسم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينما
عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم
الله به ، وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب ، حين أناع
على باب المسجد متوشعاً السيف ، فقال : هذا الكلب عدو الله عمير
ابن وهب ، والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذى حرش بيننا ، وحزرتنا^(١) للقوم
يوم بدر .

• • •

ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ، هذا
عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشعاً سيفه ، قال : فأدخله على . فأقبل عمر حتى
أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبسه بها ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار :
ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجلسوا عنده ؛ واحذروا عليه
من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو آخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، قال :
أرسله يا عمر ، ادن يا حمير ، فدنا ثم قال : أنعموا صباحاً ، وكانت تحية أهل

(١) حزرتنا : قمر عددنا تخميناً .

الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أكرمنا الله بتحية
خير من تحيتك يا حمير ، بالسلام تحية أهل الجنة . فقال : أما والله يا محمد ،
إن كنت بها لحديث عهد . قال : فما جاء بك يا حمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير
الذى في أيديكم ، فأحسنوا فيه ، قال : فما بال السيف في عنقك ؟ قال : قبضها
الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : أصدقني ، ما الذى جئت له ؟
قال : ما جئت إلا لذلك ، قال : بل قدمت أنت وصفوان بن أمية في الحجر ،
فذكرت ما أصعب القلب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندي ،
لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتعمل لك صفوان بدينك وعيالك ، على أن تقتلني
له ، والله حائل بيني وبين ذلك ، قال حمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا
يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك
من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك
به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة
الحق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه
القرآن ، وأطلقوا له أسيره ، ففعلوا .

ثم قال يا رسول الله ، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد
الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تأذن لى ، فأقدم مكة
فأدعوم إلى الله تعالى ، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى الإسلام
لعل الله يهديهم ، وإلا آذبتهم في دينهم ، كما كنت أؤذى أصحابك في دينهم .
فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلعن بمكة . وكان صفوان بن أمية
حين خرج حمير بن وهب ، يقول : أبشروا بركة تأتكم الآن في أيام نذيتكم
وقعة بدر . وكان صفوان يسأل عن الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن
إسلامه ، فعلف ألا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه ينفع أبداً .

فلما قدم حمير مكة ، أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خاتمه أذى
شديداً ، فأسلم على يديه ناس كثير .
وأسر من المشركين من قريش يوم بدر ثلاثة وأربعون رجلاً .

• • •

٦٢ - غزوة السويق

- ثم غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق في ذي الحجة ، وكان
أبو سفيان حين رجع إلى مكة ، ورجع فل^(١) قريش من بدر ، نذر ألا يمس
رأسه ماء من جنابة حتى يفزو محمداً صلى الله عليه وسلم ، فخرج في مائتي
راكب من قريش ، ليبر يمينه ، فـلـك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل
يقال له : ثيب ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ثم خرج من الليل ، حتى أتى
بنى النضير تحت الليل ، فأتى حيسى بن أخطب ، فضرب عليه بابه ، فأبى أن يفتح
له بابه ، وخافه ، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم ، وكان سيد بني النضير في
زمانه ذلك ، وصاحب كنزهم ، فاستأذن عليه ، فأذن له ، فقراه وسقاه ، وأعلمه
من خبر الناس . ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبث رجالاً من
قريش إلى المدينة ، فأتوا ناحية منها ، يقال لها : العريض ، فحرقوا في أصوار
- جماعة من نخل بها - ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث
لها ، فقتلوه ، ثم انصرفوا راجعين ، ونذر بهم الناس . فخرج رسول الله صلى
الله عليه وسلم في طلبهم ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد النذر ، وهو
أبوليابة ، حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعاً ، قد فاته أبو سفيان وأصحابه ،
وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها في الحرث ، يتخفون منها للنجاة .
فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، أنطمع
أن نكون لنا غزوة ؟ قال : نعم .

(١) الفل : القوم المنهزمون .

وإنما سميت غزوة السويق ، لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم السويق ، فهجم المسلمون على سويق كثير ، فسميت غزوة السويق .

٦٣ - غزوة ذي أمر

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة السويق ، أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريباً منها ، ثم غزا نجدًا ، يريد غطفان ، وهي غزوة ذي أمر . واستعمل على المدينة عثمان بن عفان ، فأقام بتجد صفرًا كله ، أو قريباً من ذلك ، ثم رجع إلى المدينة ، ولم يبق كيداً . فلبث بها شهر ربيع الأول كله ، أو إلا قليلاً منه .

٦٤ - غزوة الفرع

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد قريشًا ، استعمل على للمدينة ابن أم مكتوم ، حتى بلغ بحران ، ممدنا بالحجاز من ناحية الفرع ، فأقام بها شهر بيع الآخر وجمادى الأولى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً .

٦٥ - حديث بنى قينقاع

وقد كان فيما بين ذلك من غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أمر بنى قينقاع ، وكان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جهم بسوق بنى قينقاع ، ثم قال : يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم قالوا : يا محمد ، إنك ترى أنا قومك ، لا يتركك أنك لميت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلن أننا نحن الناس .

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد .

وكان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت يجلب لها ، فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يربدونها على كشف وجهها ، فأبت ؛ فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ففقهه إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديًا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم للمسلمين على اليهود ؛ فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع . فعاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكة ، فقام إليه عبد الله ابن أبي بن سلول ، حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى ، فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلنى ، وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأى لوجهه ظللا ، ثم قال : ويحك ، أرسلنى . قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى ، أربعمائة حامر وثلاثمائة دارع وقد منعونى من الأحمر والأسود وتمصدم فى غداة واحدة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك .

وامتعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة في محاصرته إياهم
بشهر بن عبد الغنر ، وكانت محاصرته إياهم خمس عشرة ليلة .

ولما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تشبث بأمرهم عبد الله
ابن أبي بن سلول ، وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وكان أحد بني عوف ، لهم من حلفه مثل الذي لهم من
عبد الله بن أبي ، فدخلهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبرأ إلى الله
عز وجل ، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم من حلفهم ، وقال : يا رسول الله ،
أنزلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار
وولايتهم .

٦٦ - سرية زيد

وأما سرية زيد بن حارثة ، التي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ،
حين أصاب غير قريش ، وفيها أبو سفيان بن حرب ، على الفرقة : ماء من
مياه نجد ، فكان من حديثها أن قريشاً خافوا طريقهم الذي كانوا يسلكون
إلى الشام ، حين كان من وقعة بدر ما كان ، فسلكوا طريق العراق ، فخرج
منهم تجار ، فيهم : أبو سفيان بن حرب ، ومعه فضة كثيرة ، وهي عظم
تجارهم ، واستأجروا رجلاً من بني بكر بن وائل ، يقال له : فرات بن حيان ،
يدلهم في ذلك على الطريق .

٦٧ - مقتل كعب بن الأشرف

وكان من حديث كعب بن الأشرف ، أنه لما أصيب أصحاب بدر ،
وقدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ، وعهد الله بن رواحة إلى أهل العالية ،

بشيرين ، بشمما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بالدينه من المسلمين
بفتح الله عز وجل عليه ، وقتل من قتل من المشركين .

قال كعب بن الأشرف ، حين بلغه الخبر : أحق هذا ؟ أترون محمداً قتل
هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان - يعنى زيدا وعبد الله بن رواحة - فهؤلاء
أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله أنى كان محمد أصاب هؤلاء القوم ،
لبطن الأرض خير من ظهرها .

فلما تيقن عدو الله الخبر ، خرج حتى قدم مكة ، فنزل على المطلب بن
أبي وداعة بن ضبيرة السهمي وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس
ابن عبد مناف ، فأنزلته وأكرمه ، وجعله يحرض على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وينشد الأشمار ، ويهكي أصحاب القليب من قريش ، الذين أصيبوا
ببدر . ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لى يابن الأشرف ؟ فخرج إليه محمد
ابن مسلمة فقتله .

٦٨ - غزوة أحد

ربما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ، ورجع فلهم
إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بغيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ،
وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال من قريش عن أصيب
آلؤهم وأبنائهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت
له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا مشر قريش ، إن محمداً قد وترككم ،
وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلملنا ندرك منه ثارنا بمن
أصاب منا ، ففعلوا .

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فعل ذلك

أبو سفيان بن حرب وأصحاب الغير بأحايشها ، ومن أطاعها من قبائل كنانة ، وأهل تهامة ، وكان أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي قد منّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وكان فقيراً ذاعياً وحاجة ، وكان في الأعرابي ، فقال : إني فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتها فامنن عليّ ، صلى الله عليك وسلم ، فمنّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له صفوان بن أمية : يا أبا عزة ، إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فأخرج معنا ، فقال : إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه ، قال : بلى ، فأعنا بنفسك فلك والله عليّ إن رجعت أن أغنيك وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر . فخرج أبو عزة يسير في تهامة ، ويدعو بني كنانة .

وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جحج إلى بني مالك ابن كنانة ، يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له : وحشى ، يقذف بحربة له قذف الحبشة ، قلما يخطئ بها ، فقال له : اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة هم محمد ، يبقى طعيمة بن عدي ، فأنت عتيق .

فخرجت قريش بمحدها وجددها وأحايشها ، ومن تابعها من بني كنانة ، وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظن ، التماس الحفيظة وألا يفروا ، فخرج أبو سفيان بن حرب ، وهو قائد الناس ، بمنته بنت عتبة ، وخرج حكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن حمير النخعية ، وهي أم عبد الله بن صفوان ابن أمية .

وخرج هرو بن العاص بربطة بنت منبه بن الحجاج، وهي أم عبد الله بن هرو، وخرج أبو طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية، وهي أم بني طلحة : مسافع، والجلال، وكلاب، قتلوا يومئذهم وأبوم، وخرجت خناس بنت مالك بن الضرب، إحدى نساء بني مالك بن حسل، مع ابنها أبي عزيز بن حمير، وهي أم مصعب ابن حمير، وخرجت حمرة بنت علقمة، إحدى نساء بني الطارث بن عبد مناة ابن كنانة.

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى أو مر بها، قالت : وبها أبادسمة، أشف واستشف أو كان وحشى يكنى بأبى دسمة، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين، بجبل ببطن السبعة، من قناة على شفير الوادى، مقابل المدينة. فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والنساء -ون قد نزلوا حيث نزلوا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين : إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقرأ، ورأيت في ذباب سبي في ثلجاً، ورأيت أنى أدخلت يدي في درع حصينة، فأولتها المدينة.

فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قائلينهم فيها، وكان رأى عبد الله بن أبي بن سلول مع رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى رأيه في ذلك، وألا يخرج إليهم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره، ممن كان فاته بدر : يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أننا جبننا عنهم وضعتنا قتال عبد الله بن

أَبِي بَنِي سُلُوب : يا رسول الله ، أقم بالمدينة ، لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ورمم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا . فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس لأمته ، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ، وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له : مالك بن عمرو ، أحد بني النجار ، فعلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إليهم ، وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك . فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقم صلى الله عليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبغي لبي إذا لبس لأمتان بعضها حتى يقاتل . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه . حتى إذا كانوا بالشروط بين المدينة وأحد ، انخزل عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني ، ما تدري هلام تقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ، فرجم بن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب ، واتبهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، أخو بني مسلة ، يقول : يا قوم ، أذكركم الله ألا تمذلوا قومكم ونبيكم ، عندما حضر من عدوهم ، فقالوا : لولا نعام أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم ، قال : أبعدكم الله أعداء فيبغى الله عنكم نبيه .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سلك في حرة بني حارثة ،

فذهب فرس بذنبه ، فأصاب كلاب (١) سيف فاستله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يحب الفأل ولا يمتاف ،
لصاحب السيف : شمس سيفك ، فإنى أرى السيوف تسلسل اليوم .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : من رجل يخرج بنا على
القوم من كذب ، أى من قرب ، من طريق لا يمر بنا عليهم ؟ قال أبو خيثمة
أخو بنى حارثة بن الحارث : أنا يا رسول الله ، فنفذ به فى حرة بنى حارثة
وبين أموالهم ، حتى ملك فى مال لمربع بن قبيص ، وكان رجلاً ذليلاً خريز
البصر ، فلما سمع حسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين ،
قام يمشى فى وجوههم التراب ، ويقول : إن كنت رسول الله فإنى لأحل
لك أن تدخل حائطى ، وأخذ حفنة من تراب فى يده ، ثم قال : والله لو أعلم
أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد ، لضربت بها وجهك . فابتدره القوم ليقتلوه ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب ،
أعمى البصر . وقد بدر إليه سعد بن زيد ، أخو بنى الأشجول ، قبل
نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، فضربه بالقوس فى رأسه
فشجبه .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد ،
فى عدوة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال :
لا يقاتلن أحد منكم حتى تأمره بالقتال .

• • •

وتهاي رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال ، وهو فى سبع مائة
رجل ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، أخا بنى عمرو بن
عوف ، وهو معلم يومئذ بثياب بيض ، والرماة خمسون

(١) كلاب السيف : لائمه .

رجلا ، فقال : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك ، لا تؤتين من قبلك . وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، أخى بنى عبد الدار .

وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سمرة بن جندب الفزاري ، ورافع بن خديج ، أخا بنى حارثة ، وهما ابنا خمس عشرة سنة ، وكان قد ردهما ، فقيل له : يا رسول الله ، إن رافعا رام ، فأجازه ، فلما أجاز رافعا ، قيل له : يا رسول الله ، فإن سمرة يصرع رافعا ، فأجازه . ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، أحد بنى مالك بن النجار ، والبراء بن عازب ، أحد بنى حارثة ، وهمو بن حزم ، أحد بنى مالك بن النجار ، وأسيد بن ظهير ، أحد بنى حارثة ، ثم أجازهم يوم الخندق ، وهم أبناء خمس عشرة سنة .

• • •

وتعمأت قريش ، وهم ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم مئتا فرس قد جنبوها ، فجعلوا على مينة الخليل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال ، فأمسكه عنهم ، حتى قام إليه أبو دجانة صمك بن خرشة ، أخو بنى ساعدة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن تضرب به العدو حتى ينحني ، قال : أنا آخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطاه إياه . وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يمتثل عند الحرب ، إذا كانت ، وكان إذا أعلم بعصاة له حراء ، فاعتصب بها ، علم الناس أنه سيفاتل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

أخرج مصابته تلك ، فغصب بها رأسه ، وجعل يتبخر بين الصفين .

• • •

ثم إن أبا عامر ، عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان ، أحد بني ضبيعة ، وقد كان خرج حين خرج إلى مكة مباعداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، معه خمسون غلاماً من الأوس — وبعض الناس كان يقول : كانوا خمسة عشر رجلاً — وكان بعد قريشاً أن لو قد اتقى قومه ، لم يختلف عليهم منهم رجلان . فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك علينا يا فاسق — وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية : الراهب ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : الفاسق — فلما سمع ردم عليه قال : لقد أصاب قومي بعدى شر ، ثم قاتلهم قتلاً شديداً ، ثم راض عنهم بالحجارة .

وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد المطلب يحرضهم بذلك على القتال : يا بني عبد المطلب ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فلما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلو بيننا وبينه ، فنكفيكموه ، فهو ابه ، وتواعدوه ، وقالوا : نحن نعلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غداً إذ التقينا كيف نصنع !

• • •

فلما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها ، وأخذت الدفوف يضربن بها خلف الرجال ، ويحرضنهم . فاقتل الناس حتى حيت الحرب ، وقاتل أبو دجانة حتى أمدن في الناس ، فبطل لا باقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجل لا يدع جريحاً إلا ذف عليه ،

فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب
المشرك أبودجانة ، فأتقاه بدرتته فمضت بسيفه ، وضربه أبودجانة فقتله .

وقال أبودجانة سمالك بن خرشة : رأيت إنسانا يحمش الناس خمشا شديدا ،
فصدمت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول
الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة .

وقال وحشى ، غلام جبير بن مطعم ، والله إننى لأنظر إلى حمزة يهد الناس
بسيفه ما يليق به شيئا ، مثل الجمل الأورق ، إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ،
فقال له حمزة : هلم إلى يابن مقطعة البظور ، فضربه ضربة فكأنت ما أخطأ
رأسه ، وهزئت حربتى ، حتى إذا رضيت منها ، دفعتها عليه ، فوقعت فى ثنته ،
حتى خرجت من بين رجله ، فأقبل نحوى ، فقلب فوق ، وأمهلت حتى إذا
مات جئت فأخذت حربتى ، ثم تنحيت إلى العسكر ، ولم تكن لى بشيء
حاجة غيره .

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل ،
وكان الذى قتله ابن قنثة البقي ، وهو بطن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فرجع إلى قريش ، فقال : قتل عمدا . فلما قتل مصعب بن عمير ، أعطى رسول
الله صلى الله عليه وسلم اللواء إلى علي بن أبى طالب ، وقاتل علي بن أبى طالب
ورجال من المسلمين .

ولما اشتد القتال يوم أحد ، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت
راية الأنصار ، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي بن أبى طالب

رضوان الله عليه : أن قدم الراية . فتقدم على ، فقال : أنا أبو القهم ، فناداه أبو سعد بن أبي طلحة ، وهو صاحب لواء المشركين : أن هل لك يا أبا القهم في البراز من حاجة ؟ قال : نعم . فبرزوا بين الصفين ، فاختلفا ضربتين ، فضربه على فصرعه ، ثم انصرف عنه ، ولم يحمز عليه ، فقال له أصحابه : أفلا جهزت عليه ؟ فقال : إنه استقباني بمورته ، فمطفتني عنه الرحم ، وعرفت أن الله عز وجل قد قتله .



وقاتل عاصم بن ثابت بن أبي الأتلع ، فقتل مسافع بن طلحة ، وأخاه الجلاس بن طلحة ، كلاهما يشمره سهماً ، فأنى أمه سلاقة ، فيضع رأسه في حجرها ، فتقول : يا بني ، من أصابك ؟ فيقول : سميت رجلاً حين رماني وهو يقول . خذها وأنا ابن أبي الأتلع ، فذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر ، وكان عاصم قد عاهد الله ألا يمس مشركاً أبداً ، ولا يمس مشرك .



والتقى حنظلة بن أبي عامر الفسيل وأبو سفيان ، فلما استعلاء حنظلة ابن أبي عامر ، رآه شاد بن الأسود ، وهو بن شعوب ، قد علا أبا سفيان ، فضربه شداد فقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صاحبكم ، يعني حنظلة ، لتغسله الملائكة فسألوا أهله وما شأنه ؟ فسلت صاحبه عنه ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتف .



ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، فغصوم بالسيوف ، حتى كشفهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيهما .

ويقول الزبير : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشيرات هوارب ، مادون أخذهن قليل ولا كثير ، إذ مالت الرحاة إلى المسكر ، حين كشفنا القوم عنه ، وخلصوا ظهورنا للنجيل ، فأتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ : ألا أن عمداً قد قتل ، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم ، بعد أن أصبنا أصعاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم .

ثم إن اللواء لم يزل صريعاً حتى أخذته حمرة بنت علقمة الحارثية ، فرفسته لقريش ، وكان اللواء مع صواب ، غلام لبني أبي طلحة ، حبشي ، وكان آخر من أخذه منهم ، فقاتل به حتى قطعت يده ، ثم برك عليه ، فأخذ اللواء ب صدره وعنقه حتى قتل عليه ، وهو يقول : اللهم هل أعزرت .

وانكشف المسلمون ، فأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتحميس ، أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة ، حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأصيب بالحجارة ، حتى وقع لشقه ، فأصيبت رباعيته ، وشج لي وجهه ، وكنت شفقه ، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص .

ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرة من الحفر التي هل أبو عامر ، لوقع فيها المسلمون ، وهم لا يسمون ، فأخذ علي بن أبي طالب يهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفع طلحة بن عبيد الله ، حتى استوى قائماً ، ومص مالك بن سنان ، أبو أبي سعيد الخدري ، الدم عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ازدردده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مس دمي دمه لم تصبه النار .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين غشيه القوم : من يخرج مني بشري لنا نفعه ؟ فقام زياد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار - وبمض الناس يقول : إنما هو حمارة بن يزيد بن السكن - فقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا ثم رجلا ، يقتلون دونه حتى كان آخرهم زياد ، أو حمارة ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، ثم قات فتة من المسلمين فأجهضوه عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدنوه مني ، فأدنوه منه ، فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول حمارة : خرجت أول النهار ، وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعي سقاء فيه ماء ، فانتبهت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في أصعابه ، والهدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم للمسلمون ، انخرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقامت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس ، حتى خلصت الجراح إلى .

ولما ولي الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل رجل يقول : دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجما ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربني هذه الضربة ، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان .

وترس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أبودجانة بنفسه ، يقع النبل في ظهره ، وهو منعن عليه ، حتى كثر فيه النبل . ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال سعد : فلقد رأيت ينادي النبل وهو يقول : ارم ، فسدك أبي وأمي ، حتى إنه لينادي السهم ماله نصل ، فيقول : ارم به .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رمى عن قوسه حتى اندقت
سيفها ، فأخذها قتادة بن النعمان ، فكانت عنده ، وأصيبت يومئذ عينا قتادة
ابن النعمان ، حتى وفقت على وجنته ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ،
فكانت أحسن عينيه وأحدهما .

وانتهى أنس بن النضر ، عم أنس بن مالك ، إلى عمر بن الخطاب ، وطالعة
ابن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد أتوا بأيديهم ، فقال :
ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فماذا تصنعون
بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على مامات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل .

ولقد وجدوا بأنس بن النضر يومئذ صبيين فربية ، فأعرفه إلا أخته ،
عرفته بيناته .

وكان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ،
وقول الناس : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كعب بن مالك ، قال :
عرفت عينيّه تزهرا من تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين ،
أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم : أن أنصت .

فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نهضوا به ، ونهض
معهم نحو الشعب ، معه أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن
أبي طالب ، وطالعة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، رضوان الله عليهم ، والحارث
بن الصمة ، ورهط من المسلمين .

فلما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب ، أدركه أبي بن خاف وهو يقول : أي محمد ، لانبجوت إن نبجوت ، فقال القوم : يا رسول الله ، أيعطف عليه رجل منا ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه ، فلما دنا ، تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ، فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذ انتفض بها - والشعراء : ذباب له لدغ - ثم استقبله فطمعه في عنقه طمعة تدأدا منها عن فرسه مرارا .

وكان أبي بن خاف ، ياتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فيقول : يا محمد ، إن عندى العوذ ، فرصاً أعلاه كل يوم فرقا^(١) من ذرة ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير ، فاحتقن الدم ، قال : قتلنى والله محمد ! قالوا له : ذهب والله فؤادك ، والله إن بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لى بمكة : أنا أقتلك ، فوالله لو بصق على لقتانى . فمات عدو الله بسرف^(٢) ، وهم قائلون به إلى مكة .

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فم بالشعب ، خرج على بن أبى طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس ، فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه

(١) مكياً بـم الـثـمـر عـشـر و مـلـا .

(٢) موضع على ستة أميال من مكة .

وسلم ، يشرب منه ، فوجد له ريحاً ، فمات ، فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم ، وصب على رأسه وهو يقول : اشتد غضب الله على من آدمى وجه نبيه . وكان سعد بن أبي وقاص يقول : والله ما حرصت على قتل رجل قط ، كحرصى على قتل عتبة بن أبي وقاص ، وإن كان ما علمت لسيء الخلق مبنضاً في قومه ، ولقد كفى من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشتد غضب الله على من آدمى وجه رسوله .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعب ، معه أولئك النفر من أصحابه ، إذ علت عالية من قریش الجبل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يملونا ! فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين ، حتى أهبطوهم من الجبل . ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهر بين درعين ، فلما ذهب ليتنفض صلى الله عليه وسلم لم يستطع ، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، فنهض به ، حتى استوى عليها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوجب طلحة ، حين صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم ما صنع .

• • •

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الظهر يوم أحد قاعداً من الجراح التي أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً . ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد ، رفع حسيل بن جابر ، وهو ألبان أبو حذيفة بن اليمان ، وثابت ابن وقش ، في الأظلام مع النساء والصبيان ، فقال أحدهما لصاحبه ، وهما شيخان كبيران : لا أبالك أما تنتظر ؟ فوالله ما بقي لواحد منا من همزه إلا ظمء حار ، إنما نحن هامة اليوم أو غد ، أفلا نأخذ أسواقنا ، ثم نلحق برسول

الله صلى الله عليه وسلم ، امل الله رزقنا شهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأخذ أسياقمما ، ثم خرجا ، حتى دخلا في الناس ، ولم يعلم بهما ، فأما ثابت بن وقش قتل المشركون ، وأما حسيل بن جابر ، فاختلفت عليه أسياف المسلمين ، فقتلوه ولا يعرفونه ، فقال حذيفة : أبى ، قالوا : والله إن عرفناه ، وصدقوا . قل حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يديه ، فتصدق حذيفة بدينه على المسلمين ، فزاده ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا .

ثم إن رجلا منهم كان يدعى حاطب بن أمية بن رافع ، وكان له ابن يقال له يزيد بن حاطب أصابته جراحة يوم أحد ، فأتى به إلى دار قومه وهو بالموت ، فاجتمع إليه أهل الدار ، فجعل المسلمون يقولون له من الرجال والنساء : أبشر يا ابن حاطب بالجنة ، قال : وكان حاطب شبيهاً قد صافى الجاهلية ، فنجم يومئذ نقانة ، فقال : بأى شيء تبشرونه ، بجنة من حرمل ؟ غررتم والله هذا الغلام من نفسه .

ويقول عامر بن ممر بن قتادة : كان فينا رجل أتى (١) لا يدري من هو ، يقال له : قزمان ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، إذا ذكر له : إنه من أهل النار . فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً ، فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين ، وكان ذا بأس ، فأثنته الجراحة ، فاحتمل إلى دار بني ظفر ، فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قزمان ،

(١) أنى ستره .

فأبشر ، قال : بما ذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت . فلما اشتدت عليه جراحته ، أخذ منهما من كفايته ، فقتل به نفسه

وكان ممن قتل يوم أحد مخيريق ، فإنه لما كان يوم أحد ، قال : يا معشر يهود ، والله لو علمتم أن نصر محمد عليكم لحق ، قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لاسبت لكم ، فأخذ سيفه وعدته ، وقال : إن أصبت فإلى الحمد سيصنع فيه ما يشاء ، ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل معه حتى قتل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مخيريق خير يهود .

وكان عمرو بن الجرح أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد ، يشهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد ، فلما كان يوم أحد ، أرادوا حبسه ، وقالوا له : إن الله عز وجل قد عذرك ، فإني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، فوالله إني لا أرجو أن أظا بمرجتي هذه في الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد عذرك الله ، فلا جهاد عليك . فقال لبنيه : ما عليكم ألا تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه ، فقتل يوم أحد .

ووقت عند بنت عتبة ، والنسوة التي معها ، يمثلن بالقتلى ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يمدعن الأذان والأنف ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنفهم خدما وقلائد ، وأعطت خدما وقلائد

وقرطتها وحشيًا ، غلام جبير بن مطعم ، وبقرت عن كبد حمزة ، فلاكتها ، فلم تستطع أن تسويها ، فأنفلتها .

• • •

ثم إن أبا سفيان بن حرب ، حين أراد الانصراف ، أشرف على الجبل . ثم صرخ بأعلى صوته ، فقال : أنعمت فمال^(١) ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم ، أغل هبل - أى أظهر دينك - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عمر فأجبه ، قال : الله أعلى وأجل ، لا سواء ، قتلاتنا في الجنة ، وقتلاكم في النار . فلما أجاب عمر أبا سفيان ، قال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمدًا ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه أسمع كلامك الآن ، قال : أنت أصدق عندي من ابن قننة وأبر ، لقول ابن قننة لهم : إنى قد قتلت محمدًا .

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه ، نادى : إن موعدكم بدر للعام القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب ، فقال : اخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون للدينة . وألقى نقيص بيده ، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزئهم . قال على : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة .

• • •

وفرح الناس تقتلهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل
يُنظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من
الأنصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد ، فنظر فوجده جريحاً
في القتلى وبه رمق . قال : فقلت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أمرني أن أنظر ، أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : أنا في الأموات ،
فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع
يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً من أمته ، وأبلغ قومك عن
السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله ،
أن خلص إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم ومنكم عمن تطرف . قال : ثم لم أبرح
حتى مات ، فجيئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره .

• • •

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلتمس حمزة بن عبد المطلب ،
فوجده يبطن الوادي قد بقر بطنه من كبده ، ومثل به فجدع أقه وأذناه .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ما رأى : لولا أن تحزن
صنية ، ويكون سنة من بعدى لتركته ، حتى يكون في بطون السباع ،
وحواصل الطير ، وأئن أظبرني الله على قبرش في موطن من المواطن ، لأمثلن
بثلاثين رجلاً منهم . فلما رأى المسلمون حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم
وغيفه على من فعل بعمه ما فعل ، قالوا : وائئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر ،
لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب .

ولما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة قل : لن أصاب
بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً قط أغيف إلى من هذا انهم قال : جاءني جبريل

فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أصل السموات السبع :
حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله ، وأسد رسوله .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمزة فسجى بريدة ، ثم صلى عليه ،
فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى ، فيوضعون إلى حمزة ، فصلى عليهم
وعليه معهم ، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة .

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب ، لتنظر إليه ، وكان أخاها لأبيها وأُمها ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينها الزبير بن العوام : القها فأرجعهما ،
لا ترى ما بأخيها ، فقال لها : يا أُمه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
يأمرك أن ترجعى ، قات : ولم أرقد بلفى أن قد مُثل بأخى ، وذلك في الله ،
فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحسب أن ولاصبرن إن شاء الله . فلما جاء
الزبير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بذلك . قال : خل سيابها ،
فأنته ، فنظرت إليه ، فصلت عليه ، واسترجعت ، واستغفرت له ، ثم أمر به
رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن .

* * *

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يومئذ ، حين أمر بدفن القتلى :
انظروا إلى عمرو بن الجحوم ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، فإنهما كانا
متصافيين في الدنيا ، فأجعلوهما في قبر واحد .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة ، فلقيت حمزة
بنت جعش ، فلما لقيت الناس نعى إليها أخوها عبد الله بن جعش ، فاسترجعت
واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت واستغفرت له ،

ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن زوج المرأة منها لمكان ، لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالتها ، وصياحها على زوجها .

• • •

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل ونظروا ، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم ، فسذرفت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكى ، ثم قال : لكن حمزة لا بواكى له ، فلما رجع سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، إلى دار بني عبد الأشهل ، أمرا نساءهم أن يتعزمن ، ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بكاء من على حمزة خرج عليهن ، ومن على باب مسجده يبكين عليه ، فقال : ارجعن يرحمك الله ، فقد آسيتن بأنفسكن .

• • •

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بني دينار ، وقد أميب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، فلما نعرها لها ، قالت : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، وهو بمحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير لها إليه ، حتى إذا رآته قالت : كل مصيبة بعدك جلل ، تريد صغيرة .

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله ، وناول سيفه ابتغى فاطمة ، فقال : اغسلى عن هذا دمه يابنية ، فوالله لقد صدقني اليوم ، وناولها على بن أبي طالب سيفه ، فقال : وهذا أيضاً ، فغسلى عنه دمه ،

فوالله لقد صدقني اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن كنت
صدقات القتال ، لقد صدق معك سهل بن حنيف ، وأبو دجانة .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعل بن أبي طالب : لا يصيب
المشركون منا مثلها ، حتى يفتح الله علينا . وكان يوم أحد يوم السبت
للنصف من شوال .

فلما كان الغد من يوم الأحد ، لت عشرة ليلة مضت من شوال ، أذن
مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو ، فأذن مؤذنه :
ألا يخرج من معنا أحد حضر إلا أحد يومنا بالأمس . فكلما جابر بن عبد الله
ابن عمرو بن حرام ، فقال : يا رسول الله ، إن أبي كان خلقني على أخوات لي
سبع ، وقال : يا بني ، إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء الذنوة لأرجل
فبين ، واستبأدي أو ترك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ،
فتخلف على أخواتك ، فتخلت عليهن ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فخرج معه ، وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهباً للعدو ، وليبذلهم
أنه خرج في طلبهم ، ليظنوا به قسوة ، وأن الذي أصابهم ، لم يوهنهم
عن عدوهم .

• • •

وكان رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من بني
عبد الأشهل ، شهد أحداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : شهدت
أحداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا وأخي لي ، فرجنا جريحين ، فلما أذن
مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالخروج في طلب العدو ، قلت لأخي أو
قال لي : أنفوتنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله ما لنا من دابة

تركبها ، وعامنا إلا جريح قتيل ، فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنت أبسر جرحاً ، فكان إذا غلب حملته عقبه — مرة — ومشى عقبه ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى حراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة .

وقد مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وكانت خزاعة ، مسلمهم ومشرکهم ، عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتهامة ، لا يخفون عنه شيئاً كان بها ، ومعبد يومئذ مشرك ، قال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ولوددنا أن الله عاقاك فيهم . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء الأسد ، حتى أتى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ، ثم رجع قبل أن نستأصلهم ! انكروا على بقيتهم ، فلنفزع منهم . فلما رأى أبو سفيان معبدأ ، قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه بطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتعرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان يخلف عنه في يومكم ، وتدموا على ما صنعوا ، فيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط ، قال : ويحك ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم ، لنستأصل بقيتهم . قال : فإني أنهارك عن ذلك .

ثم إن أبا سفيان بن حرب لمسا انصرف يوم أحد ، وأراد الرجوع إلى المدينة ، ليستأصل بقية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لهم صفوان

ابن أمية بن خلف : لا تفعلوا ، فإن النوم قد حربوا ، وقد خشينا أن يكرن
لهم قتال غير الذي كان ، فأرجعوا ، فرجعوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ،
وهو بحمراء الأسد ، حين بلغه أنهم هربوا بالرجة : واقدى نفسي بيده ، لقد
سومت لهم حجارة ، لو صبغوا بها لكانوا كأس القاذب .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهة ذلك ، قبل رجوعه إلى المدينة ،
معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، وهو جد عبد الملك
ابن مروان ، أبو أمه عائشة بنت معاوية ، وأبا حمزة الجعي ، وكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم أسره بدر ، ثم مَنَّ عليه ، فقال : يا رسول الله ، ألقني ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لأعسح عارضيك بمكة بعدها ونقول :
خذعت محمداً مرتين ، أضرب عنقه بأزبير . فضرب عنقه .

وكان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ، وحن
به المنافقين ، ومن كان يظهر الإيمان بلسانه ، وهو مستخف بالكفر في قلبه ،
ويوماً أكرم الله فيه من أراذ كرامته بالشهادة من أهل ولايته .

وكان جهم من أشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين
والأنصار خمسة وسبعين رجلاً .

٦٣ - يوم الرجيع

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمد أحد رطل من عضل والقارة

فقالوا : يا رسول الله، إن فينا إسلاماً ، فابست معنا نفراً من أصحابك
يفقهوننا في الدين ، وبقروا ثوبنا القرآن ، وبعلمونا شرائع الإسلام . فبعث
رسول الله صلى الله عليه وسلم نفراً ستة من أصحابه ، وهم مرثد بن أبي مرثد
الغنوي ، حليف حمزة بن عبد المطلب ، وخالد بن البكير الليثي ، حليف بني
عدي بن كعب ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأثلع ، أخو بني عمرو بن عوف
ابن مالك بن الأوس ، وخبيب بن عدي ، أخو بني جحجعي بن كلفة بن
عمرو بن عوف، وزيد بن الدثنة بن معاوية، أخو بني بياضة بن عمرو بن ذريق
ابن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج ، وعبد الله بن طارق ،
حليف بني ظفر بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم مرثد بن أبي مرثد الغنوي،
فخرج مع القوم ، حتى إذا كانوا على الرجيع ، ماء لهذيل بناحية الحجاز ، على
صدور الهداة^(١) غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلاً ، فلم يرع القوم وهم في
رحالهم، إلا الرجال بأيديهم السيوف، قد غشوم ، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوه،
فقالوا لهم : إنا والله ما نريد قتلكم، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة،
ولكم عهد الله وميثاقه ألا تقتلكم .

فأما مرثد بن أبي مرثد ، وخالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت ، فقالوا :
والله لا تقبل من مشرك عهداً ولا عهداً أبداً .

فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ، ليبيعوه من سلافة بنت سعد
ابن شهيد ، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد : أن قدريت على

(١) بين موضع عسفان ومكة .

رأس عاصم ، لتشرين في قعقه الخمر ، فمنعته الدبر^(١) ، فلما حالت بينه وبينهم الدبر قالوا : دعوه يمسي ، فنذهب عنه ، فناخذوه . فبعث الله الوادي ، فاحتمل عاصمًا ، فذهب به . وقد كان عاصم قد أعطى الله عمداً ألا يمسه مشرك ، ولا يمسه مشركاً أبداً ، تنجسًا ، فكان هرب بن الخطاب رضى الله عنه يقول ، حين بلغه : إن الدبر منعه : يحفظ الله العبد المؤمن ، كأن عاصم نذر ألا يمسه مشرك ولا يمسه مشركاً أبداً في حياته ، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته .

• • •

وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي ، وغبد الله بن طارق ، فلانوا ورقوا ، ورغبوا في الحياة ، فأعطوا بأيديهم ، فأسروهم ، ثم خرجوا إلى مكة ، ليبيعهم بها ، حتى إذا كانوا بالظهران انزع عبد الله بن طارق يده من القرآن^(٢) ، ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبروه رحمه الله ، بالظهران .

• • •

وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ، فقدما بها مكة ، فابتاع خبيبًا حجبر بن أبي إهاب التميمي ، حليف بني نوفل ، لعقبة بن الحارث بن عامر نوفل ، وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامر لأمه ، ليقتله بأبيه .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ، ليقتله بأبيه ، أمية بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له ، يقال له نسطاس ، إلى التنعيم ، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه ، واجتمع رهط من قريش ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال

(١) الدبر: الزناير والنعل .

(٢) القرآن : الحبل .

له أبو سفيان ، حين قدم ليقتل : أنشدك الله بازيد ، أتحب أن عمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه ، وأنت في أمك ؟ قال : والله ما أحب أن عمداً الآن في مكانه الذي هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أمي . قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد عمداً ، ثم قتله نسطاس ، يرحمه الله .

ثم خرجوا بخبيب ، حتى إذا جاءوا به إلى التميميم ليصلبوه ، قال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين ، فافعلوا ، قالوا : دونك فاركع . فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم ، فقال : أما والله لو لا أن تظنوا أني إنما طولت جزءاً من القتل ، لاستكثرت من الصلاة .

فكان خبيب بن عدي أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين . ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه ، قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الفداء ما يصنع بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدءاً ، ولا تفر منهم أحداً . ثم قتلوه رحمه الله .

٦٤ — حديث بئر معونة

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة ، ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحاب بئر معونة في صفر ، على رأس أربعة أشهر من أحد .

وقدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسيطة على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ، ودعاه ، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجلاً من

أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبيوا لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابمشهم ، فايدموا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم للنذر بن عمرو ، أخا بني ساعدة ، في أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم ، كلا البلدين منها قريب ، وهي إلى حرّة بني سليم أقرب .

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ماعان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر في كتابه ، حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بني عامر ، فأبوا أن يجيبوه إلى مادعاهم إليه ، وقالوا : لن نفخر أبا براء ، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا ، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلهم حتى قتلوا من عند آخرهم ، يرحمهم الله ، إلا كعب بن زيد ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا رحمه الله .

وكان في شرح القوم عمرو بن أمية الضمري ، ورجل من الأنصار ، فلم ينبشهما ببصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على المسكر ، فقالا : والله إن لهذه الطير لشيئًا ، فأقبلتا لينظرا ، فإذا القوم في دماثهم ، وإذا الخيل ، التي أصحابهم واقفة ، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية : ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنخبره الخبر ، فقال الأنصاري : لكني ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لتخبرني عنه الرجال ، ثم قاتل القوم حتى قتل .

وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً ، فلما أخبرهم أنه من مضر ، أطلقه عامر بن
الطافيل ، وجز ناصيته ، وأعتقه عن رقبة ، زعم أنها كانت على أمه .
فخرج عمرو بن أمية ، حتى إذا كان بالقرقرة^(١) ، أقبل رجلان من
بنى عامر حتى نزلا معه في خلل هو فيه . وكان مع العامرين عقد من رسول
الله صلى الله عليه وسلم وجوار ، لم يعلم به عمرو بن أمية ، وقد سألهما حين نزلا :
من أنتم ؟ فقالا : من بنى عامر ، فأمرهما ، حتى إذا ناما ، عدا عليهما فقتلهما ،
وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأراً من بنى عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم . فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه
وسلم فأخبره الخبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد قتلت
قتيلين لأدينيهما .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارهاً
متخوفاً . فباغ ذلك أبا براء ، فشق عليه إختار عامر إياه ، وما أصاب أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم بسببه وجواره ، وكان فيمن أصيب عامر
ابن فهيرة .

• • •

٦٥ - إجلاء بنى النضير

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير يستعينهم في دية ذينك
القتيلين من بنى عامر ، اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري ، للجوار الذي كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لها ، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد
وحلف ، فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك

(١) القرقرة : موضع قريب من المدينة .

الفتيلين ، قالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد — فن رجل يلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جعاش بن كعب ، أحدهم ، فقال : أنا ذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلي ، رضوان الله عليهم .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة : فلما استلبث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ، قاموا في طلبه ، فأتوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فدأوه عنه ، فقال : رأيت داخل المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انتهوا إليه صلى الله عليه وسلم ، فأخبرهم الخبر ، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيو للحربهم ، والسير إليهم . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم . ثم سار بالناس حتى نزل بهم ، وذلك في شهر ربيع الأول ، فحاصروهم ست ليال ، ونزل تحريم الغر ، فتحصنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل ، والتعريق فيها ، فنادوه : أن يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد ، وتمييزه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقه ؟

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج ، منهم عدو الله عبد الله ابن أبي بن سلول ، ووديعة ، ومالك بن أبي قرقل ، وسويدا وداعس ،

قد بعثوا إلى بني النضير : أن اثبتوا وتمنعوا ، فإننا لن نسلمكم ، إن قوتكم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلبهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لم يمسحوا الإبل من أموالهم إلا السلاح ، ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن عتبة بابه فيضمه على ظهر بعيره ، فينطلق به ، فيخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . وخلصوا الأموال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة يضمنها حيث يشاء ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المهاجرين الأوائل دون الأنصار . إلا أن سهل بن حنيف ، وأبا دجانة سمالك بن خزيمة ، ذكرا فقرا ، فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان ، يأمين بن حمير ، أبو كعب ابن عمرو بن جعاش ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما ، فأحرزاهما .

٦٦ - غزوة ذات الرقاع

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد غزوة بني النضير ، شهر ربيع الآخر وبعض جمادى ، ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان ، واستعمل على المدينة أباذر الغفاري ، حتى نزل نخلاً^(١) ، وهي غزوة ذات الرقاع ، وإنما قيل لها : غزوة ذات الرقاع ، لأنهم رقعوا فيها راياتهم . فلقى بها جمعاً عظيماً من غطفان ، فتقارب الناس ، ولم تكن بينهم حرب ، وقد خاف الناس

(١) نخل موضع نجد .

بعضهم بعضاً ، حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الخوف ،
ثم انصرف بالناس .

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة ذات الرقاع ، أقام بها
بقية جهادى الأولى وجهادى الآخرة ورجباً .

٦٧ - غزوة بدو الآخرة

ثم خرج في شعبان إلى بدر ، لميعاد أبي سفيان ، حتى نزل .
واستعمل على المدينة عبدالله بن عبد الله بن أبي بن سلول الأنصارى ، فأقام
عليه ثمانى ليال ينظر أباسفيان . وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة ،
من ناحية الظهران ، ثم بدا له في الرجوع ، فقال : يا معشر قريش ، إنه
لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن
عامكم هذا عام جذب ، وإني راجع ، فارجعوا ، فرجع الناس . فسامهم أهل
مكة جيش السويق ، يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق .

ولما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على بدر ينتظر أباسفيان لميعاده أتاه
عحشى بن عمرو الضمرى ، وهو الذى كان وادعه على بنى ضمرة في غزوة ودان ،
فقال : يا محمد ، أجنث للقاء قريش على هذا الماء ؟ قال : نعم ، يا أبا بنى ضمرة ،
وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ، ثم جالدناك حتى يحكم
الله بيننا وبينك . قال : لا والله يا محمد مالنا بذلك منك من حاجة .

٦٨ - غزوة دومة الجندل

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فأقام بها أشهراً ،
حتى مضى ذو الحجة ، وهى سنة أربع ، ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم

دومة الجندل ، في شهر ربيع الأول ، واستعمل على المدينة سبعاء بن عرفة الغفاري . ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يصل إليها ، ولم يبق كيداً ، فأقام بالمدينة بقية سنته .

٦٩ - ثم كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس

وكان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود ، منهم : سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحي بن أخطب النضري ، وكنانة بن أبي الحقيق النضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي ، في نفر من بني النضير ، ونفر من بني وائل ، وهم الذين حاربوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة ، فدعومهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله . فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . فلما قالوا ذلك لقريش ، سرهم ونشطوا لما دعومهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعوا لذلك ، واتعدوا له . ثم خرج أولئك النفر من يهود ، حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان ، فدعومهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه . وأن قريشاً قد تابوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه .

فخرجت قريش ، وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها

هيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، في بني فزارة ، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري ، في بني مرة ، ومسر بن ربيعة ، فيمن تابعه من قومه أشجع . فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أجمعوا له من الأمر ، ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ترغيباً للمسلمين في الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين في عملهم ذلك ، رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نأبته ، من الحاجة التي لا بد له منها ، يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستأذنه في التعرق بحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة في الخير ، واحتساباً له .

• • •

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق ، أقبلت قريش ، حتى نزلت بمجمع الأسسبال من رومة ، في عشرة آلاف من أحابيشهم ، ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة . وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، حتى نزلوا إلى جانب واحد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع ، في ثلاثة آلاف من المسلمين ، ف ضرب هناك عسكره ، والخندق بينه وبين القوم .

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر بالقداري والنساء فجعلوا في الأطلام .

وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري ، حتى أتى كعب بن أسد

القرظي ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه ، وعاهده على ذلك وعاهده . فلما سمع كعب بن يحيى بن أخطب ، أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه ، فأبى أن يفتح له ، فناداه يحيى : ويحك يا كعب افتح لي ، قال : ويحك يا يحيى ! إنك امرؤ مشثوم ، وإني قد عاهدت محمداً ، فلست بناتق ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً ، قال ويحك افتح لي أكلك ، قال : ما أنا بفاعل ، قال : والله إن أغلقت دوني إلا عن جيشك أن آكل معك منها ، فأحفظ الرجل ، ففتح له ، فقال : ويحك يا كعب ! جئتكم بمز الدهر وبيعكم طام ، جئتكم بقريش على قادتها وساداتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسياال من رومة ، وبغطفان على قادتها وساداتها ، حتى أنزلتهم إلى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نتأصل محمداً ومن معه ، فقال له كعب : جئتني والله بذي الدهر ، ويحك يا يحيى ! قد عني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء . فلم يزل يحيى يكعب يفتله في القروة والغارب ، حتى سمح له ، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً : لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمداً ، أن أدخل معك في حصنك ، حتى يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• • •

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر وإلى المسلمين ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ بن النعمان ، وهو يومئذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد بن دليم ، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وهو يومئذ سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، أخو بني الحارث بن الخزرج ، وخوات بن جبير ، أخو بني عمرو بن عوف ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا ، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً ، فالحزب لي لحناً

أعرفه ، ولا تفتروا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم ،
 فاجمروا به للناس . فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم
 منهم ، فيما نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : من رسول الله ؟
 لا عهد بيننا وبين محمد ولا عهد . فشقهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وكان رجلا
 فيه حدة ، فقال له سعد بن عباد : دع غناك مشاقمهم ، فما بيننا وبينهم أربى
 من المشاقة . ثم أقبل سعد وسعد ومن معه ، إلى رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، فسلموا عليه ؛ ثم قالوا : عضل والقارة - أي كقدر عضل والقارة
 بأصحاب الرجيم ، خبيب وأصحابه - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله
 أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن
 أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ،
 حتى قل معتب بن قشير ، أخو بني عمرو بن عوف : كان محمداً يعدنا أن
 نأكل كنوز كسرى وقهره ، وأحدثنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى
 الغائط .

وحكى قل أوس بن قبيص ، أحد بني حارثة بن الحارث : يا رسول الله ،
 إن بيوتنا عورة من العدو ، وذلك عن ملا من رجال قومه ، فاذن لنا أن
 نخرج فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج المدينة . فأقام رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، وأقام عليه المشركون بعضاً وعشرين ليلة ، قريباً من شهر ، لم تكن
 بينهم حرب إلا المراماة بالنبل والحصار .

فلما اشتد على الناس البلاء ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
 عيينة بن حصن بن حذيفة - بن بدر ، وإلى الحارث بن عوف بن
 أبي حارثة المري ، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة ، على أن

يرجما بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فبحرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كقبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح ، إلا المراوضة في ذلك . فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل ، بعث إلى سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد ، فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله ، أمراً نحببه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به ، لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكاليوم من كل جانب . فأردت أن أكرم عنكم من شوكتهم إلى أمر ما . فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأصنام ، لانعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، أفنعين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا .

• • •

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وعدوهم محاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال ، إلا أن فوارس من قريش ، منهم عمرو بن عبد ود بن أبي قيس ، أخو بني عامر بن لؤى ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي وهب ، المخزوميان ، وضرار بن الخطاب الشاعر ، ابن مرداس ، أخو بني معارب بن فهر ، تلبسوا للقتال ، ثم خرجوا على خيلهم ، حتى مروا بمنازل بني كنانة ، فقالوا : تهيبوا يا بني كنانة للعرب ، فستعلمون من الفرسان

اليوم ، ثم أقبلوا تعلق بهم خيلهم ، حتى وقفوا على الخندق ، فلما رآره قالوا :
والله إن هذه لكيدة ما كانت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيلهم ، فافتحمت منه
فجالت بهم في السبغة بين الخندق وسلم ، وخرج علي بن أبي طالب رضي الله
عنه في نفر من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثفرة التي أقحموا منها بخيلهم .
وأقبلت الفرسان تعلق نحوم ، وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر
حتى أنبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً
ليرى مكانه .

فلما وقف هو وخيله ، قال : من يبارز ؟ فبرز له علي بن أبي طالب ، فقال
له : يا عمرو ، إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى
إحدى خلتين إلا أخذتها منه ؟ قال له : أجل ، قال له علي : فإني أدعوك إلى
الله وإلى رسوله ، وإلى الإسلام ، قال : لا حاجة لي بذلك . قال : فإني أدعوك
إلى النزال . فقال له : يا بن أخي ، فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال له علي :
لكني والله أحب أن أقتلك ، فعصى عمرو عند ذلك ، فافتحم عن فرسه ، فمقره ،
وضرب وجهه ثم أقبل على علي ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله علي رضي الله عنه ،
وخرجت خيلهم منهزمة ، حتى افتحمت من الخندق هاربة .

• • •

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فيا وصف الله من الخوف
والشدة ، لتظاهر عدوم عليهم ، وإنيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم .
ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنقد بن هلال بن
خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قال : يا رسول الله : إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا يا سلامي ، فرني بما
 شئت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل
 منا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني
 قريظة ، وكانت لهم نديما في الجاهلية ، فقال : يا بني قريظة ، قد عرفتم ودي
 إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقت ، لست عندنا بكم ، فقال لهم :
 إن قريشا وغطفان ليسوا كما أنتم ، البلد بلكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم
 ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد
 جاءوا للحرب محمد وأصحابه وقد ظاهروهم عليه ، وبلادهم وأموالهم ونساؤهم
 بغيره ، فليسوا كما أنتم ، فإن رأوا خيوة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا
 ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا
 تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة
 لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنالوا جزوه . فقالوا له : لقد أشرت بالرأي

• • •

ثم خرج حتى أتى قريشا ، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال
 قريش : قد عرفتم ودي لكم وفراقى محمداً ، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت على
 حقاً أن أبلغكموه ، نصحاء لكم فاكتموا عني ، فقالوا : نفل ، قال : تعلمون أن
 معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه :
 إنما قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن تأخذنا من القبيحتين ، من قريش
 وغطفان ، رجالاً من أشرافهم ، فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك
 على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : أن نعم . فإن بعثت إليكم
 يهود يمشون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً

• • •

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يا مشر غطفان ، إنكم أصل وعشيرتي ،
وأحب الناس إلي ، ولا أراكم تنهونني ، قالوا : صدقت ما أتت عندنا بمقدم ،
قل : فاكتموا عني ، قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش ،
وحذرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، وكان من صنع الله لرسوله
صلى الله عليه وسلم أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورواس غطفان إلى
بنى قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا
لهم : إننا لنا بدار مقصم ، قد هلك الخلف والحافر ، فاغدوا للقتال ، حتى
تتأجر محمد ، ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم ، إن اليوم يوم السبت وهو
يوم لا نفعل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بهضنا حدثاً ، فأصابه ما لم يخف
عليكم ، ولستنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تطونا رهناً من رجالكم ،
بكونون بأيدينا ثقة لدا ، حتى تتأجر محمد ، فلما نخشى أن خرسكم الحرب ،
واشدت عليكم القتال أن تنشروا إلى بلادكم وتركونا ، والرجل في بلدنا ،
ولا طاقة لنا بذلك منه . فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت
قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود الحق . فأرسلوا إلى بنى
قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال
فاخرجوا تقاتلوا ، فقالت بنو قريظة ، حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي
ذكره لكم نعيم بن مسعود الحق ، ما يربد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصة
انتهزوها . وإن كان غير ذلك انشروا إلى بلادهم وخوايبتكم وبين الرجل في بلدكم ،
فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تطونا رهناً .
فأبوا عليهم ، وخذل الله بينهم . وبث الله عليهم الريح في ليل ثانية باردة

شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم ، وتطرح أبنيتهم . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم ، وما فرق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة بن اليمان ، فبعثه إليهم ، لينظر ما فعل القوم ليلاً .

قال حذيفة : فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء . فقام أبو سفيان ، فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ من جلسه ؟ قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي ، قتل : من أنت ؟ قال : فلان ابن فلان .

ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك السكران والخلف ، وأخافتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما نطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل . ثم قام إلى جملته وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى « أن لا نحدث شيئاً حتى تأتيني » ثم شئت لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه ، فإني رأيتني أدخلت إلى رجله ، وطرح عليّ طرف المرط ، ثم ركع وسجد ، وإني لقيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وصممت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون ، ووضعوا السلاح .

فلما كانت الظهر ، أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مستعجراً
بمسامة من استبرق على بغلة عليها رحالة ، عليها قطيفة من ديباج ، فقال : أوقد
وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فقال جبريل : فما وضعت لللائكة
السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم . إن الله عز وجل يأمرك
يا محمد بالسير إلى بني قريظة ، فإني عامد إليهم فمززل بهم .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً ، فأذن في الناس ، من كان
ساعياً مطيعاً ، فلا يصاين المصر إلا بيني قريظة . واستعمل على المدينة
ابن أم مكتوم .

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب براكبه إلى بني
قريظة ، وابتدرها الناس . فار على بن أبي طالب ، حتى إذا دنا من الحصون
سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع حتى لقي رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالطريق ، فقال : يا رسول الله ، لا عليك ألا تدنو من
هؤلاء الأخابث ، قال : لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى ؟ قال : نعم يا رسول
الله ، قال لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً . فلما دنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم من حصونهم . قال : يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل
بكم نعمته ؟ قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولاً .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنهر من أصحابه بالصورين^(١) قبل
أن يصل إلى بني قريظة فقال : هل مر بكم أحد ؟ قالوا : يا رسول الله ، قد مر بنا
دحية بن خليفة الكلبي ، على بغلة بيضاء عليها رحالة ، عليها قطيفة ديباج . فقال

(١) الصورين : موضع قرب المدينة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك جبريل ، بعث إلى بني قريظة يزل بهم
حصونهم ، ويقذف الرعب في قلوبهم .

ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة نزل على إثر من
آبارها من ناحية أموالهم ، يقال لها : برأني .

وتلاحق به الناس ، فأتى رجال منهم من بعد المشاء الآخرة ، ولم يصلوا
المصر ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدين أحد المصر
إلا ببني قريظة » ، فشغلهم ما لم يكن منه بد في حربهم ، وأبوا أن يصلوا ،
لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حتى تأتوا بني قريظة » فصلوا المصر بها
بعد المشاء الآخرة كما عابهم الله بذلك في كتابه ، ولا عنفهم به رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نحواً وعشرين
ليلة ، حتى جهدم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب .

وقد كان حي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم ، حين رجعت
عنهم قريش وغطفان ، وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه . فلما أيقنوا
بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى
يماجزم ، قال كعب بن أسد لم : يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر
ماترون ، وإن عارض عليكم خلا لا ثلاثاً ، فخذوا أيها شتم ، قالوا : وما هي ؟
قال : تنابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم إنه لثي مرسل ، وإنه
لهذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون على دماءكم وأموالكم وأبنائكم
ونسائكم ، قالوا : لا تشارك حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره قال :
فلذا أبيتم على هذه ، فهلم فانتقل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه
رجالاً مصلتين السهوف ، لم نترك وراءنا قتلاً ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ،

فإن نهلك نهلك ، ولم تترك وراءنا نسلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمري لنجعلن
النساء والأبناء ، قالوا : تقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم ؟ قال :
فإن أبيتم علي هذه ؛ فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه
قد آمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة ، قالوا : لقد
سبقتنا علينا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت ، فأصابه
ما لم يخف عليك من المنع ؟ قال : ما بات رجل منكم منذ ولده أمه ليلة
واحدة من الدهر حازماً .



ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ابث إلينا أبا لبابة
ابن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف ، وكانوا حلفاء الأوس ، لتستشيره
في أمرنا . فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فلما رأوه قام إليه
الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرق لهم . وقالوا له :
يا أبا لبابة ! أنرى أن نزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى
حلقه . إنه الدبع . قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت
أنى قد خنت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ،
ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتبط في المسجد إلى حمود من
همه ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت ، وعاهد الله
ألا أحملاً بني قريظة أبداً ، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره ، وكان قد استبطأه ، قال :
أما إنه لو جاعني لاستغفرت له . فأما إذ قد فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من
مكانه حتى يتوب الله عليه .

ثم إن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من
السعر ، وهو في بيت أم سلمة . فقالت أم سلمة : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم من السعر وهو يضحك ، قلت : نعم تضحك يا رسول الله ، أضحك
الله منك ؟ قال : تيب على أبي لبابة ، قالت : قلت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟
قال : بلى ، إن شئت . فقامت على باب حجرتها — وذلك قبل أن يضرب
عليهن الحجاب — فقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك . فثار الناس
إليه ليطلقوه ، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي
يطلق بيده ، فلما مر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجاً إلى صلاة
الصبح أطلقه .



وقد أقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ست ليال ، تأتبه امرأته في كل وقت
صلاة ، فتعله للصلاة ، ثم يعود فمرتبط بالجذع ، ثم إن ثعلبة بن سمية ، وأسيد
ابن سمية ، وأسدي بن عبيد ، وهم نفر من بني هذيل ، ليسوا من بني قريظة ولا النضير ،
هم بنو عم القوم ، أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول
الله صلى الله عليه وسلم . وخرج في تلك الليلة عمرو بن سعدى القرظي ، فمر
بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه محمد بن مسلمة تلك الليلة ، فلما رآه
قال : من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سعدى — وكان عمرو قد أبى أن يدخل
مع بني قريظة في غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا أغدر بمحمد
أبداً — فقال محمد بن مسلمة حين عرفه : اللهم لا تحرمني إقالة عشرات
الكرام ، ثم خلى سبيله . فخرج على وجهه حتى أتى باب مسجد رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالمدينة تلك الليلة ، ثم ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض

إلى يومه هذا ، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنه ، فقال : ذاك رجل
نجاه الله بوفاته . فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فخوابت الأوس ، فقالوا : يا رسول الله ، إنهم مواليك دون الخزرج ، وقد ضلت
في أموال إخواننا بالأوس ما قد عانت - وقد كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قبل بني قريظة قد حاصر قيثاق ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على
حكمه ، فسأله إمام عبد الله بن أبي بن سلول ، فوجههم له - فلما كلمته الأوس ،
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم
رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذاك إلى
سعد بن معاذ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعد بن معاذ
في خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها : رفيدة ، في مسجده ، كانت تداوي الجرحى ،
وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به خيمة من المسلمين ، وكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم بالحندي : اجعلوه في خيمة
رفيدة ، حتى أعوده من قريب . فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في
بني قريظة ، أتاه قومه ، فعملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من آدم ، وكان
رجلا جسيما جميلا ، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يقولون :
يا أبا عمرو ، أحسن في مواليك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك
ذلك اتحسب فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله أومة
لائم . فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل ، فنعى لهم رجال
بني قريظة ، قبل أن يصل إليهم سعد ، عن كلمته التي سمع منه ، فلما انتهى سعد إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا

إلى سيدكم - فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار، وأما الأنصار، فيقولون : قد عم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقاموا إليه فقالوا : يا أبا عمر ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم ، وعلى من هاهنا ، في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لإجلاله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسي القراري والنساء .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » ، ثم استنزلوا ، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في دار بنت الحارث ، امرأة من بنى النجار ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة ، التي هي سوقها اليوم ، فخطب بها خنادق ، ثم بعث إليهم ، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يخرج بهم إليه أرسالا ، وفيهم عدو الله حمي بن أخطب ، وكعب بن أسد ، رأس القوم ، وهم ستمائة أو سبعمائة ، والمكثر لهم يقول : كانوا بين الستمائة والثسمائة . ولقد قالوا لكعب بن أسد ، وهم يذهب بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا : يا كعب ، ما تراه يصنع بنا ؟ قال : في كل موطن لائمة لون ؟ ألا ترون الداعي لا ينزع ، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل . فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• • •

وأتى بحمي بن أخطب عدو الله ، وعليه حلة له من الوشي قد شقها عليه

من كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل - فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما والله ما كنت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل . ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ومصلحة كتبها الله على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه . قالت عائشة : ولم يقتل من نساءهم إلا امرأة واحدة . قالت عائشة : والله إنها لعندي تحدث معي ، وتضعك ظهراً وبطناً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالها في السرق ، إذ هتف هاتف باسمها : أين فلانة ؟ قالت : أنا والله . قالت : قلت لها : وبلك مالك ؟ قالت : أقتل . قلت : ولم ؟ قالت : لحدث أحدثته . قالت : فأنطالق بها ، فضربت عنقها ، فكانت عائشة تقول : فوالله ما أنسى عجباً منها ، طوب نفسها وكثرة ضحكها ، وقد عرفت أنها تقتل .

وكان ثابت بن قيس بن الشماس قد أتى الزبير بن ياطا القرظي ، وكان الزبير قد من على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية ، أخذه يوم بقات فجز ناصيته ، ثم خلى سبيله ، فجاءه ثابت وهو شيخ كبير ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، هل تعرفني ؟ قال : وهل يجهل منلى مثلك ، قال : إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي ، قال : إن الكريم يحزى الكريم . ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنه قد كانت للزبير على منة ، وقد أحببت أن أجزيه بها ، فهب لي دمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو لك ، فأناء فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لي دمك ، فهو لك ، قال : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالخياة ؟ قال : فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله : هب لي امرأته وولده ، قال : هم لك . قال : فأناء ، فقال : قد وهب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم

أهلك وولدهك ، فهم لك ، قال : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم ، فما بقاؤهم على ذلك ؟ فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : ماله ؟ قال : هو لك . فأناء ثابت فقال : قد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك ، فمهلك ، قال : أي ثابت ، ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية يترامى فيها عذارى الحلى ، كعب بن أسد ، قال : قتل . قال : فما فعل سيد الحاضر والبادى حيسى بن أخطب ؟ قال : قتل ، قال : فما فعل مقدمتنا إذا شددنا ، وحاميتنا إذا فررنا ، عزال بن سموءل ؟ قال : قتل . قال : فما فعل المجلسان ؟ يعى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة ، قال : ذهبا ، قتلوا . قال : فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقني بالقوم ، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضع^(١) حتى ألتى الأحبة ؛ فقدمه ثابت ، فضرب عنقه .

• • •

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين . ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأنصاري ، أخا بنى عبد الأشهل ، بسبايا من سبايا بنى قريظة إلى نجد ، فاتباع لهم بهاخيلا وسلاحا .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفى لنفسه من نساءهم ريحانة بنت عمرو ، إحدى نساء بنى عمرو بن قريظة ، فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفى عنها وهي في ملكه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض عليها أن يتزوجها ، ويضرب عليها الحجاب ، فقالت : يا رسول

(١) الناضع : الخبل ، أي : مقدار ما تخرج به الفل من البئر .

الله ، بل تركني في ملكك ، فهو أخف عليّ وعليك ، فتركها . وقد كانت حين سبها قد تعصت بالإسلام ، وأبت إلا اليهودية ، فمزها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجد في نفسه لذلك من أمرها . فبينما هو مع أصحابه ، إذ سمع وقع نعلين خلفه ، فقال : إن هذا لثعلبية بن سمية يبشرني بإسلام ربحانة ، فجاءه فقال : يا رسول الله ، قد أسلمت ربحانة ، فسرّه ذلك من أمرها .

ولما انصرف أهل الخندق عن الخندق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لمن تغزوك قريش بعد عامكم هذا ، لو كنتم تغزونهم . فلم تغزم قريش بعد ذلك ، وكان هو الذي يفزوها حتى فتح الله عليه مكة .

ولما انقضى شأن الخندق ، وأمر بني قريظة ، وكان سلام بن أبي الحقيق ، وهو أبو رافع . فبين حزب الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الأرض قبل أحد قتلت كعب بن الأشرف ، في عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحريضه عليه ، استأذنت الخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل سلام بن أبي الحقيق ، وهو بخير ، فأذن لهم .

٦٨ - غزوة بني الحنظلة

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ذا الحجة والحرم وصفرًا وشهر ربيع ، وخرج في جمادى الأولى ، على رأس ستة أشهر من فتح قريظة ، إلى بني الحنظلة ، يطلب بأصحاب الرجيم : خبيب بن عدي وأصحابه ، وأظهر أنه يريد الشام ، ليصيب من القوم غرة . فخرج من المدينة صلى الله عليه وسلم ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، فملك على غراب ، جبل بناحية المدينة ، على طريقه إلى الشام ، ثم استقام به الطريق ، على الحجة من طريق

مكة ، فأخذ السير سريعاً ، إلى بلد يقال له : ساية ، فوجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال ، فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخطأه من غرتهم ما أراد ، قال : لو أنا هبطنا صفان ، لرأى أهل مكة أننا قد جئنا مكة . فخرج في مشى راكب من أصحابه ، حتى نزل صفان ، ثم بعث فارسين من أصحابه ، حتى بلغا كراع الغميم ، ثم كر ، وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم قاقلاً ، وهو يقول حين وجه راجعاً : آيئون تائبون إن شاء الله ، لربنا حامدون ، أعود بالله من وعشاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال .

• • •

٦٩ - غزوة ذي قرد

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلم يبق بها إلا ليالٍ قلائل ، حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، في خيل من غطفان ، على لقاح لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجل من بني غفار وامرأة له ، فقتلوا الرجل ، واحتملوا المرأة في اللقاح .

وكان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسدي ، غدا يريد الغابة متوشحاً قوسه ونبله ، ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله ، معه فرس له يقوده ، حتى إذا علا ثنية الوداع ، نظر إلى بعض خيولهم فأشرف في ناحية سلم ، ثم صرخ : واصباحاه ! ثم خرج يشق في آثار القوم ، وكان مثل السبع ، حتى لحق بالقوم ، فجعل يردهم بالنبل ، ويقول إذا رمى : خذها وأنا ابن الأكوع ، فإذا وجهت الخيل نحوه ، انطلق هارباً ، ثم عارضهم ، فإذا أمكنه الرمي رمى ، ثم قال : خذها وأنا ابن الأكوع . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صباح ابن الأكوع ، فصرخ بالمدينة : الفرع الفرع ! فترامت الخيول إلى رسول

الله صلى الله عليه وسلم . فلما اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليهم سعد بن زيد ، ثم قال : اخرج في طلب القوم ، حتى ألحقك في الناس . فخرج الفرسان في طلب القوم ، حتى تلاحتوا . واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى نزل بالجبل من ذي قرد ، وتلاحق به الناس ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، وأقام عليه يوماً وليلة ، وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه في كل مائة رجل جزوراً ، وأقاموا عليها ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً حتى قدم المدينة . فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعض جهادى الآخرة ورجباً .

• • •

٧٠ - غزوة بنى المصطلق

ثم غزا بنى المصطلق من خزاعة ، في شعبان سنة ست ، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى . وكان بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن بنى المصطلق يجمعون له ، وقائدهم الحارث بن أبى ضرار ، أبوجوهرية بنت الحارث ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم خرج إليهم حتى أقيمهم على ماء يقال له : الرئيسيم ، من ناحية قديد إلى الساحل ، فتزاحف الناس واقتتلوا ، فهزم الله بنى المصطلق وقتل من قتل منهم ، ونقل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفادهم عليه . فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك الماء ، وردت واردة الناس . ومعهم عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار ، يقال له : جهجاه بن مسعود ، بقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسانان بن وبرة الجهنى ، حليف بنى عوف بن الخزرج على

الماء ، فاقبلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول ، وعنده رطل من قومه ، فيهم : زيد بن أرقم ، غلام حدث ، فقال : أو قد فذلوها ؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما نعلم بأنفسكم ، أحاطت بهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فإيتاه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! لا ، ولكن أذن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيهم ، فارتحل الناس .

وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه ، فعاد باله : ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به — وكان في قومه شريقاً عظيماً — فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ، عسى أن يكون السلام قد أوم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، حدباً على ابن أبي بن سلول ودفناً عنه .

فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يا نبي الله ، والله لقد رحت في ساعة منكورة ، ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو

ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : وأى صاحب يارسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبي ، قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأنت يارسول الله والله تخرجه منها إن شئت ، هو والله القليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظرون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً .

* * *

ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا من الأرض ، فوقموا نياماً . وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشتغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله ابن أبي ، ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس ، وسلك الحجاز ، حتى نزل على ماء بالحجاز ، فوقيق النقيع ، يقال له : بقاء . فلما راح رسول الله صلى الله عليه وسلم هبت على الناس ريح شديدة ، آذتهم وتخوفوها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخافوها ، فإنما هبت ملوت عظيم من عطاء الكفار . فلما قدموا المدينة وجدوا رقاعة بن زيد بن التباوت ، أحسب بنى قينقاع ، وكان عظاماً من عطاء يهود ، وكهناً للمنافقين ، مات في ذلك اليوم .

ثم إن عبد بن عبد الله بن أبي أنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلا ، فمضى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخرز ما كان لها من رجل أبر بوالله منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشى في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلاً

مؤمنًا بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل نترقب به ، ونحسن صحبته ما بقى ممنا . وجعل بعد ذلك إذا حدث الحدث ، كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب ، حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلتك يوم قلت لى لأرعدت له أنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أصاب من بنى المصطلق سبيًا كثيرًا ، فقامه المدون ، وكان فيمن أصيب يومئذ من السبابا ، جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار . ولما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بنى المصطلق ، ومعه جويرية بنت الحارث — وكان بذات الجيش — دفع جويرية إلى رجل من الأنصار وديعة ، وأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته ، فلما كان بالمقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء ، فرغب في بيع من منها ، ففقيهما في شعب من شعاب المقيق ، ثم أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا محمد ، أصبحت ابنتى ، وهذا فداؤها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأين البهتان اللذان غيبتكما بالمقيق ، في شعب كذا وكذا ؟ فقال الحارث : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت محمد رسول الله ، فوالله ما اطمع على ذلك إلا الله ، فأسلم الحارث ، وأسلم معه ابنته له ، وناس من قومه ، وأرسل إلى البعيرين ، فجاء بهما ، فدفع الإبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ودفعته إليه ابنته جويرية ، فأصلحت ، وحسن إسلامها .

فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيها ، فزوجه إياها ، وأصدقها
أربعمائة درهم .

• • •

٧١ - حديث الإكلاء

وتقول عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أفرع
بين نسائه ، فأيمن خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كانت غزوة بني المصطلق
أفرع بين نسائه كما كان يصنع ، فخرج سهمي عليهن معه ، فخرج بي رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وكنت إذا رحلت لي بعيري ، جئت في هودجى ، ثم
يأتى القوم الذين يرحلون لي ويحملوننى ، فيأخذون بأسفل الهودج ، فيرفقونه ،
فيضمونه على ظهر البعير ، فيشدونه بحباله ، ثم يأخذون برأس البعير ، فينطلقون
به . فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك ، رجع قافلاً ، حتى
إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً ، فبات به بعض الليل ، ثم أذن فى الناس
بالرحيل ، ، فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتى ، وفى عنقى عقد لى ،
فيه جزع ظفار^(١) ، فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت إلى
الرحل ، ذهبت ألنسه فى عنقى ، فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل ،
فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه ، فالتصتته حتى وجدته ، وجاء القوم
خلاف ، الذين كانوا يرحلون لى البعير ، وقد فرغوا من رحلتهم ، فأخذوا
الهودج ، وهم يظنون أنى فيه ، كما كنت أصنع ، فاحتملوه ، فشدوه على
البعير ، ولم يشكروا أنى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير ، فانطلقوا به ، فرجعت إلى
المسكر وما فيه من داع ولا مجيب . قد انطلق الناس .

• • •

(١) ظفار : مدينة باليمن .

فتلفت بجلبابي ، ثم اضطجعت في مكاني ، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى ، فوالله إني اضطجعت إذ مر بي صفوان بن المطلب السلمي ، وقد كان يخاف عن المسكر لبعض حاجته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى ، فأقبل حتى وقف على - وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب - فلما رأيته قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظمينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا متلفة في ثيابي ، قال : ما خافك برحمتك الله ؟ قالت : فما كلمته ، ثم قرب البعير ، فقال : اركبني ، واستأخر عني . قالت : فركبت ، وأخذ برأس البعير ، فانطلق مريماً ، يطالب الناس ؛ فوالله ما أدر كنا الناس ، وما افتقدت حتى أصبحت . ونزل الناس ، فلما اطمانوا طلع الرجل بقود بي البعير ، فقال أهل الإفك ما قالوا ، فاضطرب المسكر ، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك .

ثم قدمنا المدينة ، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولا يبلغني من ذلك شيء ، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى أبوي ، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً ، إلا أنني قد أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض لطفه بي ، كنت إذا اشتكيت رحنى ، ولطف بي ، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك ، فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل على وعندي أمي تمرضني ، قال : كيف تبيكم ، لا يزيد على ذلك ، حتى وجدت في نفسي ، فقلت : يا رسول الله ، حين رأيت ما رأيت من جفاته لي : لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي ، فرضتني ؟ قال : لا عليك . فانتقلت إلى أمي ، ولا علم لي بشيء مما كان ، حتى نقيت من وجمي بعد بضع وعشرين ليلة . وكنا قوماً عرباً ، لا نتخذ في بيوتنا هذه السكف التي تتخذها الأعاجم ، نفاقها ونسكرها ، إنما كنا نذهب في فصح المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن

كل ليلة في حوائجهم ، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ، ومعى أم مطح بنت
أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وكانت أمها خالة أبي بكر الصديق رضي الله
عنه ، فوالله إنها لتشي معي إذ عثرت في مرطها ، فقالت : تس مطح ، قلت :
بئس امرأته ما قالت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرأ ، قالت : أو ما بلغت
الخير يا بنت أبي بكر ؟ قلت : وما الخير ؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل
الإفك ، قالت : قلت : أو قد كان هذا ؟ قالت : نعم والله لقد كان . قالت :
فوالله ما قدرت على أن أنفي حاجتي ، ورجعت . فوالله ما زلت أبكي حتى
ظننت أن البكاء سيهدع كبدي ، وقالت لأبي : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما
تحدثوا به ، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً . قالت : أي بنية ، خفتي عليك
الشان ، فوالله لقد كانت امرأة حسنة ، عند رجل يحبها . لها ضائر ، إلا كثرن
وكثر الناس عليهما . قالت : وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس
مخطبهم ولا أعلم بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، ما بال
رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا
خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من
بيوتى إلا وهو معي . وكان كبير ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول ، في
رجال من الخزرج ، مع الذي قال مطح وحنه بنت جعش ، وذلك أن أختها
زينب بنت جعش كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن من
نساء امرأة تناصبن^(١) في المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله تعالى
بدينها ، فلم تقل إلا خيراً ، وأما حنة بنت جعش ، فأشاعت من ذلك ما أشاعت
تضادني لأختها ، فشقيت بذلك .

• • •

(١) تناصبن : تناوض .

فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاع المقالة ، قال أسيد بن حضير :
يا رسول الله ، إن يكونوا من الأوس نكفهم ، وإن يكونوا من إخواننا
من الخزرج ، فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم ، قالت : فقام
سعد بن عباد - وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً - فقال : كذبت لعمر الله ،
لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من
الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . فقال أسيد : كذبت لعمر الله ،
ولكنك مدافق ، تجادل عن المنافقين ، وتأوّر الناس ، حتى كاد يكون بين
هذين الحيين من الأوس والخزرج شر . وزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل
على . فدعا على بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وأسامة بن زيد ، فاستشارهما ،
فأما أسامة فأتى على خيراً وقاله ، ثم قال : يا رسول الله ، أهلك ولا نعلم منهم
إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل .

وأما على فإنه قال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على
أن تستغاف ، ولسن الجارية ، فإنما صدقتك . فدعا رسول الله صلى الله عليه
وسلم بريرة لبسها ، قالت : فقام إليها على بن أبي طالب ، فضربها ضرباً شديداً ،
ويقول : اصدقني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فتقول : والله ما أعلم
إلا خيراً ، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً ، إلا أني كنت أعجب عجبتي ،
فأمرها أن تحفظه ، فقام عنه ، فتأتى الشاة فتأكله .

ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعند أبيها ، وعند امرأته من
الأنصار ، وأنا أبكي ، وهي تبكي معي ، فجاس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : يا عائشة ،
إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فأتى الله ، وإن كنت قد عرفت سوء ما

بما يقول الناس ، فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده . فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك ، فقلص دمي ، حتى ما أحس منه شيئاً ، وانتظرت أبوإي أن يجيبا عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يتكلم .

قالت : وايم الله ، لأنا كنت أحترق نفسى ، وأصفر شأننا من أن ينزل الله فى قرآننا يقرأ به فى المساجد ، ويصلى به ، ولكننى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئاً يكذب به الله عنى ، لما يعلم من برأتى ، أو يخبر خبراً ، فأما قرآن ينزل فى ، فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك . قالت : فلما لم أرا أبوإي يحكى ، قلت لهما : ألا نبجيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالا : والله ما ندرى بماذا نجيبه !

قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام ، فلما أن استعجما على ، استعبرت فبكيت ، ثم قلت : والله لا أنوب إلى الله عما ذكرت أبداً ، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم أنى منه بريئة ، لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى ، ثم التفت اسم بهقوب فما أذكره ، فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) .

• • •

فوالله ما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تنفشاء من الله ما تنفشاء ، فسجى بشوبه ، ووضع له وسادة من آدم تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فرغت ولا باليت ، قد عرفت أنى بريئة ، وأن الله عز وجل غير ظالمى ، وأما أبوإي ، فوالذى نفس عائشة بيده . مامرى من

رسول الله صلى الله عليه وسلم حق ظننت لتخرجن أنفسهما ، فرقا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس .

ثم جرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس ، وإنه ليتعذر منه مثل الجمان في يوم شاتٍ ، فجعل يمسح العرق عن جبينه ، ويقول : أبشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله برأيتك ؛ قالت : قلت : بحمد الله . ثم خرج إلى الناس ، فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ، ثم أمر مسطح بن أثانة ، وحسان بن ثابت ، وحننة بنت جحش ، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة ، فضربوا حدهم .

فلما نزل هذا في عائشة ، وفيمن قال لها ما قال ، قال أبو بكر ، وكان ينفق على مسطح لقرايته وحاجته : والله لا أتق على مسطح شيئا أبداً ، ولا أنفعه بضع أبداً ، بعد الذي قال لعائشة ، وأدخل علينا ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالسَّائِكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْنُوا وَلْيُصَفِّحُوا إِلَّا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١).

فقال أبو بكر : بلى والله : إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً .

وكانت عائشة تقول : لقد سئل عن أبي المفضل فوجدوه رجلاً حصوراً ، ما يأتي النساء ، ثم قتل بعد ذلك شهيداً .

٧٢ — حديث الخديبية

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة شهر رمضان وشوالاً ،
وخرج في ذي القعدة معتمراً ، لا يريد حرباً .

واستعمل على المدينة نائلة بن عبد الله الليثي ، واستنفر العرب ومن حوله
من أهل البوادي من الأعراب ، لينخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش الذي
صنعوا ، أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، فأبطأ عليه كثير من
الأعراب ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين
والأنصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى وأحرم بالعسرة ، ليأمن
الناس من حربه ، ولئلا يلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ، معظماً له .

وساق معه الهدى سبعين بدنة ، وكان الناس أربعمئة رجل ، فكانت كل
بدنة عن عشرة نفر ، حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان^(١)
لقيه بشر بن سفيان السلمي ، فقال : يا رسول الله ، هذه قريش ، قد سمعت
بمسيرك ، فنخرجوا معهم العوذ المطافيل^(٢) ، قد لبسوا جلود الثور ، وقد
نزلوا بذى طوى^(٣) ، يماهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن
الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم^(٤) . فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : يا أوبى قريش ! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين
سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم
دخلوا في الإسلام وافرغوا ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ،

(١) عسفان: بين الجعفة ومكة .

(٢) العوذ المطافيل : الذئب والحيات .

(٣) ذى طوى : موضع قرب مكة .

(٤) كراع الغميم : موضع بين مكة والمدينة .

فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه
الساقة^(١) ؛ ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم
بها ؟

قل رجل من أسلم : أنا يا رسول الله ، فسلك بهم طريقاً وعراً بين
شعاب ، فلما خرجوا معه - وقد شن ذلك على المسلمين - قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : قولوا نستغفر الله ونتوب إليه . فقالوا ذلك . فقال :
والله إنها لحطة^(٢) التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها .

• • •

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، فقال : اسلكوا ذات
اليمين ، فسلك الجيش ذلك الطريق ، فلما رأت خيل قريش غبار الجيش ، قد
خالفوا طريقهم ، رجعوا راكضين إلى قريش ، وخرج رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، حتى إذا سلك في ثنية المزار بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت^(٣)
الناقة ، قال : ما خلأت ، وما هو لها مخاق ، ولكن حبسها حابس الفيل
عن مكة ، لا تدعوني قريش لليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم ، إلا
أعطيتمهم إياها . ثم قال للناس : انزلوا ، قيل له : يا رسول الله ، ما بالوادي
ماء نزل عليه ، فأخرج سهواً من كنانته ، فأعطاه رجلاً من أصحابه ، فنزل
به في قلب من تلك القلب ، ففرزه في جوفه ، فبعاش بالرواء حتى ضرب الناس
عنه بسطن .

فلما اطمان رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بديل بن ورقاء الخزاعي ،
في رجال من خزاعة ، فكلموه وسألوه : ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم

(١) الساقة : صفعة الضيق . (٢) يريد قوله تعالى لبني إسرائيل : « وتولوا حطة » .

(٣) خلأت : بركت .

يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمته . ثم قال لهم نحواً عما قال
لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش ، إنكم تعجلون على
محمد ، إن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً هذا البيت ، فاتهموهم وجبهوهم ،
وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً ، فوالله لا بدخلها علونا عنوة أبداً ، ولا
تحدث بذلك عنا للعرب .

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم
مقبلاً قال : هذا رجل غادر . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم وكلمه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نحواً عما قال لبديل وأصحابه ،
فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة ، وكان يومئذ سيد الأحابيش ، فلما
رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا
الهدى في وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي
في قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ،
ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إعظاما لما رأى ، فقال لهم
ذلك . فقالوا له : اجلس : فإنما أنت أمرأى لا علم لك .

* * *

ثم إن الحليس غضب عند ذلك ، وقال : يا معشر قريش ، والله ما على
هذا حالناكم ، ولا على هذا عاقبتناكم ، أبعد عن بيت الله من جاء معظماً
له ؟ والهدى نفس الحليس بيده ، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن
بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له : مه ، كف عنا يا حليس ، حتى تأخذ
لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عروة بن مسعود الثقفي ،
فقال : يا معشر قريش ، إني قد رأيت ما ياتي منكم من بعثتموه إلى محمد إذ جاءكم ،
من التعميف وسوء الانظ ، وقد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني من
قومي ، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي ، قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم ،
نخرج حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس بين يديه ، ثم قال : يا محمد ،
أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لنفضها بهم ، إنها قريش قد
خرجت معها العمود المطافيل ، قد لبسوا جلود النور ، يعاهدون الله لا تدخلها
عليهم عنوة أبداً ، وإيم الله ، لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً . وأبو بكر
الصديق خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد ، فقال : أأنحن ننكشف عنه ؟
قال : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة ، قال : أما والله لو لا بد
كانت لك عندي لكافأنتك بها ، ولكن هذه بها ، ثم جعل يتناول لحية رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس
رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديد ، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، قبل ألا تصل إليك ، فيقول عروة : ويحك ! ما أظلمك
وأغلظك ! قال : فبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عروة : من هذا
يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة ، قال : أي غدر ! وهل غلظت
سوءتك إلا بالأمس ؟

أراد عروة بقوله هذا أن للمغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر
رجلا من بني مالك ، من ثقيف ، فتهايج الحيان من ثقيف : بنو مالك رهط
المقتولين ، والأحلاف رهط للمغيرة ، فودي عروة للمقتولين ثلاث عشر دية

وأصلح ذلك الأمر .

فكلّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو مما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً .

• • •

وقد رأى عروة ما يصنع به أصحابه فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلّمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعا خراش بن أمية الخزاعي ، فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له ، يقال له : الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء به . فمقروا به جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، فخلوا سبيله ، حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم ، أو خمسين رجلاً ، وأمروهم أن يطيفوا بمسكّر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً ، فأخذوا أخذاً ، فأنى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنفا عنهم ، وخلي سبيلهم ، وقد كانوا رموا في مسكّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والتبل .

ثم دعا عمر بن الخطاب ، ليبعثه إلى مكة ، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء به ، فقال : يا رسول الله ، إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدى ابن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها ، وغلفني عليها ، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم

أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ، ومعظماً لحرمته . فخرج عثمان إلى مكة ، فلقه أبان بن سعيد بن العاص ، حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره ، حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف ، قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم . واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والاسطون أن عثمان ابن عفان قد قتل .

٧٣ - بيعة الرضوان

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ، حين بلغه أن عثمان قد قتل : لا نبرح حتى نناجز القوم . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على ألا نفر .

فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها ، إلا الجعد بن قيس ، أخو بني سلمة ، فكان جابر ابن عبد الله يقول : والله لكانى أنظر إليه لاصفاً يربط فاقتة ، يستتر بها من الناس .

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذي ذكر من أمر
ثمان باطل .

٧٤ - الهدنة

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو ، أخا بني عامر بن لؤي ، إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له : إيت محمداً فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن
يرجع عنا عامه هذا : فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً .
فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً ، قال :
قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل . فلما انتهى سهيل بن عمرو
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تكلم ، فأطال الكلام ، وتراجعا ، ثم
جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر ، ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب ،
فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا
بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام
نعطى الدنيا في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزه (١) ، فإني أشهد أنه رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ألسنت برسول الله ؟ قال : بلى ،
قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى .
قال : فعلام نعطى الدنيا في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ،
ولن يضيقني .

فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق ، من

(١) الزم غرزه : الزم أمره .

الذى صنعت يومئذ ، مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن
يكون خيراً .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضوان الله عليه ،
فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : لا أعرف هذا .
ولكن اكتب : باسمك اللهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
اكتب باسمك اللهم ، فكتبها . ثم قال : اكتب : هذا ما صالح عليه
محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله
لم أقاتلك ، ولكن اكتب : اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، سهيل بن عمرو ،
اصطلحا على وضع الحرب من الناس عشر مئةين يأمن فيهن الناس ، ويكف
بعضهم عن بعض ، على أنه من أنى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده
عليهم ، ومن جاء قريشاً عن مع محمد لم يردوه عليه ، وأنه من أحب أن يدخل
في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم
دخل فيه .

فتوالت خراعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتوالت بنو بكر ،
فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم ، وإنك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل
علينا مكة ، وإنه إذا كان عام قابل ، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك ، فأثقت
بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها .

قد بعثته قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشد العقد ، ويزيد في المدة ،
وقد ذهبوا الذي صنعوا . فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء ، قال : من أين
أقبلت يا بديل ؟ وغلن أنه قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : تسيرت
في خزاعة في هذا الساحل ، وفي بطن هذا الوادي ، قال : أو ماجئت محمداً ؟
قال : لا . فلما راح بديل إلى مكة ، قال أبو سفيان : لئن جاء بديل المدينة
لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحته ، فأخذ من بعيره ما غفقه ، فرأى فيه النوى ،
فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ،
فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان . فلما ذهب ليجلس على فراش رسول
الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه ، فقال : يا بنية ، ما أدرى أرغبت بي من هذا
الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله
عليه وسلم . قال : والله لقد أصابك يا بنية بدي شر ، ثم خرج حتى أتى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلمه
أن يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن
الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
فوالله لو لم أجد إلا القدر لجاهدكم به .

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وعنده فاطمة بنت
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي عنها ، وعندها الحسن بن علي ، غلام يدب بين
يديها ، فقال : يا علي ، إنك أمس القوم بي رحماً ، وإنني قد جئت في حاجة ،
فلا أرجع كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى رسول الله ، فقال : ويحك يا أبا سفيان !
والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ، ما نستطيع أن نكلمه فيه .
فالتفت إلى فاطمة فقال : يا بنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجبر بين

ومحمود بن مسلمة ، ومكرز بن حفص ، وهو يومئذ مشرك ، وعلى بن أبي طالب ،
وكتب ، وكان هو كاتب الصحيفة .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلح قدم إلى عدي بن زهرة ، ثم جالس فداق
رأسه . فلما رأى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نحر وحلق ، تواثبوا
بمنعرون وبخاقون .

• • •

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهه ذلك قافلا ، حتى إذا
كان بين مكة والمدينة ، نزلت سورة الفتح . فافتتح في الإسلام فتح قبله كان
أعظم منه ، وإنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت
الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتفوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ،
فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك الستين مثل
من كان في الإسلام قبل ذلك ، أو أكثر .

• • •

٧٤ - فزوة خيبر

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، حين رجع من الحديبية ،
ذا الحجة وبعض الحرم ، ثم خرج في بقية الحرم إلى خيبر .

واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي ، ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب
رضي الله عنه ، وكانت بيضاء .

ويقول أنس بن مالك : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا
قوماً لم يفر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار .
فنزّلنا خيبر ليلاً ، فهات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا أصبح لم يسمع
أذاناً ، فركب وركبنا معه ، فركبت خلف أبي طلحة ، وإن قدمي لتمس قدم

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستقبلنا همال خير غادين ، قد خرجوا بمساحيقهم
ومكانتهم ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش ، قالوا : محمد
والنخيس معه ! فادبروا هراباً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ،
خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين !

وتدلى^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال يأخذها مالا مالا ، ويفتحمها
حصناً حصناً ، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم سبايا ، منهم : صفية
بنت حيي بن أخطب وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وبنى عم لها ،
فاصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية لنفسه .

وكان دحية بن خليفة الكلبي قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية ،
فلما اصطفاها لنفسه ، أعطاه ابنتي حمها ، وفشت السبايا من خير في المسلمين .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة بن الربيع ، وكان عنده كنز بني النضير ،
فسأله عنه ، فجعده أن يكون برف مكانه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
رجل من يهود ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني رأيت كنانة يطيف بهذه
الخربة كل غداة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة : أرايت إن وجدناه
عندك : أأنتك ؟ قال : نعم . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخربة
فعمرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقي ، فأبى أن يؤديه ،
فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام ، فقال : عذبه حتى
تستأصل ما عنده ، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه ،
ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محمد بن مسلمة ، فضرب عنقه بأخيه
محمود بن مسلمة .

(١) تدلى : أخذ الأدنى فالأدنى .

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذت له زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم ، شاة مصلية^(١) ، وقد سألت : أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل لها : القراع ، فأكثرتها فيها اللحم ، ثم سمحت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تناول القراع ، فلاك منها مضغة ، فلم يسفها ، ومعه بشر بن البراء ابن معرور ، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها ، ثم قال : إن هذا المعظم ليخبرني أنه مسوم ، ثم دعا بها ، فاعترفت ، فقال : ما حالك على ذلك ؟ قالت : باتت من قوى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات بشر من أكله التي أكل .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير ، قذف الله الرعب في قلوب أهل فذك ، حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خير ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبصالحونه على النصف من فذك ، فقدمت عليه رسلهم بخير ، أو بالطائف ، أو بعد ما قدم المدينة ، فقبل ذلك منهم ، فكانت فذك لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة ، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب .

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح خير جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه والتزمه وقال : ما أدري بأيهما أنا أسر : بفتح خير أم بقدوم جعفر ؟

٧٦ - عمرة القضاء

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من خيبر، أقام بها شهرى ربيع وجاديين ورجباً وشعبان ورمضان، وشوالاً، يبيت فيما بين ذلك من خزوه وسراياه صلى الله عليه وسلم، ثم خرج في ذى القعدة في الشهر الذى صده فيه المشركون معتبراً عمرة القضاء مكان عمرته التى صدوه عنها. واستعمل على المدينة عوف بن الأضبط الديلى، ويقال لها : عمرة القصاص، لأنهم صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذى القعدة في الشهر الحرام من سنة ست، فاقتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم. فدخل مكة في ذى القعدة وفي الشهر الحرام الذى صدوه فيه، من سنة سبع.

وخرج معه المسلمون ممن كان صد معه في عمرته تلك، وهى سنة سبع، فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه، وتحدثت قريش بينها أن يحدوا وأصحابه في عسرة وجهد وشدة، وصنفوا له عند دار الندوة، لينظروا إليه، وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد اضطجع بردائه، وأخرج عضده اليمنى، ثم قال : رحم الله امرأ أرام اليوم من نفسه قوة، ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واراها البيت منهم واستلم الركن اليمانى، مشى حتى يستلم الركن الأضود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف، ومشى سائرهما فكان ابن عباس يقول : كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما صنعها لهذا الحى من قريش لئلا يلمه عنهم، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها، ففقت السنة بها.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة بنت الحارث في سفره ذلك وهو حرام، وكان الذى زوجه إياها العباس بن عبد المطلب، وكانت

جعلت أمرها إلى اختها أم الفضل ، وكانت أم الفضل تحت العباس ، فجعلت
أم الفضل أمرها إلى العباس ، فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ،
وأصدقها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمئة درهم .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثاً ، فأتاه حويطب بن عبد العزى
في نفر من قريش ، في اليوم الثالث ، وكانت قريش قد وكلته بإخراج رسول
الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، فقالوا له : إنه قد انقضى أجلك ، فأخرج عنا .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما عليكم لو تركتموني فأمرست بين أظهركم ،
وحصننا لكم طعاماً فحضرتموه ؟ قالوا : لا حاجة لنا في طعامك ، فأخرج عنا .
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة ،
حتى أتاه بها بسرف ، فبقي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هنالك ، ثم انصرف
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في ذي الحجة ، فأقام بها بقية
ذي الحجة ، والمحرم وصفر وشهر ربيع .

٧٧ - غزوة مؤتة

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة إلى مؤتة ، في جادى الأولى
سنة ثمان ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبي
طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس .
فتجهز الناس ثم تهيأوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ،
ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلموا عليهم ، فلما ودع
عبد الله بن رواحة من ودع ، من أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بكى ،

فقالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة ؟ فقال : أما والله ما بي حب الدنيا ولا عصابة بكم ، ولكفى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله عز وجل ، يذكرو فيها النار ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ ، فليست أدرى كيف لي بالصدور بعد الورود ؟ فقال المسلمون : صعبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين . ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعهم ، ثم مضوا حتى تزلوا معان ، من أرض الشام ، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب ، من أرض البلقاء ، في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من نحم وجذام والذين وجهاء ويلي ، مائة ألف منهم ، فلما بلغ ذلك المسلمون أقاموا على معان ليلتين ، يفكرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنخبره بعدد عدونا ، فلما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره ، فنمضي له . فشجع الناس عبد الله بن رواحة ، وقال : يا قوم ، والله إن التقي تكمهون ، التقي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما تقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما تقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنا همى إحدى الحسين : إما ظهرو ، وإما شهادة . فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة .

فمضى الناس ، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء ، لقيتهم جموع هرقل ، من الروم والعرب ، بقرية من قرى البلقاء ، يقال لها : مشارف ، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها : مؤتة ، فالتقى الناس عندها ، فتعباً لم المسلمون ، فجهلوا على ميمتهم رجلاً من بني عذرة ، يقال له : قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار ، يقال له : عباية بن مالك ، ثم التقي الناس واقتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة بإرادة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شاط^(١) في رماح القوم .

(١) شاط : سال دمه فهلك .

ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها ، حتى إذا ألبه القتال ، انتقم عن فرس له
عقراء فمقرها ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين
عقر في الإسلام ، أخذ الأراء يمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه
بمضديه حتى قتل رضي الله عنه ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك
جناتين في الجنة يطير بهما حيث شاء .

فلما قتل جعفر ، أخذ عبد الله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها ، وهو على
فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد ، ثم نزل . فلما نزل أتاه
ابن عم له بعرق من لحم ، فقال : شد بهذا صلبك ، فإنك قد لقيت في أيامك
هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ، ثم اتهمش منه نهشة ، ثم سمع الخطمة^(١) في ناحية
الناس ، فقال : وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه من يده ، ثم أخذ سيفه فتقدم ،
فقاتل حتى قتل .

ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم ، أخو بني العجلان ، فقال : يا معشر
المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلع
الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ، ثم
انحاز وانحيز عنه ، حتى انصرف بالناس .

ولما أصيب القوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخذ الراية
زيد بن حارثة ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها حتى
قتل شهيداً ، ثم صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تغيرت وجوه
الأنصار ، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ، ثم قال :
ثم أخذها عبد الله بن رواحة ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم قال : لقد
رفعوا إلى في الجنة ، فيما يرى النائم ، على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير

(١) الخطمة : زحام الناس .

عبد الله بن رواحة ازوراراً عن -ريري صاحبيه ، قلت : عم هذا ؟ فقول لي :
مضيا ، وتردد عبد الله بعض التردد ، ثم مضى .

* * *

ولما دنوا من حول المدينة ، تقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ،
واتيهم الصبيان يشتدون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل مع القوم على
دابة ، فقال : خذوا الصبيان فاحلوم ، وأعطوني ابن جعفر ، فأتى بعبد الله ،
فأخذه فحمله بين يديه ، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون :
يا فرار ، فررتم في سبيل الله ! فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليسوا
بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

* * *

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بثه إلى مؤنة جمادى الآخرة
ورجباً .

* * *

٧٨ - فتح مكة :

ثم إن بنى بكر بن عبدمناة بن كنانة عدت على خزاعة ، وهم على ماء
لهم بأسفل مكة ، وكان الذي هاج ما بين بنى بكر وخزاعة ، أن رجلاً من بنى
الحضرمي ، خرج تاجراً ، فلما توسط أرض خزاعة ، عدوا عليه فقتلوه ، وأخذوا
ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه ، فبينما بنو بكر وخزاعة
على ذلك حجز بينهم الإسلام ، وتشاغل الناس به ، فلما كان صلح الحديبية بين
رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، كان فيما شرطوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم وشرط لهم ، أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله
عليه وسلم وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم
فليدخل فيه ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد

رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده . فلما كانت الهدنة اغتصبها بنو الدئل ،
من بني بكر من خزاعة ، وأرادوا أن يصيبوا منها ثأراً ، ورفدت بني بكر
قريش بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً ، حتى حازوا
خزاعة إلى الحرم .

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ،
ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق ،
بما استحلوا من خزاعة - وكانوا في عهده وعهده - خرج عمرو بن سالم
الغزاعي ، أحد بني كعب ، حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة -
وكان ذلك مما حاج فتح مكة - فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني
الناس ، فقال :

يا رب إني ناشد محمدا حاف أبينا وأبيه الأتلا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نصرت يا عمرو بن سالم . ثم عرض
لرسول الله صلى الله عليه وسلم عنان من السماء ، فقال : إن هذه السحابة لتستحل
بمنصر بني كعب .

• • •

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله
صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأخبروه بما أصيب منهم ، وبظاهرة قريش بني
بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم للناس : كأنكم بآبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيد في المدة .

ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه حتى اتوا أبا سفيان بن حرب بمحلفان ،

قد بعثته فريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشد المقد ، ويزيد في المدة ، وقد رهبوا الذي صنعوا . فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء ، قال : من أين أتيت يا بديل ؟ وخن أنه قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : تسيرت في خزاعة في هذا الساحل ، وفي بطن هذا الوادي ، قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا . فلما راح بديل إلى مكة ، قال أبو سفيان : لئن جاء بديل للمدينة لقد علف بها النوى ، فأنى مبرك راحته ، فأخذ من بصره ما فقهه ، فرأى فيه النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان . فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه ، فقال : يا بنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : والله لقد أعيايك يا بنية بعدى شر ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلمه أن يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد إلا القدر لجأهتكم به .

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي عنها ، وعندها الحسن بن علي ، فلام بدب بين يديها ، فقال : يا علي ، إنك أمس القوم بي رحماً ، وإنى قد جئت في حاجة ، فلا أرجع كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى رسول الله ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ، والله تطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال : يا بنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجيبني

الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ بنى ذاك أن يحبر بين الناس ، وما يحبر أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : يا أبا الحسن ، إني أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى . قال : والله ما أعلم لك شيئاً يعنى عندك شيئاً ، ولسكنك سيد بنى كنانة ، فقم فاجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك ، قل : أو ترى ذلك معنياً عنى شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال : أيها الناس ، إني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق . فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله ما رد على شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة ، فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت عليّاً فوجدته ألين القوم ، وقد أشار على بشىء صنعته ، فوالله ما أدرى هل يعنى ذلك شيئاً أم لا ؟ قالوا : ويلاك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، فما يعنى عندك ما قلت ، قال : لا والله ، ما وجدت غير ذلك .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجزاز ، وأمر أهله أن يجهزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضى الله عنها ، وهى تحرك بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أى بنية : أأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجهزوه ؟ قالت : نعم ، فتجهز ، قال : فأين تريه يريده ؟ قالت : لا والله ما أدرى . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد والتهيؤ ، وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها . فتجهز الناس .

ولما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى مكة ، كتب حاطب ابن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمر ، في السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جملاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ، ثم قتلت قرونها ، ثم خرجت به . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبي طالب والزبير ابن العوام ، رضي الله عنهما ، فقال : أدركا امرأة قد كذب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش ، يحذرهم ما قد أجمعناه في أمرهم . فخرجا حتى أدركاهما بالخطبة^(١) فاستنزلاها ، فالتما في رحلها ، فلم يجدوا شيئاً ، فقال لها على ابن أبي طالب : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أولئكشفتك . فلما رأت الجلد منه ، قالت : أعرض ، فأعرض ، فقلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، قدفعته إليه ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً ، فقال : يا حاطب ، ما حالك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، أما والله إني لأؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدت ، ولكنني كنت امرأة ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعني فلا أضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما بدريك يا امرئ ، لعل الله قد أطلع إلى أصعاب بدر يوم بدر ؟ فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم .

• • •

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره ، واستخلف على المدينة
أبا رهم ، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خالف الغفاري ، وخرج لعشر مضيت
من رمضان ، فصام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصام الناس معه ، حتى
إذا كان بالكديد ، بين عتفان وأمعج ، أفطار . ثم مضى حتى نزل مر الظهران
في عشرة آلاف من المسلمين ، وأوعب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
للمهاجرين والأنصار ، فلم يتخلف عنه منهم أحد .

فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الظهران ، وقد هميت الأخبار
عن قريش فلم يأتهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدرون
ما هو فاعل . وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ،
وبديل بن ورقاء ، يتحسسون الأخبار ، ويتفكرون هل يجسدون خبراً ، أو
يسمعون به . وقد كان العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله صلى الله عليه
وسلم ببعض الطريق ، وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ،
وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، قد اتقيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً
بنيق المقاب ، فيما بين مكة والمدينة ، فالتما الدخول عليه ، فكلمته أم سلمة
فيهما ، فقالت : يا رسول الله ، ابن عمك وابن عمك وصهرك . قال : لا حاجة
لي بهما ، أما ابن عمي فميتك عرضي ، وأما ابن عمي وصهرى فهو الذي
قال لي بمكة ما قال . فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبي سفيان بني له ،
فقال : والله ليأذن لي أو لأخذن بيدي بني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى
نموت عطشاً وجوعاً . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لهما ،
ثم أذن لهما ، فدخلتا عليه فأمهما .

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذي طوى ، وقف على راحلته معتبراً بشقة برد حبرة حمراء . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمته الله به من الفتح ، حتى إن مشنونه ليسكاد بحس واسطة الرجل .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرق جيشه من ذي طوى ، أمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كدى ، وكان الزبير على الجنبية اليسرى ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فدخل من الليط ، أسفل مكة ، في بعض الناس ، وكان خالد على الجنبية اليمنى ، وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب . وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ، ينصب لمكة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذاخر ، حتى نزل بأعلى مكة ، وضربت له هنالك قبته .

ثم إن صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، كانوا قد جمعوا ناسا بالخدمة ليقاتلوا ، وقد كان حسان بن قيس بن خالد ، أخو بني بكر ، يمد سلاحا قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويصلح منه ، فقالت له امرأته : لماذا تمد ما أرى ؟ قال : لحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أراه يقوم لحمد وأصحابه شيء ، قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم شهد الخدمة مع صفوان وسهيل وعكرمة . فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن

الوليد ، ناوشوهم شيئاً من قتال ، فقتل كرز بن جابر ، أحد بني محارب بن فهر ، وخنيس بن خالد بن ربيعة بن أصرم ، حليف بني منقذ ، وكانا في خيل خالد بن الوليد ، فشذا عنه ، فسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً .

وأصيب من جبهة سلمة بن الليلاء ، من خيل خالد بن الوليد ، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلاً ، أو ثلاثة عشر رجلاً ، ثم انهزموا فخرج حماس منهمزماً ، حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقى على بابي ، قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الغندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
لم نهيت^(٢) خلفنا وهمهم لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

• • •

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة وأطمأن الناس ، خرج حتى جاء البيت ، فطاف به سبعمائة على راحلته ، يستلم الركن بمحجن في يده . فلما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ، فدخلها ، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استدار له الناس في المسجد ، ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده ، فقال يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء .

• • •

٧٩ - غزوة حنين

ولما سمعت هوازن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النضري . ولما سمع بهم نبي الله صلى الله عليه وسلم بعث إليهم عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق بن أبي حذرد ، فدخل فيهم فأقام فيهم ، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره الخبر . فدعا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عمر بن الخطاب ، فأخبره الخبر . فقال عمر : كذب ابن أبي حذرد . فقال ابن أبي حذرد : إن كذبتني فربما كذبت بإلحق يا عمر ، فقد كذبت من هو خير مني . فقال عمر : يا رسول الله ، ألا تسمع ما يقول ابن أبي حذرد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد كنت ضالاً فهاك الله يا عمر .

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى هوازن ليلقاهم ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً له وسلاحاً ، فأرسل إليه . وهو يومئذ مشرك . فقال : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا ، نلق فيه عدونا غداً ، فقال : صفوان : أغضباً يا محمد ؟ قال : بل عارية ومضمونة حتى تؤديها إليك ، قال : ليس بهذا بأس . فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أن يكفيهم حلها ، ففعل .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، فكانوا اثني عشر ألفاً . واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد بن أبي لهبع

ابن أمية بن عبد شمس على مكة ، أميراً على من تخلف عنه من الناس ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه يريد لقاء هوازن .

• • •

ويقول جابر : لما استقبلنا وادي حنين انحدرتنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط ، إنما نتعذر فيه انحداراً ، في حماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي ، فسكرنا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه ، وقد أجهلوا وتميثلوا وأعدوا ، فوالله ما راعنا ونحن منعطون إلا للكتائب قد شددوا علينا شدة رجل واحد ، واستمر الناس راجمين ، لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، ثم قال : أين أيها الناس ؟ علموا لي ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله . فانطلق الناس ، إلا أنه قد بقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثغر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، فلما انهزم الناس ، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جفأة أهل مكة الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الغضب .

ويقول العباس بن عبد المطلب : لما لي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بحمكة بقلته البيضاء ، وكنت امرأ حسيباً شديد الصوت ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حين رأى ما رأى من الناس : أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شيء ، فقال : يا عباس ، امرخ ، يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السرة ! فأجابوا : لبيك ! لبيك ! قال : فيذهب الرجل ليثني بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم من بعيره ، ويحلى سبيله ، فيؤم الصوت ، حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة ، استقبلوا الناس

فاقتتلوا . وكانت الدعوى أول ما كانت : يا الأَنْصار ! ثم خلصت أخيراً : بالخروج ! وكانوا صبراً عند الحرب . فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركائبه ، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون ، فقال : الآن حمى الوطيس ، والتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان ممن صبر يومئذ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان حسن الإسلام حين أسلم ، وهو آخذ بسير بقلته ، فقال : من هذا ؟ قال : أنا ابن أمك ، يا رسول الله .

ولما انهزم المشركون ، أتوا الطائف ، ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غيرة من قتيق ، وتبعته خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك في نخلة من الناس ، ولم تتبع من سلك الثنايا .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري ، فأدرك من الناس بعض من انهزم ، فساوشوه القتال ، فرمى أبو عامر بسهم فقتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ، وهو ابن عمه ، فقاتلهم . ففتح الله على يديه وهزمهم .

• • •

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر يومئذ بامرأة ، وقد قتلها خالد ابن الوليد والناس مزدحمون عايمها ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا ؟ امرأة قتلتها خالد ابن الوليد : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من معه : أدرك خالداً قتل له : إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عفيفاً^(١) .

(١) العفيف : الأجير .

٨٠ - هزوة الطائف

ولما قدم قل ثقيف الطائف ، أغلقوا عليهم أبواب مدينتها ، وصنعوا الصنائع للقتال ، ثم صار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف حين فرغ من حنين ، فملك رسول الله صلى الله عليه وسلم على نخلة الجفانية ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى نزل قريباً من الطائف ، فضرب به مسكوه ، قتل به ناس من أصحابه بالنبل ، وذلك أن المسكر اقترب من حائط الطائف ، فكانت النبل تنالهم ، ولم يقدر للسلون على أن يدخلوا حائطهم ، أغلقوه دونهم ، فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل ، وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم ، فحاصروهم بضماً وعشرين ليلة ، ومعه امرأتان من نسائه ، إحداهما أم سلمة بنت أبي أمية ، فضرب لهما قبتين ، ثم صلى بين القبتين ، ثم أقام . فلما أسلمت ثقيف بنى على مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية مسجداً ، وكانت في ذلك للسجدة سارية ، فيما يزعمون فحاصروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقاتلهم قتالاً شديداً ، وتراموا بالنبل .

ورماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنجنيق ، حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبابه ، ثم زحفوا بها إلى جدران الطائف ليحرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سلك الحديد عمدة بالنار فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أجناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون .

ثم إن خويلد بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوتيس السلمية ، وهي امرأة عثمان ، قالت : يا رسول الله ، أعطني إن فتح الله عليك الطائف على

بادية بنت غيلان بن مظعون بن سلمة، أو حلى الفارعة بنت عقيل ، وكانت
من أحلى نساء ثقيف ، فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها :
وإن كان لم يؤذن لي في ثقيف يا خويلة ؟ فخرجت خويلة ، فذكرت ذلك
لعمر بن الخطاب ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله :
ما حديث حديثيه خويلة ، زعمت أنك قلته ؟ قال : قد قلته ، قال : أو ما أذن لك
فيهم يا رسول الله ؟ قال : لا . قال : أفلا أؤذن بالرحيل ؟ قال : بلى . قال :
فأذن هم بالرحيل .

وتزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامة من كان محامراً
بالطائف عبيد ، فأسلموا ، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ولما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم في أولئك العبيد ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : لا ، أولئك عتقاء الله .

• • •

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف عن الطائف فيمن
معه من الناس ، ومعه من هوازن سي كثير . وقد قال له رجل من أصحابه
يومئذ عن ثقيف : يا رسول الله ، ادع عليهم ، فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : اللهم اعد ثقيفاً واثب بهم .

ثم إن وفد هوازن أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أسلموا ، فقالوا :
يا رسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من الليلاء ما لم يخف عليك ،
فامن علينا ، من الله عليك . وقام رجل من هوازن فقال : يا رسول الله ،
إنما في الحظائر هانك وخالانك وحواضك اللاتي كن يكفلنك ، ولو أناملعننا^(١)

(١) ملعننا ، أرضنا .

فعارض بن أبي شمر ، أو النعمان بن النذر ، ثم نزل بنابثل الذي نزلت به ،
رجونا عطفه وعائده علينا ، وأنت خير المكفولين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم
أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا
نساءنا وأبنائنا ، فهو أحب إلينا . قال لهم : أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب
فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، قصوموا قسولوا : إنا نستشفع
برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ، في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيك
عند ذلك ، وأسأل لكم . فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس
الظهر ، قاموا ، فتكلموا بالذي أمرهم به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
وأما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون : وما كان لنا
فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من رد سبايا حنين إلى أهلها ،
ركب ، واتبه الناس بقولون : يا رسول الله ، أقسم علينا فيثنا من الإبل
والغنم ، حتى ألبثوه إلى شجرة ، فاختطف منه رداه ، فقال : أدوا على ردائي ،
أيها الناس ، فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمة ائتمته عليكم ،
ثم ما أنفتموني بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً ، ثم قام إلى جنب بئر ، فأخذ وبرة
من صنائه ، فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها ، ثم قال : أيها الناس ، والله
مالي من فيثكم ولا هذه الوبرة إلا الخس ، والخس مردود عليكم .

وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرفاً
من أشرف الناس ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم .
ولما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا ،
في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى
من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقد لقي والله
رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه . فدخل عليه سعد بن عباد ، فقال :
يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ،
لما صنعت في هذا الذى أصبت ، قست في قومك ، وأعطيت عطايا
عظماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحى من الأنصار منها شيء . قال : فأين
أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي . قال : فاجمع
لى قومك في هذه الحظيرة . فخرج سعد ، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء
رجال من المهاجرين فتركهم ، فدخلوا وجاء آخرون فردم . فلما اجتمعوا له
أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار ،
ما قاله بلغتني عنكم ، وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللاً
فهذاكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ،
الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : ألا تحببوننى يا معشر الأنصار ؟ قالوا :
بماذا نحببك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل . قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : أما والله لو شتمت قلتكم ، فلصدقتكم ولصدقتكم : أنيئتكم مكذباً فصدقناك :
ونخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسكناك ، أوجدتم بامعشر
الأنصار في أنفسكم في لعنة^(١) من الدنيا تأقت بها قوماً ليسلوا ، ووكلتكم

(١) اللعنة . بفتح الخاء نائمة ، شبه بها زمرة الدنيا ونعيمها .

إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون بامعشر الأنصار ، أن يذهب للناس بالشاة والبعير ،
وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت
امراً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب
الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخصلوا لحامهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحفظاً ،
ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا .

• • •

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجمرانة معترراً ، وأمر ببقايا
النبي فعبس بمجعة ، بناحية مر الظهران ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم
من هجرته انصرف راجعاً إلى المدينة ، واستخلف عتاب بن أسيد على مكة ،
وخلف معه معاذ بن جبل ، يفتي الناس في الدين ، ويعلمهم القرآن ، واتبع رسول
الله صلى الله عليه وسلم ببقايا النبي .

• • •

ولما استعمل النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل
يوم درهماً ، فقام فخطب للناس ، فقال : أيها الناس ، أجاج الله كبد من جاع
على درهم ، فقد رزقني رسول الله صلى الله عليه وسلم درهماً كل يوم ، فليست
بي حاجة إلى أحد .

وكانت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة ، فقدم رسول
الله صلى الله عليه وسلم المدينة في بقية ذي القعدة ، أو في ذي الحجة .

قال : يا رسول الله ، أوتأذن لي ولا تنقني ؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عجباً بالفساء مني ، وأني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال : قد أذنت لك .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، يشبطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فبعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل طلحة ، فاقترع الضعفاء بن خليفة من ظهر البيت ، فانكسرت رجلاه ، واقترع أصحابه ، فافلتوا .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جدد في سفره ، وأمر الناس بالجهاز والانكاش ، وحضر أهل الفنى على النفقة والحملان^(١) في سبيل الله ، فعمل رجال من أهل الفنى واحتسبوا ، وأتفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة ، لم ينفق أحد مثلاً .

ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم البكاءون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، فاستحلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أهل حاجة ، قال : لا أجد ما أحاكم عليه ، فتولوا وأعينهم نفيس من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .

(١) الحملان . ما يحمل عليه من الدواب .

فلقي ابن يامين بن حمير بن كعب النضري ، أبا الهيثم عبد الرحمن بن كعب ،
وعبد الله بن مفضل ، وهما يبيكان ، قال : ما يبيكما ؟ قالوا : جئنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ليعملنا ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى
به على الخروج معه ، فأعطاهما ناضحاً له ، فارتحلاه ، وزودهما شيتاً من تمر ، فخرجا
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاءه المنذرون من الأعراب ، فاعتذروا إليه ، فلم يعذرهم
الله تعالى .

واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ، فلما سار رسول
الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه عبد الله بن أبي ، فبين تخلفه من المناقذين
وأهل الرب .

وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب ، رضوان
الله عليه ، على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المناقذون ، وقالوا :
ما خلفه إلا استتقالاته ، ونمقناتمه ، فلما قال ذلك للمناقذون أخذ على بن أبي طالب ،
رضوان الله عليه ، سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو نازل بالجرف ، فقال : يابني الله ، زعم للمناقذون أنك إنما خلقتني أنك
استثقلتني ونمقنتني ، فقال : كذبوا ، ولمكني خلقتك لما تركت ورائي ،
فارجع فاخلقني في أهل وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون من بمنزلة هارون
من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدي ، فرجع على إلى المدينة ، ومضى رسول الله
صلى الله عليه وسلم على سفره .

ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم، أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لها في حائطه، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، ويردت له فيه ماء، وهيات له طعاماً، فلما دخل، قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح^(١) والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيباً، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنصف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما، حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهبطا لي زاداً، ففعلتا. ثم قدم بعده فارتحل، ثم خرج في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك.

وقد كان أدرك أبا خيثمة حمير بن وهب الجمعي في الطريق، يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنباً، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كن أبا خيثمة، فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة.

فلما أناخ أقبل فلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أدلى لك يا أبا خيثمة. ثم أخبر رسول الله صلى الله

عليه وسلم انظر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا
له بخير .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر نزلها ، واستقى
الناس من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تشربوا
من ماءها شيئاً ، ولا تتوضئوا منه فمسلاة ، وما كان من عجين عجنتموه
فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً ، ولا يخرج من أحد منكم الليلة إلا ومعه
صاحب له . ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن
رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحاجته ، وخرج الآخر في طلب بعيره .
فأما الذي ذهب لحاجة فلأنه خفق على مذهبه ، وأما الذي ذهب في طلب بعيره ،
فاحتلمته الريح ، حتى طرحته بجبل طبع . فأخبر بذلك رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فقال : ألم أنهيكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه . ثم دعا رسول
الله صلى الله عليه وسلم فاذى أصيب على مذهبه فشق ، وأما الآخر الذي وقع بجبل
طبع ، فإن طبعاً أهدته لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة .

ولما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر سجد على وجهه ،
واستعث راحلته ، ثم قال : لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون ،
خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

فلما أصبح الناس ولا ماء معهم ، شكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الله سبعانه سحابة ،
فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتلموا حاجتهم من الماء .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أصحابه، يقال له: همارة بن حزم، وكان عقيباً بدرية، وهو عم بني عمرو بن حزم، وكان في رحله زيد بن الأصيت القينقامي، وكان منافقاً. فقال زيد بن الأصيت، وهو في رحل همارة، وهمارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم من خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلفي الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شرب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتونني بها. فذهبوا، فجاءوا بها. فرجع همارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لمعجب من شيء حدثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم آتياً، عن مقالة قائل أخبره الله عند بكذا وكذا، لاذي قال زيد بن الأصيت. فقال رجل ممن كان في رحل همارة، ولم يحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي. فأقبل همارة على زيد يضرب في عنقه ويقول: إلى عباد الله، إن في رحلي لدهاية وما أشعر! اخرج أي عدو الله من رحلي، فلا تصعبني.

• • •

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم سائراً، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دعوه فإن بك فيه خير فسيلعته الله تعالى بكم، وإن بك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، حتى قيل: يا رسول

الله ، قد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بميرة ، فقال : دعوه ، فإن بك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن بك غير ذلك فقد أراحكم الله منه . وتلوم^(١) أبو ذر على بعيره ، فلما أبطأ عليه ، أخذ متاعه فعمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً . ونزل رسول الله في بعض منازلهم ، فنظر فأنظر من المسلمين ، فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كن أبا ذر . فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

وقد كان رهط من المنافقين ، يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متعلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أنحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكانا بكم غداً مقرنين في الجبال .. إرجافاً وترهيباً للمؤمنين .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر : أدرك القوم ، فإنهم قد احترقوا^(٢) ، فسلمهم مما قالوا ، فإن أنكروا قتل : بلى ، قاتم كذا وكذا . فانطلق عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه .

• • •

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بذي أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجداً لدى اليلة والحاجة

(١) تلوم ، تلبث .

(٢) احتراقوا : هلكوا .

واليلة المطيرة واليلة الشانية ، وإنا نحب أن تأتينا ، فتصلي لنا فيه ، فقال : إني على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم ، فصلينا لكم فيه .

فلما نزل بذي أوان ، أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ، ومعن بن عدي . أخا بني المجلان ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، قال مالك لمن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي . فدخل إلى أهله ، فاخذ سعفا من النخل ، فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه .

وكانت مساجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين المدينة إلى تبوك مطومة مسماة .

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكان قد تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف ثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لا تكلمن أحداً من هؤلاء الثلاثة ، فاعتزل المسلمون كلام أولئك النفر الثلاثة .

ويقول كعب : وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا ، حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب نحو صاحبي مبشرون ، وركض رجل إلى فرس ، وسعى ساع من أسلم ، حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءني القى سمعت صوته

يُشْرِنِي ، نَزَعْتَ نَوْبِي فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِشَارَةٍ ، وَاللَّهُ مَا أَمْلَكَ بِوَمُتَدَّ غَيْرُهُمَا ،
وَاسْتَمَرَّتْ نَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ أَنْيَمُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَتَلَقَّانِي النَّاسُ يَشْرُونَنِي بِالتَّوْبَةِ ، حَتَّى دَخَلْتُ لِلسَّجْدِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ .

فَقَامَ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَضَعِيَانِي وَهَنَانِي ، فَلَمَّا سَلِمْتُ عَلَى رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِي ، وَوَجْهَهُ يَرِفُ مِنَ السَّرُورِ : أَبَشِّرْ بِخَيْرِ
يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مِنْذُ وَلَدْتِكَ أُمُّكَ ، قُلْتُ : أَمِنْ عِنْدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُمٌّ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ ؟ قَالَ : بَلَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

٨١ - إِسْلَامُ ثَقِيفٍ

وَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ مِنْ تَبُوكَ فِي رَمَضَانَ ، وَقَدَّمَ
عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الشَّهْرِ وَفَدَّ ثَقِيفَ .

وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا انْصَرَفَ عَنْهُمْ ، اتَّبَعَ
أَثَرَهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ ، حَتَّى أَدْرَكَهُ قَبْلَ أَنْ يَبْصُلَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَأَسْلَمَ وَسَأَلَهُ
أَنْ يَرْجِعَ إِلَى قَوْمِهِ بِالْإِسْلَامِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَأَنْهُمْ قَاتَلُوكَ
وَعَرَفُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ فِيهِمْ نَخْوَةَ الْاِمْتِنَاعِ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ ،
فَقَالَ عُرْوَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَا أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْكَارِهِمْ .

وَكَانَ فِيهِمْ كَذَلِكَ مُحِبًّا مَطَاعًا ، فَخَرَجَ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَجَاءَ
الْأَيْمَانُ قَوْمَهُ ، لِمَنْزِلَتِهِ فِيهِمْ ، فَلَمَّا أَشْرَفَ لَهُمْ عَلَى عَلَيْهِ لَهُ ، وَقَدْ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ،
وَأَعْلَاهُمْ دِينَهُ ، رَمَوْهُ بِالْغَبْلِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ ، فَأَصَابَهُ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ ، فَقَبِيلُ لَعْرُوةَ :

ما ترى في دمك ؟ قال : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله إلي ، فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم ، فدفنوه معهم . فزهروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه : إن مثله في قومه اسكتل صاحب ياسين في قومه .

• • •

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشعرا ، ثم إنهم اتهموا بينهم ، وراوا أنه لا طاعة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد بايعوا وأسلموا .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابهم ، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص ، وكان أحدثهم سنا ، وذلك لأنه كان أحرصهم على النفاذ في الإسلام ، وتعلم القرآن . قال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، إنى رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على النفاذ في الإسلام ، وتعلم القرآن .

فلما فرغوا من أمرهم ، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم أبا سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة ، في هدم الطاغية ، فخرجوا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بماله ، فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها بضربها بالمول ، وقام قومه دونه ، بنو معتب ، خشية أن يرى أو يصاب كما أصيب عروة ، وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها .

٨٢ - حج أبي بكر بالناس

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية شهر رمضان وشوالاً وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع، ليقبض للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم. فخرج أبو بكر رضي الله عنه ومن معه من المسلمين.

ونزلت براءة في تفض ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من العهد، الذي كان عليه فيما بينه وبينهم: ألا يبعد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام. وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك.

وكانت بين ذلك عهد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل من العرب خصائص، إلى آجال مسماة، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه في تبوك، وفي قول من قال منهم، فكشف الله تعالى فيها أسرار أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون.

• • •

٨٣ - سنة الوفود وهي سنة تسع.

وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وفرغ من تبوك، وأسست حنيف ربايت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه. وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام،

وصريح وله إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه . ولما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوخها الإسلام ، وعرفت العرب أنه لا طاعة لها بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله ، كما قال عز وجل ، أفواجا ، يضربون إليه من كل وجه .

فقدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفود العرب . فقدم عليه عطار بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي ، في أشرف بني تميم .

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفسد بن عامر ، فيهم عامر ابن الطفيل .

فقدم عامر بن الطفيل عدو الله ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يريد التدر به ، وقد قال له قومه : يا عامر ، إن الناس قد أسلموا فأسلم . قال : والله لقد كنت آليت ألا أنهي حتى تتبع العرب هتبي ، فأنا أتبع عقب هذا النقي من قريش ! ثم قال لأريد : إذا قدمنا على الرجل ، فلأني سأشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف . فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عامر بن الطفيل : يا محمد ، خالي^(١) ، قال : لا والله حتى تؤمن بالله وحده . قال : يا محمد ، خالي . وجعل يكلمه وينتظر من أريد ما كان أمره به ، فجعل أريد لا يحير شيئا . فلما رأى عامر ما يصنع أريد ، قال : يا محمد ، خالي ، قال : لا ، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له . فلما أبى عليه

(١) خالي . أي تفرد لي خاليا أتحدث بك .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا .
فلما ولي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اكفني عامر بن الطفيل .
فلما خرجوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عامر لأربد : وبلك
يا أربد ! أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو
أخوف عندي على نفسي منك ، وإيم الله لا أخانك بعد اليوم أبدا . قال :
لا أبالك ! لا تجعل على ، والله ما همت بأذى أمرتي به من أمره ، إلا دخلت
يفى وبين الرجل ، ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟

وخرجوا راجعين إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، بعث الله
على عامر بن الطفيل الطاعون في منته ، فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول .
ثم خرج أصحابه ، حين واروه ، حتى قدموا أرض بني عامر شاتين ، فلما
قدموا أتاهم قومهم فقالوا : ما وراءك يا أربد ؟ قال : لا شيء والله ، لقد دعانا
إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن ، فأرميه بالنبل حتى أقتله ، فخرج بعد
مقاتله بيوم أو يومين ، معه جمل له يتبعه ، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جماله
صاعقة ، فأحرقتهم . وكان أربد بن قيس أخا لبيد بن ربيعة لأمه .

وبعث بنو سعد بن بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا منهم ،
يقال له : ضمام بن ثعلبة ، وافداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عليه
وأناخ بهيره على باب المسجد ، ثم عتله ، ثم دخل المسجد ورسول الله صلى
الله عليه وسلم جالس في أصحابه . وكان ضمام رجلا جليداً أشعر ذا غديرتين ،
فأقبل حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه ، فقال :
أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا ابن عبد المطلب .

قال : أحمده؟ قال : نعم ، قال : يا بن عبد المطلب ، إني سأثلك ومغلظ عليك في المسألة ، فلا تجدن في نفسك . قال : لا أجد في نفسي ، فهل ما بدا لك . قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آله بمثلك إلينا رسولاً ؟ قال : اللهم نعم . قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : اللهم نعم . قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آله أمرك أن تصل هذه الصلوات الخمس ؟ قال : اللهم نعم . قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها ، كما ينشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص . ثم انصرف إلى بيته راجعاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صدق ذو القيتين دخل الجنة .

فأتى بيته فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بنيت اللات والعزى . قالوا : مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون ، قال : ويلكم إلهما والله لا يضران ولا ينفسان ، إن الله قد بعث رسولا ، وأنزل كتاباً استنفذكم به عما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ، وما نهاكم عنه .

فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً .

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارود بن عمرو بن حنشل ،
أخو عبد القيس ، ولما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمه ، فعرض
عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ، ودعاه إليه ، ورغبه فيه . فقال :
يا محمد ، إني كنت على دين ، وإني تارك ديني ههنا ، أفتضمن لي ديني ؟
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، أنا ضامن أن قد هدأك الله
إلى ما هو خير منه . فأسلم وأسلم أصحابه ، ثم سأل رسول الله صلى الله عليه
وسلم الحملان ^(١) ، فقال : والله ما عندي ما أحملكم عليه . قال : يا رسول
الله ، فإن يئسا و بين بلادنا ضوال من ضوال الناس ، أفنتبلغ عليها إلى بلادنا ؟
قال : لا ، إياك وإياها فأنا تلك حرق النار .

فخرج من عنده الجارود راجعاً إلى قومه ، وكان حسن الإسلام ، صلباً
على دينه ، حتى هلك وقد أدرك الردة . فلما رجع من قومه من كان أسلم منهم
إلى دينهم الأول ، مع الفرور بن المنذر بن النعمان بن المنذر ، قام الجارود
فكلم ، فتشهد شهادة الحق ، ودعا إلى الإسلام ، فقال : أيها الناس ، إني
أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأكفر من لم يشهد .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بمكة بن الحضرى قبل
فتح مكة إلى المنذر بن معاوية المدي ، فأسلم وحسن إسلامه ، ثم هلك بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل ردة أهل البحرين ، والملاء عنده ،
أمير الرسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين .

(١) أي ما يحمله عليه .

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بني حنيفة ، فيهم مسيلة
ابن حبيب الحنفي الكذاب ، وكانوا قد خلفوا مسيلة في رحالهم ، فلما أسلموا
ذكروا مكانه ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد خلفنا صاحبنا لنا في رحالنا وفي
ركابنا يحفظها لنا ، فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به لقوم ،
ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءوه بما أعطاه . فلما انتهوا
إلى النجاة ارتد عدو الله ، وتنبأ وتكذب لهم ، وقال : إني قد أشركت في
الأمر معه . ثم جعل يسبهم الأساجيع ، وأحل لهم الخمر والزنا ، ووضع
عنهم الصلاة ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه نبي .



وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد طيء ، فيهم زيد الخليل ،
وهو سيدهم ، فلما انتهوا إليه كلموه ، وعرض عليهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم الإسلام ، فأسلموا ، فحين إسلامهم . وقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيت دونه ما يقال
فيه ، إلا زيد الخليل ، فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ، ثم سماه رسول الله صلى الله
عليه وسلم : يزيد الخليل ، فخرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً
إلى قومه ، فلما انتهى إلى ماء من مياهه ، أصابته الحمى بها فمات .



وأما عدي بن حاتم فكان يقول : ما من رجل من العرب كان أشد
كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به مني ، فلما سمعت برسول
الله صلى الله عليه وسلم كرهته ، فقلت لنفسي كان لي عربي ،
وكان راعياً لإيلي : لا أبالك ، أمدد لي من إيلي أجمالاً ذلاً بما ناك ، فاحتبسها

قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لحمد قد وطي هذه البلاد فأذني، ففعل. ثم إنه أتاني ذات غداة، فقال: يا عدي، ما كنت صانماً إذا غشيتك لحيل محمد، فاصنعه الآن، فإنني قد رأيت رايات، فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد. فقلت: فاقرب إلى جمالي، فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألق بأهل ديني من النصاري بالشام، وخلفت بنتاً لحاتم في الحاضر، فلما قدمت الشام أقمت بها.

وتخالفني خيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتصيب ابنة حاتم، فيمن أصابت، فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبانيا من طليئ، وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هربي إلى الشام. قال: فجعلت بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد، كانت السبانيا يحبس فيها، فربها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقامت إليه، وكانت امرأة جرة، فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ من الله عليك. قال: ومن وافدك؟ قالت: عدى بن حاتم. قال: الفار من الله ورسوله؟ قالت: ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتركني، حتى إذا كان من الغد مررت، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس. قالت: حتى إذا كان الغد، مررت، وقد بنيت منه، فأشار إلى رجل من خافه: أن قومي فكلمي، قالت: فقامت إليه، فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ من الله عليك. فقال صلى الله عليه وسلم: قد فعلت، فلا تتمجلي بخروج، حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذني. فسألت عن الرجل الذي أشار إلى أن أكلمه، فقيل: حل بن أبي طالب رضوان الله عليه، وأقمت حتى قدم ركب من بني أوفضاة قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام. قالت: فبعثت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله،

فقد قدم رطل من قومي ، لي فيهم ثقة وبلاغ . قالت : فكساني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحلني وأعطاني نفقة ، فخرجت معهم ، حتى قدمت الشام . قال عدى : فوالله إني لقاعد في أهلي ، إذ نظرت إلى ظميمة تصوب إلى تؤمنا ، فقلت : ابنة حاتم ؟ فإذا هي هي . فلما وقفت على ، أخذت في اللوم تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك ووليك ، وتركت بقية والدهك عورتك ! قالت : أي أخية ، لا تقول إلا خيراً ، فوالله مالي من عذر ، لقد صنعت ما ذكرت . قال : ثم نزلت فأقامت عندي ، فقلت لها ، وكانت امرأة حازمة : ماذا ترين في أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلتحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبياً ، فالسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً ، فلن تذل في عز اليمين ، وأنت أنت . قال : قلت : والله إن هذا الرأي .

قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فدخلت عليه ، وهو في مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق لي إلى بيته ، فوالله إنه لعامدني إليه ، إذ لقيته امرأة ضميمة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تسكبه في حاجتها . قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بملك ، قال : ثم مضى بي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا دخل بي بيته ، تناول وصادة من آدم محشوة ليفاً ، فغذفها إلي ، فقال : اجلس على هذه ، قلت : بل أنت قاجاس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض . قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك ، ثم قال : إياه يا عدى بن حاتم ، ألم تك ركوسياً^(١) ؟ قلت : بلى . قال : أولم

(١) الركوسى ، من الركوسية ، وهو لوم لم دين بين دين النصارى والصابئين .

تسكن تدبر في قومك بالرباع ؟ قلت : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك ؟ قلت : أجل والله . قال : وعرفت أنه نبي مرسل ، يعلم ما لا تعلم . ثم قال : لملك يا عدى إنما يمنك من دخول في هذا الدين ، ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم ، حتى لا يوجد من يأخذه ، ولملك إنما يمنك من دخول فيه ، ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت ، لا تخاف ، ولملك إنما يمنك من دخول فيه ، أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالنصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم ، قال : فأسلت .

• • •

وقدم فروة بن مسبك المرادي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مفارقاً للوك كندة ، ومباعداً لهم ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة ، أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا ، حتى أئتمنهم في يوم كان يقال له : يوم الردم . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله ، من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم لا يسوء ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً .

واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على مراد وزبيد ومذحج كلها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة ، فكان معه في بلاده ، حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• • •

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن معد يكرب في أناس من بني زبيد ، فأسلم ، وكان عمرو قد قال لقيس بن مكشوح المرادي ، حين انتهى إليهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا قيس ، إنك سيد قومك ، وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز ، يقول إنه نبي ، فانطلق بنا إليه ، حتى نعلم علمه ، فإن كان نبياً كما يقول ، فإنه لن يخفى عليك ، وإذا لقيناه اتبعناه ، وإن كان غير ذلك علمنا علمه . فأبى عليه قيس ذلك ومنه رأيه ، فركب عمرو بن معد يكرب حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدقه وآمن به .

فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمراً ، واشتد عليه ، وقال : خالفني وترك رأبي . فأقام عمرو بن معد يكرب في قومه من بني زبيد ، وعليهم فروة ابن مسيك . فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتد عمرو بن معد يكرب .

• • •

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشعث بن قيس ، في وفد كندة في ثمانين راكباً من كندة ، فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده ، وقد رجلا جهم وتكلموا عليهم جهب الخبرة ، وقد كففوها بالحرير . فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألم تعلموا ؟ قالوا : بلى . قال : فما بال هذا الحرير في أعناقكم ، قال : فشقوه منها ، فالتقوه .

• • •

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم صرد بن عبد الله الأزدي ، فأسلم ، وحسن إسلامه ، في وفد من الأزد ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم

على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل
الشرك ، من قبل اليمن .

فخرج صرد بن عبد الله بسير بآمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى
نزل بجرش ، وهي يومئذ مدينة مغلقة ، وبها قبائل من قبائل اليمن ، وقد
ضمت إليهم خثعم ، فدخلوها معهم ، حين سمعوا بسير المسلمين إليهم .
فعاصروهم فيها قريباً من شهر ، وامتنعوا فيها منه ، ثم إنه رجع عنهم قافلاً ،
حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شكر ، ظن أهل جرش أنه إنما ولي عنهم
منهزماً ، فخرجوا في طلبه ، حتى إذا أدركوه ، عطف عليهم ، فقتلهم
قتلاً شديداً .

• • •

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، في شهر ربيع
الآخر أو جمادى الأولى ، ستة عشر ، إلى بني الحارث بن كعب بنجران ، أمره
أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، فإن استجابوا فاقبل منهم ،
وإن لم يفعلوا فقاتلهم . فخرج خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركان يضربون
في كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون : أيها الناس ، أسلموا نبلوا ،
فأسلم الناس ، ودخلوا فيما دعوا إليه . فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام ، وكتاب
الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبذلك كان أمره رسول الله صلى الله عليه
وسلم إن هم أسلموا ولم يقاتلوا .

• • •

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هدنة الحديبية ، قبل خيبر ،
رفاعة بن زيد الجذامي ثم الضبيبي . فأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم

غلاماً ، وأمام ، فحسن إسلامه ، وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى قومه .

• • •

وقدم وفد هذاني على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من تبوك .

٨٤ - حجة الوداع

ولما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذوالقعدة ، تجهز للحج ، وأمر الناس بالجهاز له ، لا يذكر ولا يذكر الناس إلا الحج . حتى إذا كان بسرف ، وقد ساق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، معه الهدى وأشراف من أشراف الناس ، أمر الناس أن يحلوا بكرة إلا من ساق الهدى .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بهت علياً رضي الله عنه إلى نجران ، فلقية بمكة وقد أحرم ، فدخل على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها ، فوجدتها قد حلت وتهيأت ، فقال : مالك يا بنت رسول الله ؟ قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحل بكرة ، فعلنا . ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما فرغ من الخبر عن سفره ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : انطلق فطف بالبيت ، وحل كما حل أصحابك ؟ قال : يا رسول الله ، إني أهلت كما أهلات ، فقال : ارجع فاحلل كما حل أصحابك . قال : يا رسول الله ، إني قلت حين أحرمت : اللهم إني أهل بما أهل به نبيك وعبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : فهل معك من هدى ؟ قال : لا . فأشركه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هديه ، وثبت على إحرامه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ من الحج ونحر .

رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدى عنها .

• • •

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حجه ، فأرى الناس مناسكهم ، وأعلمهم سنن حجهم ، وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين ، وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج ، وقد أراهم مناسكهم ، وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم ، من الموقف ، ورمى الجمار ، وطواف بالبيت ، وما أحل لهم من حجهم ، وما حرم عليهم ، فكانت حجة البلاغ ، وحجة الوداع ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخرج بعدها .

• • •

ثم قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام بالمدينة بنية ذى الحجة والحرم وصفر ، وضرب على الناس بئثا إلى الشام ، وأمر عليهم أسامة بن زيد ابن حارثة مولاه ، وأمره أن يوطئ الخيل نخوم البلقاء والمباروم من أرض فلسطين ، فتجهز الناس ، وأوعب مع أسامة بن زيد المهاجرون الأولون .
وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بهت إلى السلوك رسلا من أصحابه ، وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلام .

• • •

وكان جميع ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعا وعشرين غزوة .

وكانت بموته صلى الله عليه وسلم سراياه ثمانية وثلاثين ، من بين بعث وسرية .

• • •

٨٥ - مرضه صلى الله عليه وسلم وموته

ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج يمشى بين رجلين من أهله :
الفضل بن العباس ، وعلى بن أبي طالب ، عاصباً رأسه ، تخط قدماء ، حتى دخل
بيت عائشة ، ثم غمر^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتد عليه وجهه ، فقال :
هريقوا على سبع قريب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم .
تقول عائشة : فأقعدناه في مخضب^(٢) لحنصة بنت عمر ، ثم صبينا عليه الماء
حتى طفق يقول : حسبكم حسبكم .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عاصباً رأسه حتى جلس على
المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد ، واستغفر لهم ، فأكثر
الصلاة عليهم ، ثم قال : إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين
ما عنده ، فاختار ما عند الله . فقام أبو بكر ، وعرف أن نفسه يريد ، فبكى
وقال : بل نحن نقديك بأنفسنا وأبنائنا ، فقال : على رسلك يا أبا بكر ، ثم
قال : انظروا هذه الأبواب اللاقطة^(٣) في المسجد ، فسدوها إلا بيت أبي بكر ،
فإنى لا أعلم أحداً كان أفضل في الصعبة عندي يدأ منه .

واستبطناً رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس في بحث أسامة بن زيد ،
وهو في وجهه ، فخرج عاصباً رأسه ، حتى جلس على المنبر ، وقد كان الناس
قالوا في إمرة أسامة : أمر غلاماً حدثاً على جلة للهاجرين والأنصار .

(١) أى أصابته غمرة المرض صلى الله عليه وسلم .

(٢) المخضب : إلقاء يفضل فيه .

(٣) اللاقطة : الناقطة .

محمد الله وأبني عليه بما هو له أهل ، ثم قال : أيها الناس ، اتخذوا بنت
أسامة ، فلمعري ثمن قاتم في إمارته لقد قلتم في إماره أبيه من قبله ، وإنه تخليق
للإمارة ، وإن كان أبوه تخليقاً لها .

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وانكش^(١) للناس في جهازهم ،
واستمر برسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ، فخرج أسامة ، وخرج جيشه
معه حتى نزلوا الجرف ، من المدينة على فرسخ ، فضرب به عسكره ، وتقام إليه
الناس ، وثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام أسامة والناس ، لينظروا
ما الله قاض في رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاجتمع إليه صلى الله عليه وسلم
نساء من نسائه : أم سلمة ، وميمونة ، ونساء بين نساء المسلمين ، منهن : أسماء
بنت عميس ، وعنده العباس معه ، فأجمعوا أن يلدوه^(٢) . وقال العباس : لألدنه ،
فلما أفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : من صنع بي هذا ؟ قالوا :
بارسول الله ، حمك ، قال : هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض ،
وأشار نحو أرض الحبشة . ثم قال : ولم فعلتم ذلك ؟ فقال عنه العباس : خشينا
بارسول الله أن يكون بك ذات الجنب ، فقال : إن ذلك لداء ما كان الله عز
وجل ليقتضى به ، لا يبق في البيت أحسن إلا لله إلا هي ، فلقد لدت ميمونة
وإنها لصائمة ، لقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عقوبة لهم بما صنعوا به .

• • •

(١) انكش : أصرح .

(٢) أي أن يحملوا الدواء في شق منه .

ويقول أسامة: لما قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هبطت وهبط الناس
معي إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أصبت فلا
يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضمها على ، فأعرف أنه يدعو لي .

ولما استعز برسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس .
قالت عائشة : قلت: يابني الله ، إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت ، كثير
البكاء إذا قرأ القرآن . قال: مروه فليصل بالناس . قالت : فعدت بمثل قولي ،
قال : إنكن صواحب يوسف ، فروه فليصل بالناس . قالت : فوالله ما أقول
ذلك إلا أني كنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر ، وعرفت أن الناس
لا يحبهون رجلاً قام مقامه أبداً ، وأن الناس سيتشاءمون به في كل حدث كان ،
فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر .

ثم إنه لما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ،
خرج إلى الناس ، وهم يصلون الصبح ، فرفع الستر ، وفتح الباب ، فخرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام على باب عائشة ، فكاد المسلمون يفتقنون
في صلاتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه ، فرحابه ، وتفرجوا ،
فأشار إليهم : أن اثبتوا على صلاتكم . فبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم
سروراً لما رأى من هيبتهم في صلاتهم ، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
أحسن هيئة منه تلك الساعة ، ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قد برئ من وجعه . فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح .

وتقول عائشة : رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع في حجرى ، فدخل على رجل من آل أبى بكر ، وفى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فى يده نظراً عرف أن يريده ، فقلت : يا رسول الله ، أتعجب أن أعطيك هذا السواك؟ قال : نعم ، فأخذته ، فضمته له ، حتى لينته ، ثم أعطيته إياه فاستن كأشد ما رأيت يستن بسواك قط ، ثم وضعه . ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه ، فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة ، فقلت : خيرت فاخترت والذى بشك بالحق .

قالت : وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين سحرى ونحرى ، حين اشتد الضحى من يوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت من شهر ربيع الأول ، سنة عشرين من الهجرة وشهرين واثنى عشر يوماً ، فوضعت رأسه على وصادة ، وقت أقدام مع النساء وأضرب وجهى .

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام همر بن الخطاب ، فقال : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى بن همران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليتطعن أبدي رجال وأرجلهم ، زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات .

وأقبل أبو بكر ، حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وهو يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء ، حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى في ناحية البيت ، عليه برد حبرة . وأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : باني أنت وأمي ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ، ثم رد البرد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج وهو يكلم الناس ، فقال : على رسالتك يا عمر ، أنصت ، فأني إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَابْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَفُزَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيُعْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) .

فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت ، حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس من أبي بكر ، فأنما هي في أفواههم .

قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، ففكرت^(١) ، حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات .

(١) عفر : دهمش .

ثم إن علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس،
وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وشقران مولى رسول الله صلى الله
عليه وسلم، هم الذين تولوا غسله. وإن أوس بن خولى، أحد بني عوف بن
الخرزج، قال لعلي بن أبي طالب: أنشدك الله يا علي، وحفظنا من رسول الله
صلى الله عليه وسلم. وكان أوس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأهل بدر. ادخل؟ فدخل فجلس، وحضر غسل رسول الله صلى الله
عليه وسلم، فأسنده علي بن أبي طالب إلى صدره، وكان العباس والفضل
وقثم يلبونه معه، وكان أسامة بن زيد وشقران مولاه، هما اللذان يصبان
الماء عليه، وعلى يفسله، قد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه بذلك به من
ورائه، لا يفضى بيده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعلى يقول: يا أي أنت
وأبي، ما أطيبك حياً وميتاً، ولم ير من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً مما
يرى من البيت.

ولما أرادوا غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه، فقالوا:
والله ما ندرى أنجرد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثيابه، كما نجرد موتانا،
أو نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم، حتى ما منهم رجل
إلا ذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت، لا يدرون من هو:
أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه. فقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،
فغسلوه وعليه قميصه، ويصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه والقميص
دون أيديهم.

فلما فرغ من غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن في ثلاثة أثواب :
ثوبين صغارين ^(١) وبرد حبرة أدرج فيها إدراجاً . ولما أرادوا أن يحفروا
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو عبيدة بن الجراح يصرح كحفر أهل
مكة ، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة ، فكان يلعد
فدعا العباس رجلين ، فقال لأحدهما : اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح ، وللآخر :
اذهب إلى أبي طلحة ، اللهم خر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد
صاحب أبي طلحة أبا طلحة ، فجاء به ، فلعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

• • •

فلما فرغ من جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء وضع على
سريره في بيته . وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه ، فقال قائل : تدفنه في
مسجده ، وقال قائل : بل تدفنه مع أصحابه ، فقال أبو بكر : إني سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض ، فرفع فراش
رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفي عليه ، فحفر له تحته . ثم دخل الناس
على رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون عليه أرسالا ، دخل الرجال ، حتى إذا
فرغوا ، أدخل النساء ، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان . ولم يؤم الناس على
رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد . ثم دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم من
وسط الليل ليلة الأربعاء .

وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : علي بن أبي طالب ،
والفضل بن عباس ، وثم بن عباس ، وشتران مولى رسول الله صلى الله عليه
وسلم .

(١) نسبة إلى صغار : مدينة باليمن .

وقد قال أوس بن خولى لعل بن أبى طالب : يا هلى ، أنشدك الله ،
وحفظنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : انزل ، فنزل مع القوم ،
وقد كان مولاه شقران حين وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرته
وبنى عليه ، قد أخذ قطيفة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها
ويقرشها ، فدفنها فى القبر ، وقال : والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً . فدفنت مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• • •

وقد كان الغيرة بن شعبة يدعى أنه أحدث الناس عهداً برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ويقول : أخذت خاتمى ، فألقيته فى القبر ، وقلت : إن خاتمى
سقط منى ، وإنا طرحتة عهداً ، لأمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأكون
أحدث الناس عهداً به صلى الله عليه وسلم .

وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة سوداء ، حين اشتد به
وجعه ، فهو يضعها مرة على وجهه ، ومرة يكشفها عنه ، ويقول : قاتل الله قوماً
اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ! يحذر من ذلك على أمتي .

• • •

وكان آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : لا يترك
بجزيرة العرب ديتان .

• • •

٨٦ - زوجته صلى الله عليه وسلم .

وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمان من زوجاته ، هن :

عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، وسودة بنت زمعة بن قيس ، وزينب بنت جحش بن رثاب ، وميمونة بنت الحارث بن حزن ، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وصفية بنت حيي بن أخطب .

وكان جميع من تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة :

خديجة ، وهي أولى من تزوج ، وزوجها أبوها خويلد بن أسد ، ويقال أخوها عمرو بن خويلد ، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة .

وكانت خديجة قبله عند أبي هالة بن مالك ، أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم ، حليف بني عبد الدار ، فولدت له هند بنت أبي هالة ، وزينب بنت أبي هالة ، وكانت قبل أبي هالة عند عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، فولدت له عبد الله ، وجارية .

R وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة بنت أبي بكر الصديق بمكة ، وهي بنت عشر سنين ، ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بكر غيرها .
زوجها إياها ، أبوها أبو بكر ، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع مائة درهم .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي ، زوجها

إياها سليط بن عمرو ، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة درهم ،^(٢)
وكانت قبله عند السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك
ابن حسل .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جعش بن رثاب
الأسدية ، وزوجه إياها أخوها أبو أحمد بن جعش ، وأصدقها رسول الله صلى
الله عليه وسلم أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند زيد بن حارثة ، مولى رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بنت أمية بن المغيرة
الخزومية ، واسمها هند ، وزوجه إياها سلمة بن أبي سلمة ابنها ، وأصدقها
رسول الله صلى الله عليه وسلم فرائصاً حشوه ليف ، وقدحاً ، وصحفة ، ومجشة^(١) .
وكانت قبله عند أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، فولدت له : سلمة ، وعمر ،
وزينب ، ورقية .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وزوجه
إياها أبوها عمر بن الخطاب ، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة
درهم ، وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن
حرب ، وزوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص ، وهما بأرض الحبشة ، وأصدقها
النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة درهم ، وهو أقدى كان

(١) المجشة : الرحي .

خطبها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت قبله عند عبيد الله بن جحش .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرة بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية ، وكانت في سبايا بني المصطلق ، من خزاعة ، ودفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل من الأنصار وديعة . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أقبل أبوها الحارث بن ضرار بفداء ابنته ، ثم كان أن أسلم الحارث ، وأسلم معه ابنتان له ، ودفعت إليه ابنته جويرة ، فأسلمت ، وخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيها ، فزوجه إياها ، وأصدقها أربع مائة درهم . وكانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ابن عم لها يقال له : عبد الله .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية بنت يحيى بن أخطب ، سباها من خيبر فاصطفاها لنفسه ، وكانت قبله عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث ، زوجه إياها العباس بن عبد المطلب ، وأصدقها العباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع مائة درهم ، وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى ، ويقال : إنها هي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة بن الحارث ، وكانت تلقب : أم المساكين ، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم ، زوجه إياها قبيصة ابن عمرو الهلالي ، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع مائة درهم ،

وكانت قبله عند عبدة بن الحارث بن للطلب بن عبد مناف : وكانت قبل عبدة عند جهم بن عمرو بن الحارث ، وهو ابن عمها .

فهؤلاء اللائي بنى بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إحدى عشرة ، فمات قبله منهن اثنتان ، وهما : خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة . ونمة ثنتان لم يدخل بهما ، وهما : أسماء بنت النعمان الكندية ، تزوجها فوجد بها بياضاً^(١) ، فنفها وردّها إلى أهلها ، وهرة بنت يزيد السكلبية ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم استعادت منه ، فردّها إلى أهلها .

والقرشيات من أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم ست ، ومن : خديجة ، وعائشة وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة . والعربيات ست ، ومن : زينب بنت جحش ، وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة ، وجويرية بنت الحارث ، وأسماء بنت النعمان ، وهرة بنت يزيد .

ومن غير العربيات : صفية بنت حيي .

• • •

٨٧ — سراريه صلى الله عليه وسلم

وأما سراريه صلى الله عليه وسلم ، فقيل لهن أربعة :

مارية القبطية ، أهداها إليه المقوقس في سنة سبع من الهجرة وكانت صلى الله عليه وسلم بطؤها بملك الحبشيين ، وكانت من كورة أنصاف من صعيد مصر ، على البر الشرقي في مقابلة الأشمونيين .

(١) بياضاً : أى برصاً .

وريحانة - ربيعة - بنت شمنون ، من بني عمرو بن قريظة ، وقيل من بني
النضير ، وكان صلى الله عليه وسلم يطؤها بملك اليمين .
وتفيسة ، جارية زينب بنت جحش ، وهبتها له زينب .
وجارية أصابها صلى الله عليه وسلم في بعض السبي .

• • •

٨٨ - أولاده صلى الله عليه وسلم

وأما أولاده صلى الله عليه وسلم فكلهم من خديجة ، ماعدا إبراهيم فإنه
من مارية القبطية ، فولدت له خديجة : القاسم ، وكان أول من ولد لرسول الله
صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم ، إثم فولدت
له : زينب ، ورقية ، وفاطمة ، وأم كلثوم ، ثم ولد له في الإسلام : عبد الله ،
والطيب « الطاهر » . ومات عبد الله بمكة . فأما القاسم ، والطيب « الطاهر » فماتا
في الجاهلية . وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه صلى الله
عليه وسلم .

وأما إبراهيم فإنه من مارية القبطية ولدت له أمه في سنة ثمان من الهجرة ،
وقد مات إبراهيم صغيراً ، مات وهو ابن ثمانية عشر شهراً .

• • •

٨٩ - أعمامه وعماته صلى الله عليه وسلم

وكان له صلى الله عليه وسلم اثنا عشر عمّاً ، هم بنو عبد المطلب ، وهم :
الحارث ، وأبو طالب ، وحمة ، والعباس ، وأبو لهب عبد المزي ، والفيداق ،
والتقوم ، وضرار ، وقثم ، والزبير : الكعبة ، وجعل .

وزاد بعضهم: العوام ، فيكونون ثلاثة عشر .
والذين أدركهم الإسلام من أعمامه ، هم: عبد مناف ، وأبولهب ، والعباس ،
وحمة ، لم يسلم منهم غير اثنين : حمزة والعباس .
وأما عماته صلى الله عليه وسلم . فت ، بنات عبد المطلب ، وهن: عاتكة ،
وأمية ، والبيضاء ، وأم حكيم ، وبيرة ، وصفيية ، وأروى .
لم تسلم منهن على الأصح غير صفية ، أم الزبير بن العوام .

٩٠ - جداته صلى الله عليه وسلم

وأما جداته صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه ، فهن: فاطمة بنت عمرو بن عائذ .
أم عبد الله أبيه ، وسلمى بنت عمرو ، من بني النجار ، وهم أم عبد المطلب ،
وعاتكة بنت حمزة بن هلال بن فالج بن ذكوان ، وهي أم هاشم ، وعاتكة
بنت فالج بن ذكوان ، وهي أم عبد مناف ، وفاطمة بنت سعد ، من أزد السراة ،
وهي أم قصي ، ونعم ، وقيل : هند بنت سريز بن ثعلبة بن الحارث ، وهي
أم كلاب ، ووخشية بنت شيبان بن محارب ، وهي أم مرة ، وسلمى بنت محارب
من فهم ، وهي أم كعب ، ووخشية بنت مدليج بن مرة ، وهي أم لؤي ، وسلمى
بنت سعد بن هذيل ، وهي أم غالب ، وجندة بنت الحارث بن مضا ،
وهي أم فهر ، وهند - وقيل : عاتكة - بنت عدوان ، وهي أم مالك ، وبيرة بنت
مرة ، وهي أم النضير ، وعوانة بنت سعد بن قيس عيلان ، وهي أم كنانة ، وأم
خزيمة ، امرأة من قضاعة ، وخندف بن عمران القضاعية ، وهي أم مدركة ،
وأم إلياس جرحمية ، وسودة بنت عك بن عدنان ، وهي أم مضر ، والأمينة ،
وهي أم معد .

وأما جداته صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، فأم آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب : برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ابن قصى بن كلاب بن مرة ، وأم أبيها وهب : عاتكة بنت الأوقص ، ويعرف الأوقص بأبي كبشة ، الذى كان ينسب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقال : ابن أبي كبشة ، وأم برة : أم حبيبة بنت أحمد بن عبد العزى ، وأم حبيبة : نرة بنت عوف بن عبيد بن عدى بن كعب بن لؤى ، وأم برة بنت عوف : قلابة بنت الحارث بن طابخة بن صعصعة بن عائذ بن الحيان بن هذيل ، وأم قلابة : هند بنت يربوع ، من ثقيف .

* * *

٩١ - أخواته صلى الله عليه وسلم

وأما إخوته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة : حمزة ، حمه ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، أرضعتها معاً مع ثويبة ، جارية أبي لهب بلبن ابنها مسروح ، ولقد أرضعته ثويبة صلى الله عليه وسلم أياماً قلائل قبل أن تأخذه حليلة ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، أرضعته ورسول الله صلى الله عليه وسلم حليلة السعدية ، وعبد الله بن الحارث بن عبد العزى السعدى ، وآسية بنت الحارث السعدية ، وجدامة ، وقيل : خدامة ، وقيل : حذافة ، وتعرف بالشيء ، والثلاثة أولاد حليلة من زوجها الحارث .

وكانت حاضنته صلى الله عليه وسلم أم أيمن بركة بن ثعلبة بن حصن ابن مالك ، وكنيت باسم ابنها أيمن ، وهى أم أسامة بن زيد ، تزوجها زيد بعد موت عبيد بن زيد الذى كان قد تزوجها فى الجاهلية بمكة ، ثم نقلها إلى يثرب فولدت له أيمن ، ثم مات عنها فرجعت إلى مكة ، فتزوجها زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة .

وكانت الشيماء بنت حلينة السعدية تحضنه أيضاً ، فهي أخته وحاضنته .

• • •

٩٢ - خدمه صلى الله عليه وسلم

وأما خدمه صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من الرجال :

أنس بن مالك بن النضر بن ضنم بن زيد الأنصاري الخزرجي ، ويكنى :
أبا حمزة ، خدم النبي صلى الله عليه وسلم سبع سنين أو عشر ، وأمه أم
سلم هي التي أتت به النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة فقالت له : هذا
أنس غلام يخدمك .

ومنهم : ربيعة بن كعب بن مالك ، أبو فراس الأسلمي ، صاحب وضوئه .
ومنهم : أيمن ، ابن أم أيمن ، وهو أيمن بن عبيد بن زيد بن عمرو بن
بلال الأنصاري الخزرجي ، صاحب مطهرته .

ومنهم : عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي ، وكان صاحب الوسادة والنملين .
ومنهم : عقبة بن عامر بن عيسى بن عمرو الجهني ، وكان صاحب بغلته ،
يقودها به في الأسفار .

ومنهم : أسلم بن شريك بن عوف ، صاحب راسلته ، الذي كان ينزل
الرحل عنها ويضعه عليها .

ومنهم : سعد ، مولى أبي بكر الصديق .
ومنهم : أبوذر جندب بن جنادة ، الزاهد المشهور .
ومنهم : أبو حذيفة مهاجر ، مولى أم سلمة .
ومنهم : حنين ، مولى عباس بن عبد المطلب .

ومنهم : نعيم بن ربيعة بن كعب الأسلمي .
ومنهم : أبو الحمراء هلال بن الحارث .
ومنهم : أبو السمع إباد .

ومنهم : من النساء :

بركة أم أيمن ، وهي والدة أسامة بن زيد .
وخولة ، جدة حفص بن سعد .
وسلى ، أم رافع ، زوج أبي رافع .
وميمونة بنت سعد .

وأم عياش ، مولاة رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم .

• • •

٩٢ - مواليه صلى الله عليه وسلم

وأما مواليه صلى الله عليه وسلم فمنهم :

أسامة بن زيد بن حارثة ، وزيد بن حارثة ، وثوبان بن يحدد ، وأبو كبشة ،
من موالى مكة ، وشقران صالح بن عدى ، حبشى ، وقيل : فارسى ، ورباح
الأسود النوبى . وهو مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويسار النوبى الراعى ،
وزيد النوبى ، ومدغم ، وكان لرفاعة بن زيد ، فأهداه إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، وأسلم أبو رافع القبلى ، كان لعباس فوهبه للنبي صلى الله
عليه وسلم ، وسفينة ، اشتراه صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه ، وأبو واقد ،
القبلى الخصى ، وهو من جملة من أهداه للتوقس للنبي صلى الله عليه وسلم ،
وأنجشة الحبشى ، وسلمان بن عبد الله الفارسى ، وشمعون بن زيد أبو ريمانة ،
أبو بكر نعيم بن الحارث بن كلفة .

٩٤ - كتابه صلى الله عليه وسلم

أما كتابه صلى الله عليه وسلم ، فهم :

أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبد الله التميمي ، والزبير بن خويلد الأسدي ، وسعيد بن العاص بن أمية ، وسعد بن أبي وقاص ، وعامر بن فهيرة التميمي ، مولى أبي بكر ، وعبد الله بن الأرقم القرشي الزهري ، وأبي بن كعب بن قيس الأنصاري ، وثابت ابن قيس بن شماس الأنصاري الخزرجي ، وحذيفة بن الريم بن صيفي ، وأبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وزيد بن ثابت بن الأضحاك الأنصاري الخزرجي ، وشرحبيل بن حسنة ، وخالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، وعمر بن العاص بن وائل القرشي السهمي ، والمغيرة بن شعبة الثقفي ، وعبد الله بن رواحة الخزرجي الأنصاري ، ومعيقيب بن أبي قاطلة الدوسي ، وحذيفة بن اليمان ، وحويطب بن عبد العزى .

٩٥ - مؤذنه صلى الله عليه وسلم

أما مؤذنه صلى الله عليه وسلم فأربعة ، اثنان بالمدينة ، وهما :

بلال بن رباح ، وهو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن أم مكتوم القرشي الأحمي .

وأذن له صلى الله عليه وسلم بقاء : سعد بن هانئ ، للمروف بسمد القرظ ، مولى عمار بن ياسر .

وأذن له صلى الله عليه وسلم بمكة : أبو محذورة الجمعي القرشي .

٩٥ - شعراؤه صلى الله عليه وسلم

وأما شعراؤه صلى الله عليه وسلم :

فكعب بن مالك الأنصاري السلمي ، وعبد الله بن رباح الخزرجي
الأنصاري ، وحسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي .

• • •

٩٦ - ملاحه صلى الله عليه وسلم .

وأما أسيانه صلى الله عليه وسلم ، فكانت تسعة ، وهي :

مأثور ، والمضب ، وذو الفقار ، والقلبي ، والبتار ، والحنف ، والمخزم ،
والرسوب ، والتضيب .

• • •

وأما أدرامه صلى الله عليه وسلم فكانت سبعة ، وهي :

ذات الفضول ، وذات الوشاح ، والسعدية ، والفين ، ووفضة ، والبراء ،
والخرنق .

• • •

وأما أقوامه صلى الله عليه وسلم وكانت ستة ، وهي :

الزوراء ، والروحاء ، والصغراء ، وشوحط ، والكتوم ، والداد .

• • •

٩٧ - نوابه صلى الله عليه وسلم

وأما خيله صلى الله عليه وسلم فكانت سبعة ، وهي :

السكب ، وهو أول فرس ملكه ، اشتراه صلى الله عليه وسلم بعشراواق ،

وكان أغرم مجلاً طلق اليمين كيتاً ، ، والرتبجز ، وكان أبيض ، وهو أدي
شهد له فيه خزيمة بن ثابت فجعل شهادته بشهادة رجلين ، والظرب ، أهداه له
فروة بن عمرو الجذامي ، واللحييف ، أهداها له ربيعة بن أبي البراء ، والزاز ، سمي
به لشدة تلززه أو لاجتماع خلقه ، والورد ، أهداها له تميم الهارمي ، فأعطاه عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه ، فعمل عمر عليه في سبيل الله تعالى ، ثم وجده يباع
برخص ، فأراد شراءه ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا تشتره ، وسبعة ،
وكانت فرساً شقراء ، اشتراها صلى الله عليه وسلم من أعرابي .

• • •

وكان له عليه الصلاة والسلام من البغال :
دهل ، وكانت شهباء ، وفضة ، أهداها له فروة بن عمرو الجذامي ،
فوهبها لأبي بكر .

وأخرى أهداها له ابن العلماء ، صاحب أيلة .
وأخرى أهداها له صاحب دومة الجندل .
وأخرى أهداها له كسرى .

• • •

وكان له عليه الصلاة والسلام من الحمير : عفير ، أهداه له المقوقس .
وبستور ، أهداه له فروة بن عمرو الجذامي .

• • •

وكان له عليه الصلاة والسلام من الاتاح :
القصواء ، وهي التي هاجر عليها ، اشتراها من أبي بكر بثمانمائة درهم .
والمضباء ، والجدهاء .

٩٨ - تلخيص وتعقيب :

فالرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، وهو - كما مر بك :
محمد بن عبد الله بن عبد المطلب « شيبه » بن هاشم « عمرو » بن عبد مناف
« المغيرة » بن قصي « زيد » بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب
ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة « عامر » بن مضر
ابن نزار بن معد بن عدنان.

إلى هنا ينتهي النسب الصحيح ، وما فوق ذلك فهو من صنع النسابين .

وأمة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن
كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ، يلتقي نسبهما مع نسب أبيه صلى الله عليه وسلم
عند جدّها الأعلى : كلاب بن مرة .

ولقد مات أبوه عبد الله بالمدينة وأمه حامل به لشهرين ، وكان قد خرج
في تجارة ففرض فخرج بالمدينة يسلم بأخواله من بني النجار ، فأقام عندهم شهراً
مات بعده عن خمسة وعشرين عاماً .

وكان مولده ، صلى الله عليه وسلم ، يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول -
٢٠ من أبريل سنة ٥١ - على الصحيح ، بالدار التي عند المفا ، والتي كانت بعد
أحمد بن يوسف ، أخى العجاج ، وقد بنتها زبيدة مسجداً حين حجبت .

وكانت قابله التي نزل على يديها : الشفاء ، أم عبد الرحمن بن عوف .
وأرضعته امرأة من بني سعد بن بكر بن هوازن ، يقال لها : حليلة بنت أبي ذؤيب .

واسم أبيه في الرضاعة : الحارث بن عبد المزي ، من بني سعد بن بكر
ابن هوازن .

وكان إخوته في الرضاعة : عبد الله بن الحارث ، وأمنة بنت الحارث ، والشيماء
حذافة بنت الحارث .

وحين بلغ محمد ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء - موضع
بين مكة والمدينة ، وعمرها ثلاثون عاماً .

وبعد وفاة آمنة بسنتين توفي جده عبد المطلب ، وكان يكفله ، وعمر
محمد عندها ثمان سنين .

فكان محمد بعد وفاة جده عبد المطلب مع عمه أبي طالب ، وأبو طالب وعبد الله -
أبو رسول الله - أخوان لأب وأم ، وأمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن
هران بن مخزوم .

وحين بلغ محمد أربعة عشر عاماً - أو خمسة عشر - كانت حرب الفجار
بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان . ولقد شهد محمد بعض
الأمم ، أخرجه أمه معهم ينبل عليهم ، أي يرد عليهم قبل عودهم إذا
رؤوهم به .

ولما بلغ محمد خمسة وعشرين عاماً تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن
عبد المزي بن قصي بن كلاب بن مرة ، يلتقى نسبها مع نسبه في جدها
الأعلى قصي ، كما يلتقى نسب أمه آمنة في كلاب بن مرة .

وكانت خديجة أول امرأة تزوجها محمد ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت ،
وكانت سبعة سنين بنى بها محمد أربعين عاماً . ولقد تزوجها قبل محمد رجلان
هما : أبو هالة بن زرة التميمي ، وعتيق بن عائذ المخزومي .

وقد عرفت خديجة محمداً حين خرج في تجارة لها إلى الشام في رحلته الثانية مع غلامها ميسرة ، وكانت رحلته الأولى إلى الشام حين خرج مع عمه أبي طالب ، وسنه اثنا عشر عاماً ، حدثها ميسرة عن صدقه وأمانته فرغبت فيه وسعت إلى الزواج منه .

وولدت خديجة لمحمد أولاده كلهم إلا إبراهيم ، فإنه من مارية القبطية ، فولدت له القاسم ، وبه كان يكنى ، والطيب « الطاهر » ، ورقية ، وزينب ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

ومات القاسم والطيب في الجاهلية . وأدركت بناته كلهن الإسلام وأسلمن .
وحين بلغ محمد خمسة وثلاثين أخذت قريش في تجديد بناء الكعبة ، وكانت قد أصابها حريق ، ومن بعد الحريق سيل . وحين بلغت قريش موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يكون له الشرف في وضعه موضعه ، وكاد الخلاف يشعل بينهم حرباً ، ثم اتفوا إلى أن يكون الفصل بينهم إلى أول داخل عليهم من باب بني شبة . وكان محمد أول داخل عليهم من هذا الباب ، فارتضوه حكماً فيما شجر بينهم ، فبسط محمد رداءه ووضع الحجر عليه ، وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف من أطراف الرداء ، حتى إذا ما استقوا رفع الحجر بيديه ووضعه مكانه .

ولقد عرفت قريش محمداً صبيّاً فلم تعهد عليه ما تعهد مثله على الصبيان من إسفاف أو تدن ، وعرفته بانفاً فلم تعد له نزوة أو زلة ، ثم عرفته زوجاً في سن مبكرة فعرفته أظهر الأزواج ذبلاً .

وهو منذ أن درج بين أهله ووعى كان الصادق الأمين ، لا يقول إلا صدقاً ، ولا يعطى أو يأخذ إلا أميناً حين يعطى ، أميناً حين يأخذ ، أميناً

حين يستشار ويشير . والنفس إن ملكت الصدق والأمانة ملكت ما بعدها
من كل ما هو محمود من الصفات ، وهكذا كان محمد قبل أن يبعثه الله رسولا .
ولقد حُبب إلى محمد التعمت والتعنف شأن الصادقين عن متاع الحياة ،
العارفين من لينها المنفى إلى الاستقامة إليها ، فكان يعتكف في حراء - جبل
من جبال مكة على ثلاثة أميال منها - شهراً من كل سنة ، يجعله خالصاً لعبادة
ربه على ما رسم إبراهيم ، ومن بعده إسماعيل عليهما السلام .

وبقى محمد على هذا الذي أخذ به نفسه يختلف إلى غار حراء شهراً من كل
عام ، إلى أن كانت السنة التي اختاره الله فيها رسولا لرسالته ، وكان عندها
في الأربعين من عمره .

وهكذا كان محمد حين دبت قدماء على أرض مكة من الجزيرة العربية
محط الأبصار ، وشغل الأفكار ، حاطه ربه باليمن وليداً ، إيداناً منه لعباده بما
سيؤهله له ، وصانه عن اللهو العاثر صبيّاً ليرتفع به عما يتدنى فيه غيره كي يمهّد
لإجلاله ، وأجرى الصدق على لسانه ، وبسط بالأمانة يديه ، وملاً بالرحمة قلبه ،
وبالحسكة رأسه ، ليرى الناس فيه ما يفتقدون من صفات فيلتفتوا حوله اليوم
نمهداً لالتفافهم حوله في غد .

وحين استوى محمد شاباً ، واستوت باستوائه صفات الكمال كلها فيه ، رأى
الناس أنهم بين يدي عجب استعصى على عامتهم تأويله ، ولم يستمعوا على
خاصتهم من أولى الكتاب ، فعرفوا أنه النبي المرتقب .

ومضى محمد في طريقه المرسوم يهينه الله لتلقى ما سوف يوحى به إليه .

فقد لا يرى في منامه رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وغدت الخلوة

معجبة إلى نفسه ، يقف في غار حراء خاليا ذوات العدد خاليا لعبادته ،
ولا يعود إلى أهله إلا لكي يتزود لمثلها .

وفيما كان معصدا في غار حراء خاليا يتعنت تمثل له جبريل يحمل إليه
الوحي من ربه ، ويؤذنه بدعوة قومه إلى الله الواحد الأحد وترك عبادة
الأوثان .

وكان ابتداء الوحي في شهر رمضان وفي السابع عشر منه ، يشير إلى قوله
تعالى في سورة البقرة : «شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» . ويشير إلى الثانية
قوله تعالى في سورة الأنفال : «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنَجُّتِ الْجَمْعَانِ» وكان التقاء الجمعين - أعني المسلمين والمشركين
يوم بدر - في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة .

وكان أول ما نزل عليه من الوحي : «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» .
ولقد تلقاه الرسول مجهوداً وانصرف به مشدوهاً ، ووقف في مكانه بعد خروجه
من حراء ناظراً في آفاق السماء ، لا يتقدم أمامه ولا يرجع إلى الوراء ، إلى أن
ارتدت إليه نفسه وانتهى إلى خديجة وهو يحس هزة للفرور .

وفتر الوحي فترة بلغت أعواماً ثلاثة ، كانت لتلك النفس البشرية المختارة
بمخابرة الفترة التي سبقت الرحي وحُجِّب فيها إلى الرسول أن يتعنت ، فلقد هيا
هذا التعنت نفس محمد لهذا التلغى وقارب بها منه ، وإذا هي على الرغم من
هذا التقريب وذلك الإعداد تهتز لجلال ما ترى وتسمع ، وإذا هي بهذا قد
انتهت من مرحلة لتبدأ في مرحلة ، وإذا المرحلة الجديدة في حاجة إلى زاد
كما كانت المرحلة الأولى في حاجة إلى زاد ، وإذا هذا الزاد الجديد فترة يخلو
فيها محمد إلى نفسه بما شاهد يتمثله مرة ومرة لتراح إليه روحه ، وليأنس به

روعه ، - حتى إذا ما تلقاه بعدها تلقاه منهيئاً له . وهكذا كانت تلك الفترة خلوة
ثانية، بعد تلك الخلوة الأولى في غار حراء ، هيأت الأولى نفسه لتلقى الوحي
وهيأت الثانية نفسه للأنس بالوحي .

وحركت فترة الوحي السنة أهل مكة بالقول فاسترسلوا يقولون : ودعه ربه
وقلاه . يرددونها لسان الضلال شماتة بلسان الحق ، ويحاول العقل الغافل أن يخدم
بها العقل الواعي ليصرفه عن الدعوة الجديدة .

وانضمت هذه لتي خلا بها الخصوم من شماتة إلى تلك التي خلا بها
الرسول من لفة ، فإذا هو بعد هذه وتلك أحزن ما يكون على انتطاع الوحي ،
وأشوق ما يكون إلى اتصاله .

ومع هذا التهيؤ الكامل لهذه النفس البشرية المختارة انصل الوحي ونزل
على محمد قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾
يرد على المتقولين . ونزل عليه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ بأمره
أن يكون رسول ربه إلى الناس بدعوم إليه وإلى الحق ، ويصرفهم عن الأوثان
وعن الباطل .

• • •

وأخذ محمد يدعو إلى ربه، وإلى هذا الدين الجديد الذي اصطفاه ربه له، في
بيئة قد عرفت لها إيغالها في الباطل واستكانتها إليه ، وبين قوم أشربوا
الضلال فعاندوا عليه ، فاقنضت الحكمة الحكيمة أن تأخذ الدعوة طريقها سرّاً
لإعلانية، وخفية لاجهرراً ، تضم إليها الأنس بها وتجمع عليها من تفتح قلبه لها .

وكان أقرب الناس إلى الرسول من الرجال أبو بكر ، وكان له صديقاً
والنبا ، ومن الصبيان علي بن أبي طالب ، في ظله نشأ وبين يديه شب ، ومن

النساء زوجه خديجة ، وكانت كائنه في خلواته وملأذه في فزعاته ، ومن الموالى
زيد بن حارثة ، وكان حبيب رسول الله ، وهبته خديجة له قبل النبوة ، وكان صهره
إذ ذاك ثمانى سنين ، فأعتقه رسول الله وتبناه ، ومن العبيد بلال بن رباح الحبشى ،
وكان قريباً من أبى بكر غير بعيد عما يرى . فكان هؤلاء جميعاً أول من
آمنوا بمحمد وأول من صدقوه . وبقي الرسول بمن آمن معه يدعو الناس خفية ،
وما سلم الرسول وما سلم من معه — على الرغم من عدم مجاهرتهم بالدعوة —
من أذى كبير حوله راضين ، حتى إذا ما أفصحت الدعوة عن نفسها شيئاً ،
وغدت حديث البيئة ، لم يكن بد من أن يقف محمد ومن حوله القليلون
المستضعفون للناس جهراً يدهون ، بعد أن قضوا نحواً من أعوام ثلاثة يسرون .
وكان الصدام بين الحق والباطل . وما جبلت النفوس الغافلة أن تخرج
من غفلتها في سر ، ولا سيما إذا كانت تلك الغفلة تظلها عقيدة وبحميتها
تقليد ، وكانت تلك العقيدة وذلك التقليد إرث قرون .

ومشت قريش إلى الرسول تساومه على أن يطلب ما يشاء من ملك أو سيادة
أو مال على أن يترك ما يدهو إليه ، فسادوا بغير ما كانوا يأملون ، ولقد
كانت لهم فيها عظة لو كانوا يتدبرون .

من أجل هذا عنف هذا الصدام وقسا ، وذاق دعاة الحق من عنفه ومن
فسوته الشيء الكثير ، وكان ما ذاقوا ابتلاء لهذا الحق وابتلاء لهم ، إذ لو
كان هو زيفاً ما ضمهم إليه على عسره ، ولو كانوا هم على غير اليقين به ما
انضموا إليه حاملين ما يمر .

ومضى محمد يشق الطريق بمن تبعه وسط هوجاء عاصفة ، يدبر للدعوة

بتدبير السماء ، وكان حين يصبر على الأذى يصيبه بأسى للأذى يصيب أصحابه .

فلقد كان رسولا ، وكان في عافية بمكانه من رسالته ، لا يخشى أن يزول إيمانه بها ترغيب أو ترهيب ، وكان أتباعه على حسن إيمانهم وعظيم صبرهم بشراً يجوز عليهم ما يجوز على البشر من الوعد والإيعاد ، ولقد وفق أكثرهم لمعتقده فلم يصرفه إيذاء كما لم يحوله إعطاء ، وهلك نفر منهم تحت سوط البلاء ، كما لان نفر منهم فأعطوا بالسنتهم وما نظنهم أعطوا بقلوبهم .

فلقد تتبع مشركو مكة من يسلون بألوان الأذى كلها لا يقصدون ، فأذوم في أمواليهم وأذوم في أهلهم وأذوم في أجسادهم ، وعز على رسول الله ما يلتقى أصحابه ، وكانوا كلهم قد تملت قبائلهم من حمايتهم ، فمن كان منهم ذا بأس هابوه ، ومن كان منهم مستضعفاً حملوا عليه .

وهنا يرى الرسول رأيا ، ويراه معه الذين استضعفوا أمراً ، لقد رأى الرسول هؤلاء أن يهاجروا إلى الحبشة بعد أن سمع عن النجاشي عدله وإنصافه ، فخرج إلى الحبشة نفر من المسلمين ، على ما في هذه الرحلة من ألم الفراق ووعناء الطريق وعذاب الغربة .

ولكن قريشاً لم ترض أسلم أن يقر آمناً ، وإن كان على أرض غير أرضهم ، فعين بلغهم أن المسلمين أصابوا بالحبشة داراً وقراراً يمشوا في إثرهم رجلين من من رجالهم وحملوها هدايا للنجاشي وبطارقته ، وكاد الرجلان أن يكدبا للمسلمين عند النجاشي ، ولكن النجاشي حين استمع لهما واستمع للمسلمين رد الرجاءين خائبين وترك المسلمين آمنين .

ويسلم حمزة بن عبد المطلب ، ويسلم عمر بن الخطاب ، وكانا رجلى بأس

ففرح لإسلامهم المسلمون وأسى لإسلامهم المشركون ، لما رأوه من انتشار الإسلام على الرغم مما يفعلون . وخال المشركون أنهم لم يبلغوا في الأذى ما يريدون فاثمروا بينهم أن يعمنوا في الإيذاء إلى حد لا يقوى المسلمون له ، فكتبوا فيما بينهم كتاباً تعاهدوا فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على أن يقطعوا ما بينهم وبينهم فلا تكون ثمة صلوات من زواج أو بيع أو شراء ، غير أن ذلك لم يجد شيئاً .

وفقد الرسول نصيرين عزيزين إلى نفسه كريمين عليه ، الواحد بعد الآخر ، قبل أن يهاجر إلى المدينة بنحو من ثلاث سنين ، فلقد فقد همه أبا طالب ، وكان نعم العون له ، كفه بعد وفاة جده عبد المطلب ، ووقف إلى جانبه منذ بعث بنصره ويرد عنه كيد المشركين ، وكان للمشركين بهابون أبا طالب فلم يقدموا على كثير مما كانوا يريدون ، وبعد أيام ثلاثة فقد زوجته خديجة بعد زواج دام أربعة وعشرين سنة وستة أشهر ، ولقد علت موقف خديجة من الرسول قبل أن يبعث وبعد أن بعث ، وكانت أول مسلمة وأول مناصرة ، دعت الرسول وقامت في موته أيام لاعون .

وكما حزن المشركون لإسلام حمزة ومهر فرحوا لموت أبى طالب وخديجة ، واشتطوا يعمنون في الأذى ، غير أن الرسول ما أبه لأذى المشركين وما قدع عن لقاء الناس في الأسواق يدعو لعقيدته .

وكان الإسماء الذى تم لئسلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم المراج إلى السماء . وفي تلك الليلة فرضت الصلاة على المسلمين ، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة .

ولسنا نحب أن نخوض فيما خاض فيه المبتعدون من قبل حول الإسماء

وللعراج ، أكان بالجسد أم كان بالروح ، واختلافهم داليل على أنه ليس نعمة
قول قاطع ، وعندى أن الخير في مثل هذه تقبل الصورة على إجمالها ، فنحن
ملزمون بالتصديق بالإسراء والعراج وأنها وقعا حقاً ، ولكننا غير ملزمين أن
نؤمن بالصورة التي وقعا بها ، مادامنا لا نجد أثراً يملئ إملاء صريحاً ، ونعمة
حقائق دينية منها هذه ، يجب أن نقف عند مدلولها ولا نقاش صورها ، وأى
شيء يعنى للؤمن من الرسول في هذه إلا أن يصدق بأنه أسرى به ، وأنه مع
هذا الإسراء فرضت الصلاة ، وأين نفوسنا وما تملك من نفوس الرسل
وما تملك ، وأين بصائرنا وما تحوز من بصائر الرسل وما تحوز ، ثم أين
مكان المنصور في حياة المادة من مكان السابح في شفاية المعنويات .

لقد أسرى بالرسول ، وخرج به ، مافى ذلك شك ، ولقد فرضت الصلاة
في تلك الليلة ، مافى ذلك شك ، بهذا حدثنا الرسول ونطق القرآن . ولو شاء
تفصيلاً زادنا ، ولكنها أمليانا مانعاً وما يهيننا وحسبنا عنا ما بعد ذلك .

ولعل نظرة المشركين للإسراء يناقشون صورته التي وقع بها هي إلى حفزت
للسلمين بعد أن يكدوا أنفسهم في هذا الخلاف ، وليست صورة الوحي تبعد كثيراً
عن صورة الإسراء ، ومن آمن بالأولى يؤمن بالثانية ، فكما اتصل محمد بربه في
تلك اتصل محمد بربه في هذه ، وكما تلقى محمد عن ربه في الأولى تلقى محمد عن
ربه في الثانية .

• • •

وحين ازداد المشركون إيذاء ازداد الرسول تعرضاً لقتبائل يعرض عليها
ما نزل عليه من السماء ، وبينما هو عند العقبة قريباً من مكة لقي نفرأ من

انخرج فرض عليهم الإسلام فأجابوه وأسلموا ورجعوا إلى قومهم في المدينة بالإسلام يدعونهم إليه .

حتى إذا كان العام للقبول لقي الرسول من الأنصار رجالاً آخرين فبايعوه على الإيمان به ، وفي الثانية الثانية كان الاتفاق بين الأنصار والرسول على خروج الرسول إلى المدينة ، واستوثق الرسول واستوثق له عهده العباس ، وكان حاضراً في هذا الاجتماع ، وكانت الهجرة إلى المدينة ، خرج إليها المسلمون وأقام الرسول بمكة يدبر لأمر خروجه .

وعلى الرغم من حيلة قريش خرج الرسول ومعه أبو بكر وركبا إلى المدينة ، وخرجت قريش في إثرهما تطلبهما ، فقوت الله عليهم ما يطلبون .

وكان خروج الرسول من مكة يوم الخميس في اليوم الأول من ربيع الأول ، وكان بلوغه المدينة لاثني عشرة ليلة خلت منه ، وكان ذلك ظهر يوم اثنين ، وكان همزه إذ ذاك ثلاثاً وخمسين سنة .

ولقد علم المسلمون أول ما علموا أن هذا البلاء زاد المسلم إلى الجنة ، وعصيته يوم القيامة ، وما على الرسول إلا البيان ، وأن عليهم التمسك لهذا البيان ، ونصر الله صنو جماد العبد وكفاحه وصبره ، على هذا رسالات السماء ، وعلى هذا رسل السماء إلى العباد ، يهبط الهدى حين تنتشر الظلمة ، ويتلقف الهدى رسول مختار ، يصطفيه الله صادقاً جليلاً صبوراً ، فإذا الناس معه على الطريق لهم مثل همه ، نصراً نصراً للحق ينصرونه بصدقهم وجلدهم وصبرهم ، لا يحرصون على الحياة ، ولا يفريهم متاعها ، وإذا هم حين يؤيدون رسالة السماء ، قدأيدتهم رسالة السماء ، وإذا الدنيا معهم على هذا الحق ، وإذا هم سادة الدنيا بهذا الحق .

على هذا عرف المسلمون محمداً ، وبهذا قدم محمد نفسه للمسلمين ، لم يطمعوا

في أن تكشف السماء عنهم ضرراً لم يشعروا لم تكشفه ، ولا في أن تزيع عنهم
السماء بلاء لم يتهيئوا لم لإزاحته ، كما لم يجعلوا كلمة التوحيد وحدها سلاحهم
على أعدائهم وعدتهم التي بها يقوون ، بل جعلوا هذه الكلمة هي البنية الأولى
في سرح إيمانهم ، وانضم بها بعضهم إلى بعض يتناصرون ، والرسول من
بينهم على عليهم ويشير .

على هذا عاهد المسلمون الله ، وعلى هذا عاهد المسلمون الرسول ، وعاهدوا
الله على أن ينصروا رسوله ، وعاهدوا الرسول على أن ينصروا رسالته ، ثم
عاهدوا أنفسهم على البذل للتكفين للرسالة ، لا يسألون الله نصراً قبل أن يسألوا
أنفسهم بذلاً .

وعلى هذا عاش منهم في مكة من أنس في نفسه قوة على احتمال الأذى
ولم يخش أن يفتن في دينه ، وهاجر منهم إلى الحبشة من لم يقو على احتماله
الأذى وخاف أن يفتن في دينه ، حتى إذا كانت الهجرة إلى المدينة لم ينظر
المهاجرون إلى وطن عزيز عليهم ، وأهل قريين إلى نفوسهم ، ومال هو قوام
حياتهم ، وإنما نظروا إلى عقيدة هي لهم الحياة كلها ووطناً وأهلاً ومالاً ، وسرمان
ما لحق بهم الرسول إلى المدينة ليبدأ بالمهاجرين معه من مكة وبالأَنْصار
أهل المدينة مرحلة جديدة من مراحل الدعوة كانت معها حروب ، وكانت
معها تضحيات ، وكان نصر الله صنو نصر المسلمين لرسوله ولرسالته ، وكتب
الله بجهاد المجاهدين لهذه الدعوة أن تستقر ، وكتب لها أن تدخل بهم مكة
فأعين ليمعوا كلمة الإِثم ويردوا أهلها إلى الهدى .



وفزا رسول الله بالمسلمين سبعاً وعشرين غزوة ، كما يثبت بعبثاً وأرجل
مرايا بلغت جميعها ثمانياً وثلاثين . وكانت هذه البعوت والسرايا والغزوات

كلها دفاعاً عن النفس وزياداً عن الحق ، فلقد لبث الرسول بالمسلمين منذ بدأت الدعوة ثلاث عشرة سنة داعياً إلى الله بالمعروف ، يعرض به كما يعرض بالمسلمين ، فلا يهنيه ولا يهينهم هذا التعريض ، ويؤذى للمسلمون بين يديه فيدعومهم إلى الصبر ولا يهيجهم إلى الشر ، وكان ذلك يظن عن ضعف حين كان للمسلمون ثلة فما بالك بهم بعد أن أصبحوا كثرة . وكم من أيام آب فيها الصعابة إلى الرسول وهم ما بين مشجوج ومضروب يستأذنونهم في أن يردوا عن أنفسهم أو يثاروا من ضاربيهم فما كان جواب الرسول لهم إلا قوله : اصبروا فإني لم أومر بقتالهم .

وكانت حكمة السماء في هذا الصبر أن يخرج الرسول بالأمة العربية من بدء على ود لم يكره عداً أو عدوان ، وكانت حكمتها في الإرخاء فيه إلى أن بلغ ثلاثة عشر عاماً أن تذر إلى من لم يسلموا ، ولم يكونوا غير أهل وإخوان ، الإعذار كله فلا تذر في أيديهم سبباً من أسباب اللوم ، ثم كانت حكمة السماء في هذا الصبر الطويل أن تخاق في المسلمين قوة الاحتمال والجلد والأناة والترفق ، إلى غير ذلك من صفات تموز النفوس المقبلة على مهام جسيمة ، وهل كانت رسالة الإسلام إلا رسالة جسيمة ؟

حق إذا ما أعذر المسلمون إلى إخوانهم وأبلغوا في الإعذار ، وصبروا وأمعنوا في الصبر ، لم يكن بد من أن تتولى حكمة السماء هؤلاء الصابرين بتدبير يحفظ عليهم صبرهم من أن ينفد ، ويحفظ عليهم وجودهم من أن يستقل ، وترعى لهم كياناتهم من أن يهان ، وما جاءت الدعوة الجديدة إلا لتعني هؤلاء وجودهم وكياناتهم ، لهذا أذن للرسول في أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين .

ونحن إذا تتبعنا الغزوات غزوة غزوة ، والسرايا سرية سرية ، والبعوث بعثاً بعثاً ، لا نجد لها خرجت جميعاً إلا لتدفع غزواً أو لترهب حتى تمنع غزواً .
فلقد خرج حمزة على أول بعث بعد سبعة أشهر من الهجرة ليلقي عيراً لقريش فيها أبو جهل قادمة من الشام ، وكان هذا البعث الأول نذيراً لقريش أنه يكفها عن غيرها ، لم يقصد فيه المسلمون إلا إلى هذا ، فحين دخل بين الفريقين رجل صلح كف للمسلمون أيديهم ولم يدخلوا في قتال .

وبعد شهر من هذا البعث خرجت سرية لتلقى أبا سفيان في نفر من أصحابه ، وكانت بين الفريقين مناوشة أصيب فيها سعد بن أبي وقاص بسهم من سهام المشركين ، فكان أول سهم أصيب به مسلم في الإسلام .
ثم كانت سرية سعد بن أبي وقاص التي خرجت تعترض عيراً لقريش ، فرت العير ولم تقع عليها السرية .

وعلى رأس اثني عشر شهراً من الهجرة خرج رسول الله وجمع من المسلمين يربدون ودان - الأبواء - حيث عبر لقريش ، وحيث بنو ضمرة الذين كانوا يمينون عليه . ورجع رسول الله بمن معه من هذه الغزوة بعد أن صالحته بنو ضمرة على ألا تعين عليه . ولقد قاتله عير قريش في هذه الغزوة كافات في غزوة بعدها هي غزوة بواط ، وكانت بعد شهر من غزوة ودان .

وبعد غزوة بواط كانت غزوة بدر الأولى التي خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدرك كرز بن جابر القرري ، وكان قد أغار على المدينة واستاق سرحاً لها . غير أن كرزاً قات جيش المسلمين فلم يدركوه .

وعلى رأس ستة عشر شهراً من الهجرة خرج حمزة بن عبد المطلب في نفر

من المسلمين يريدون عيراً لقريش قافلة من الشام ، وحين أدركوا المشيرة ، وجدوا أن العير فاتتهم .

وبعد شهر خرجت سرية في اثني عشر رجلاً تبغى نخلة ، وهو مكان بين مكة والطائف ، لترصد قريشاً وتعرف ما عندها ، غير أن تلك السرية التقت بعير لقريش فكان بينهما عدوان تورط فيه المسلمون وعادوا بقتل وأسرى ، وكانوا في رجب ، وهو شهر حرام ، فعاتبهم الرسول لما بها حين عادوا إليه .

ثم كانت غزوة بدر الثانية في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، وكانت بسبب تلك العير التي فاتت المسلمين في المشيرة ، وفيها كانت الحرب بين المسلمين والمشركين ، وفيها انتصف المسلمون من المشركين على الرغم من قلة عدد المسلمين وكثرة عدد للمشركين .

وبعد ليال سبع من مرجع المسلمين من بدر خرج الرسول يريد بني سليم ، وحين أحس بنو سليم بالمسلمين يطلبونهم ولوا هاربين .

وهكذا بدأت رهبة المسلمين تدب في قلوب المشركين ، وبعد أن كانوا قلة مستضعفين غدوا كثرة مرهوبين .

وهنا أحب أن أقف بك وقفة قصيرة ، فالحديث من هذه الغزوات والسرايا والبعوث ذو شقين ، ينتهي شقه الأول إلى ما قبل بدر الثانية ، ثم هو منذ بدر الثانية ذو شق آخر .

ولقد مر بك في هذا الشق الأول عرض لكل ما كان فيه من هذه السرايا والبعوث والغزوات ، ولقد رأيت فيها المسلمين قد شملوا لإثبات وجودهم واظهروا في مظهر القوى بعد أن عاشوا في مظهر المستضعف ، وأن ذلك كان منذ أن استقرت أقدامهم في المدينة بقليل ، وأنهم لم يلبثوا غير سبعة أشهر في المدينة كان بعدها خروجهم لهذا الإعلان عن قوتهم .

والمدعوات معجزة بقدر ما هي مستأنية ، تستأني وتعطيل الاستثناء ما وجدت في هذا الاستثناء الخبير ، وتعجل فتسرع إلى المعجزة ما وجدت في هذه المعجزة الخبير . ولقد تلبث الرسول بمن معه من المسلمين ثلاثة عشر عاماً - كما قلت لك - لا يحب أن يخرج بالمسلمين عن الصبر والاحتياط لأسباب يفتها لك ، حتى إذا ما نفذت حكمة الصبر كانت حكمة الخروج عن الصبر .

ولقد خرج المسلمون من المدينة في تلك السرايا والبعوث والغزوات ليثبتوا للملأ من حولهم أنهم خرجوا عن صبرهم ، وليثبتوا للملأ من حولهم أنهم قوة تلك أن تذهب .

ولا غرو أن نرى هذا الشق الأول كله ينفى في التعرض لغير بعد غير ، فلقد كان هذا أسلوب ذلك العصر في الإرهاب ، وما أراد المسلمون غير أن يهابوا ويرهبوا وأن يبادلوا جيرانهم هذا الأسلوب الإرهابي .

ولم يكن فيه عليهم غضاظة ، فلقد رأيتهم في كل ما فعلوا لم يقصدوا إلا الإعلان عن خروجهم ، ولقد فاتهم المير في الكثير من خرجاتهم ، وحين التقوا بخصومهم مرة كان هذا الصلح الذي تم بين حمزة وأبي جهل في البعث الأول ، ثم لقد رأيت كيف عاتب الرسول أصعابه على ما كان منهم في نخلة . إذن لم يكن صحيحاً ما اتهم به للفرضون محمداً وأصعابه عن هذا الشق الأول من الحروب بأنها كانت للسلب ، فلقد رأيت معي كم سلب المسلمون فيها وكم عيراً لقوا . والصحيح كما ثبت لك أن هذه الحروب - إن صح أنها كانت حروباً - لم يقصد منها المسلمون إلا الذي حدثتلك عنه ، وأنها لم تكن غير وثبة بعد صبر طويل ، وكانت وثبة تحمكي وثبات العصر في شيء وتحالفه في شيء ، تحمكيه في مظهرها الإرهابي وتحالفه في مظهرها السلمي .

ومنذ أن دخل المسلمون مع المشركين في غزوة بدر الثانية بدأ الشق الثاني من الحروب ، فلقد أخذت الحرب في هذا الشق الثاني مظهرها الحق ، فنشبت عليها الخصومة القائمة بين عقيدة وعقيدة ، وكان الخروج إليها خروجاً من أجل إثبات عقيدة ومحو أخرى ، واختفت تلك الأسباب الأولى التي أثارت حروب الشق الأول ، اختفى مظهر الإرهاب وما إليه من تتبع غير أو التعرض لها ، وبدأ مظهر التطاحن من أجل العقيدة ، وعلى هذا توالت غزوات الشق الثاني .

فكانت غزوة بني سليم التي حدثت عنها ، ثم غزوة بني قينقاع يهود المدينة ، وكانوا على غير صفاء مع المسلمين ، وبعد هذه الغزوة كانت غزوة السويق التي خرج فيها أبو سفيان ليثأر لبدر .

وحين رجع الرسول من غزوة السويق خرج يفرزو غطفان ، وكان قد بلغه أنهم أعدوا العدة لغزوه .

ثم كانت غزوة أحد التي خرج فيها المشركون ليثأروا من المسلمين بيوم بدر ، وفيها خالف رماة المسلمين أمر الرسول وتديروا فكانت الغلبة للمشركين .

وبلغ رسول الله عتب قفوله من « أحد » أن المشركين يهمون بالرجوع إلى المدينة بعد أن كسبوا شيئاً من النصر في أحد ، فخرج الرسول بأصحابه الذين كانوا معه في أحد وحدهم إلى حراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة حتى لا يطمع فيه عدوه .

وفي ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة كانت غزوة بني النضير من يهود المدينة ، وكانوا قد كادوا للرسول وهموا بقتله .

وبعد هذه الغزوة بنحو من شهرين خرج رسول الله إلى غزوة ذات الرقاع ليفزو قوماً من غطفان كان قد بلغه عنهم أنهم جمعوا جموعاً لمحاربته .
ثم كانت غزوة بدر الأخرى ، وقد كان أبو سفيان حدد موعدها بعد بدر الثانية ، غير أنه خشى بأمن المسلمين فلم ينهض إليهم .

ولمثل ما خرج إليه الرسول يوم ذات الرقاع كان خروجه إلى دومة الجندل — مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وتبعد عن المدينة خمس عشرة ليلة — فلقد باغ الرسول أن قوماً يعسفون ، وأنهم على أن يعتدوا بعسفهم إلى المدينة ، فخرج إليهم فإذا هم يفرون ، فماد للمسلمون وقد غنموا شيئاً .

ولمثل هذا أيضاً كان خروج الرسول إلى المريسع .

واتفقت كلمة اليهود مع كلمة المشركين على أن يفزو معهداً في المدينة مجتمعين ، فكانت غزوة الخندق التي حفر فيها الرسول خندقاً حول المدينة يحميها من هذا الهجوم ، ولقد كتب فيها النصر للمسلمين وارتد المشركون عن المدينة مدحورين .

ولم يكن بد من أن يأخذ المسلمون اليهود بمناصرتهم لقريش في غزوة الخندق ، فما كاد المشركون يرتدون عن المدينة حتى خرج المسلمون لغزو بني قريظة وإملاء شروطهم عليهم .

وكانت بعد هذه غزوات وسرايا ، كان الخروج إليها لمثل تلك الأسباب التي مرت بك ، إلى أن كان أمر الحديبية حين خرج رسول الله يريد مكة بعد ست سنوات من الهجرة وحيث كانت الصالحة بينه وبين قريش على أن يرجع عنهم علمهم هذا .

وفي السنة السابعة من الهجرة كانت غزوة خيبر حيث اجتمع اليهود على حرب المسلمين ثم فتحها .

وبين غزوة خيبر سنة سبع وفتح مكة سنة ثمان كانت سرايا وغزوات لرد عدوان أو كبت خصومة . وفتح مكة عاد الإسلام إلى موطن الرسالة ومكان البيت ، وقضى على كلمة الشرك القضاء الأخير بعد أن اقتحم عليه معقله .

ولقد خاض المسلمون بعد فتح مكة حربيين حملوا عليهما ، كانت أولى هاتين الحربين غزوة حنين التي تهيأت فيها موازن لحرب الرسول ، وكانت بينهم وبين المسلمين حرب طاحنة كتب فيها النصر أخيراً للمسلمين . وتهمت هذه الحرب حرب ثانية كانت امتداداً للحرب الأولى وهي غزوة الطائف .

وكانت بعد غزوة الطائف سرايا من نوع ما سبق من سرايا ، إلى أن كانت غزوة تبوك سنة تسع وكانت آخر غزواته صلى الله عليه وسلم ، وكان قد خرج فيها للقاء الروم ، ولم يكن لقاء .

وإن نظرة إلى جيش المجاهدين المسلمين عند أول بعث خرجوا له ، وعند آخر جيش تعبثوا له ، ندرك كيف بدأ المسلمون وكيف انتموا ، فلقد كان بعث حزة ثلاثين راكباً وكان جيش تبوك ثلاثين ألفاً ، وكانت الخيل فيه عشرة آلاف .

وهكذا خلقت العقيدة من القلة كثرة ، ومن الضعف قوة ، وبعد أن كان للؤمنون قلة مستضعفين غدوا كثرة مرهوبين . وكان نصر الله في ظل راياتهم أنى تحقق ، ومع خطوات جيوشهم أنى تسير .

وفي ذى الحجة من السنة العاشرة للهجرة حج الرسول بالمسلمين حجة الوداع وفيها خطب الناس خطبته البقاء التي رسم الناس فيها الحدود وذكروهم بعالم الدين ، وفيها ودع الناس وكأنه يحس أنه ملاق ربه .

وفي أواخر صفر من السنة الحادية عشر للهجرة أخذ للرض رسول الله ولبت مريضاً أياماً ، يقدرها بعضهم بسبعة أيام ويقدرها بعضهم بثلاثة عشر يوماً .

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من تلك السنة - أعني السنة الحادية عشرة للهجرة - قبض رسول الله عن ثلاث وستين سنة قربة .

وكانت أعوام بعثته ، منذ بعثه الله إلى أن قبضه إليه ، نحواً من ثلاثة وعشرين عاماً ، قضى أكثرها وما يزيد على نصفها في مكة تسانده زوجته خديجة إلى أن ماتت قبل الهجرة إلى المدينة بنحو من أعوام ثلاثة .

وفي المدينة عاش الرسول نحواً من أحد عشر عاماً وقعت فيها الغزوات كلها ، والسرايا والبعوث كلها ، وعلى الصحيح في تسع منها ، لأن أول بعث كان في السنة الثانية من الهجرة . ولقد علمت من قبل أن مجموع تلك الحروب كانت نحواً من خمس وستين ، لتعلم هنا أن نصيب كل عام من تلك الأعوام من هذه الحروب بلغ السبع ، أي أنه صلى الله عليه وسلم كان له في كل شهر تدير جيش ولقاء عدو ، هذا إلى تلك التشريعات الكثيرة التي وضعها عن أمر ربه والحدود التي بينها بوحى من ربه ، ثم ما بين هذا وذاك من لقاء وفود ولقاء أفراد ، وكتب إلى الملوك والأمراء ، وقيام بأمور المسلمين جميعاً ، وما كان أكثرها .

تري في ظل هذا كله كيف كان الرسول يفرغ لشأنه ، وكم من ساعات

يومه كانت له خالصة ، ونحن نعلم ، إلى هذا الذي ذكرناه له من واجبات ،
واجبات أخرى ، وكانت لربه يختصها بالعبادة .

هذه هي حياة أعوام تسعة رأيت كيف ملأت الواجبات الثقال صفعاتها ،
ورأيت كيف شغل فيها الرسول بتدبير شئون العقيدة شغلا متصلا .

ومن الغريب أن هذه الأعوام التسعة التي لانكساد نجم فيها بين ساعاتها
ساعة كانت للرسول خاصة ، هي الأعوام التي يتناول الثقلون فيقولون :
إن الرسول عاش فيها لثاقه بثلاث عشرة امرأة .

وهذا التناول يرد ما قدمت ، ويرده أن الرسول في شبابه لم تعهد عليه
ربية ، فقد بنى على خديجة وهو في الخامسة والعشرين وهي في الأربعين ، وبقي
معهما إلى أن توفاهما الله قبل الهجرة بأعوام ثلاثة كما مر بك ، وكان عمره
إذ ذاك خمسين سنة .

وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة هي سودة بنت زمعة ،
وكانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو ، وكان السكران هو وزوجته من
مهاجرة الحبشة ، وحين رجع زوجته من الحبشة إلى مكة مات بها ولم يكن له
عقب يرعى سودة فتزوجها الرسول .

ولم يتزوج الرسول بكراً غير عائشة بنت أبي بكر وبني بها بالمدينة ،
كما تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكانت تحت خنيس بن حذافة
السهمي ، ثم مات خنيس فعرضها عمر على أبي بكر فلم يحب ، ثم عرضها على
عثمان فسكت ، ورأى للرسول الأسى في وجه عمر فضم حفصة إليه .

وضم إليه الرسول زينب بنت خزيمة بعد أن قتل منها زوجها عبد الله
ابن جعش يوم أحد .

وضم إليه بنت عمته زينب بنت جحش ، وكانت من قبله زوجة لمولاه
زيد بن حارثة .

وبعد زينب ضم إليه الرسول أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، وكانت
هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة بعد أن أسلم ، ثم تنصر
زوجها هناك في الحبشة ومات بها ، وأبت هي أن تنصر وبقيت على إسلامها
فتزوجها الرسول وهي بالحبشة .

وضم إليه الرسول أم سلمة هند بنت أبي أمية ، وكانت هي الأخرى
من مهاجرات الحبشة توفي عنها زوجها وخلف لها ولدين وبنتين .

وضم إليه الرسول خالة خالد بن الوليد ميمونة بنت الحارث ، وكانت
قبله عند أبي رهم العامري .

وضم إليه رسول الله صفية بنت حيي بن أخطب ، وكانت زوجة لسلام
ابن مشكم اليهودي ، ثم لسكنانة بن أبي الحقيق ، فقتل عنها كفارة يوم خيبر .
وضم إليه رسول الله جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وكانت في سبي
غزوة المصطلق ، وما إن علم المسلمون بزواج الرسول منها حتى أطلقوا ما في أيديهم
من بنى المصطلق ، وقد بلغ عدد من أعتقوا مائة .

وأنت ترى أن اثنتين منهن ، وهما عائشة وحفصة ، كانتا ابنتي صحابيين
جليلين هما أبو بكر وعمر ، وأن ثلاثاً منهن كن من المهاجرات إلى الحبشة
اللاتي فقدن أزواجهن ، وهن : سودة ، ورملة ، وهند ، وأن واحدة منهن ،
وهي زينب بنت خزيمة ، قتل عنها زوجها يوم أحد ، وأن واحدة منهن ،
وهي ميمونة بنت الحارث كانت خالة لخالد بن الوليد الفارس المعروف ،
وكان بناء الرسول بها مع دخول خالد في الإسلام ، وأن واحدة منهن ،

وهي جويرية بنت الحارث ، قرب الرسول يثناؤه بها ما بين للصطلق والمسلمين .
وأن واحدة منهن ، وهي بنت عمه زينب بنت جحش ، كان بناؤه بها
تشريفاً في الإسلام في إبطال جمل الموالى لهم حكم الأبناء .

وأن واحدة منهن ، وهي خولة بنت حكيم ، كانت قد وهبت نفسها للذي .
وأما عن صفية بنت حيي اليهودية فلقد كادت تثير لجأجا بين المسلمين
حين وقعت في نصيب دحية بن خليفة الكلبي ، فحسم الرسول هذا الخلاف
يثناؤه بها ، وكانت من بيت رباسة في اليهود .

أرأيت إلى الرسول ومن بني بهن وكيف بني بهن ، ثم أرأيت إلى أن
هذا كله كان في تلك الأعوام التي أحيطت بالشدائد وكان عبء تدبير
هذا كله على عاتقه . ثم استمع لتعلم كيف كان الرسول في حياته ، لقد كان
زاهداً في دنياه غليظاً على نفسه في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه ، وكثيراً
ما كان يجتري بالخبز والماء .

وكم كانت الشهور تمضي دون أن توقد في داره نار لطهى ، وكثيراً
ما رثى وهو يرفو ثوبه بيده ، وكان صلى الله عليه وسلم يرقد ليس بينه وبين
الأرض إلا حصير قد أثر بجانبه ، وتحت رأسه وسادة من آدم محشوة
ليفاً ، وكانت بيوته من لبن ، والحجر من جريد النخل على أبوابها المسوح
من شعر أسود ..

ولقد دخلت امرأة من الأنصار على عائشة فرأت فراش رسول الله صلى الله
عليه وسلم عبادة مثنية فانطلقت فبعثت إليها بفراش حشوه صوف ، فدخل
عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذا؟ فأخبرته ، فأمرها بردها ثلاثاً ، فلم
تفعل ، فقال لما صلى الله عليه وسلم: يا عائشة لو شئت لأجري الله معي جبال الذهب

والفضة ، ثم هو بعد هذا كان القوام الصوام المتبتل . فأية دنيا تلك التي أرادها الرسول بهذا الزواج ؟ وإن حياة الرسول الأولى لتتلى عليه حياته الثانية ، ولقد كان الرسول عفاً في شبابه ، عفاً في زواجه من خديجة ، أثقل أعباء مع عفته في حياته الأخيرة .

صفحات من جهاد طويل متصل أخرج بها محمد الجزيرة العربية من عمالة الضلال إلى نور الحقيقة ، ومن رجس الشرك إلى طهر الإيمان ، ومن آثام الباطل إلى صالحات الأعمال .

فإذا الجزيرة العربية على دين الإسلام تؤمن برب واحد حق بعد أن كانت موزعة بين أرباب كثيرة زائفة ، برأت من الأوثان والأصنام وكانت آفة للعقل ، واطرحت وأد البنات وكانت سبة الأبد ، وعفت عن الآثام وكانت فارقة فيها للأذقان ، واستقامت على الطريق لتحمل راية الدعوة تبشر بها الآفاق فإذا هي بعد قليل قد أظلت برايتها بقاعاً لا تحصى وخائفاً لا يعد .

تلك حياة الرسول أجهلت لك مآثرها ومآثم منها ، وما تم هذا كله بعيداً عن تدبير السماء ، وما تم هذا كله إلا عن وحى متصل يلى على الرسول بكرة وعشياً فيمليه هو على قومه .



وهذا الوحي الذي تلقاه الرسول من ربه وتلقاه المسلمون عن رسولهم إلى أن قبضه الله إليه ، هو هذا الكتاب الكريم الذي جمع للمسلمين دينهم ، وجمعهم على دينهم ، وحفظ لهم حياتهم أمة مسلمة ، وحفظهم على حياتهم أخوة مسلمين .

وما من شك في أن هذا الكتاب الكريم يحمل معجزة ثانوية خالدة
بخلوده ، فلقد كانت معجزته الأولى في بيانه الذي خرست معه الألسنة فما
تنطق ، وفي فصاحته التي شذت معها الأفئدة فأتى ، وسوف يظل هذا البيان
وتلك الفصاحة حجة على العالمين .

تلك كانت معجزة القرآن الأولى يوم طالع الرسول العرب ، وهم مام
ببائنا وفصاحة ، فنحروا لها ساجدين وأذهنوا لها مسلمين .

أما عن معجزته الثانية فهي في حمايته أمة من أن تشيع في أمم ، ولغة من
أن تذوب في لغات .

فما نعرف شيئاً حتى اللغة العربية من الضياع - مع تلك الأزمات العاصفة
التي مرت بها والتي كم أودت مثيلات لها من لغات وبلبات من السنة - غير هذا
الكتاب الكريم ، أبعدت ما أبعدت الشعوب العربية عن الكلام بلغتها
العربية وكان هو سردها إليها ، كلما أوشكت أن تنقسم صلتها بها وبطها
هو بها .

وهكذا عاشت الأمة العربية بعيدة بكل ما في يديها عن لغتها قريبة
بهذا الكتاب وحده إلى لغتها .

وحين حتى هذا الكتاب اللغة لأهلها حتى هؤلاء من أن يتفرقوا أيدي
صباً ، فلو أن الزمن بلبل ألسنتهم أمما مختلفة ذات السنة مختلفة ما وجدت بينهم
هذه الصلة الضامة من اجتماع على تراث خالده ، كان هو بمثابة الأب الروحي
الذي يصل بين الأرواح والنفوس والقلوب .

ويكذبك من ينكر عليك أثر اللغة في التقريب بين شعوب مختلفة الجنس ، فما بالك بشعوب يكاد يجمعها جنس واحد .

وكما حفظ هذا الكتاب الكريم هذا المقوم للأمة العربية ، وهو اللغة ، حفظ مقوماً آخر هو الدين ، فلقد عاش هذا الكتاب على الألسنة وفي القلوب فوق ما هو مكتوب بسمع وببلى في أوقات متلاحقة متصلة ، لا يكاد الناس ينسون حتى يتذكروا ، ولا يكادون يبعدون حتى يقربوا ، فإذا هم على دينهم كما هم على لغتهم ، وإذا هذه اللغة وذاك الدين بمسكان الأمة العربية فلا تفضل عنها لغتها ولا تفضل هي عن دينها .

ولا غرو أن كانت للمسلمين به عنايات مقصلة طالت وتنوعت ، وهذا أوان ضم هذا كله في سرد مختصر جامع يعرف به المسلم ما يعصل بقرآنه في سر يسر ، دون أن يفوته شيء أو يبهيم عليه أمر .



الباب الثاني
تَارِيخُ الْمُسْلِمِينَ الْكَلِيمِ

١ - أمية الرسول

أقد كان محمد صلوات الله عليه أمياً لا يعرف أن يقرأ ولا يعرف أن يكتب ، مافى ذلك شك ، بذلك على ذلك اتخذاه بعد أن أوحى إليه كتاباً يكتبون عنه الوحي ، منهم : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وأبي بن كعب بن قيس ، وزيد بن ثابت ، وسماوية بن أبي سنيان ، وعبد بن مسلمة ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وأبان بن سعيد بن العاص ، وأخوه خالد بن سعيد ، وثابت بن قيس ، وحنظلة بن الربيع ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن الأرقم ، والحلاء بن عتبة ، ولأخيرة بن شعبة ، وشرحبيل بن حنثة . وكان أكثرهم كتابة عنه : زيد بن ثابت ، وسماوية^(١) .

كما بذلك على ذلك أيضاً ما ذكره للورخون عند الكلام على غزوة « أحد » أن العباس وهو بمكة كتب إلى النبي كتاباً يخبره فيه بتجمع فريش وخروجههم ، وأن العباس أرسل هذا الكتاب مع رجل من بني غفار ، وأن النبي حين جاءه الفخاري بكتاب العباس استدعى أبي بن كعب — وكان كاتبه — ودفع إليه الكتاب يقرأه عليه ، وحين أنهى « أبي » من قراءة الكتاب استكتفه النبي .

ولو كان النبي غير أمي لسكنى نفسه دعوة « أبي » لقراءة كتاب العباس في أمر ذي بال . وثمة ثلاثة يذكرها الورخون أيضاً عند قتلهم وفد ثقيف على النبي ، فلقد سألوا النبي حين أسلموا أن يكتب لهم كتاباً فيه شروط ، فقال لهم : أكتبوا ما بدا لكم ثم أقتوني به . فسألوه في كتابهم أن يحل لهم الربا والزنا . فأبى علي بن أبي طالب أن يكتب لهم . فسألوا خالد بن سعيد بن العاص أن يكتب لهم . فقال له علي : تدرى ما تكتب ؟ قال : أكتب ما قالوا ورسول الله أولى بأمره . فذهبوا بالكتاب إلى رسول الله فقال للفخاري : اقرأ . فلما أنهى إلى الربا ، قال له الرسول : ضع يدي عليها . فوضع يده . فقال « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا^(٢) » ثم تحاها . فلما بلغ الزنا وضع يده ثم قال : « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا^(٣) » ثم تحاها ، وأمر بكتابتها أن ينسخ لنا^(٤) .

(١) تاريخ دمشق

(٢) الإسراء : ٣٢

(٣) البقرة : ٢٧٨

(٤) أسد الغابة ترجمة (نجم بن جراحه)

واقف عن الباحثون على الكتابين المرسلين من النبي إلى القوقس وإلى المنذر بن ساري ، والكتب الأولى محفوظة في دار الآثار النبوية في الآستانة ، وكان قد عثر عليه عالم فرنسي في دير بمصر قرب أخميم ، والكتاب الثاني محفوظ بمكتبة فيينا .

ومن قبل هذه الأدلة بقول تعالى في الرسول : (الَّذِينَ يَدْعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ)^(١) . ويقول تعالى في الرسول أيضاً : (وَمَا كُنْتُمْ تَقْنَلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ)^(٢) .

ولم تسكن البيئة العربية على هذا بيئة كتابية قارئة ، بل كان ذلك فيها شيئاً يمد ويحمي ، وكان حظ المدينة من ذلك دون حظ مكة ، ولم يكن في المدينة حين هاجر إليها الرسول غير بضعة عشر رجلاً يعرفون الكتابة ، منهم : سميد بن زبارة ، والمنذر بن عمر ، وأبي بن وهب ، وزيد بن ثابت ، ورافع ابن مالك ، وأوس بن خولي . ولقد أحس الرسول ذلك بعد هجرته إلى المدينة ، فكان أول ما فعله بعد انتصاره في بدره وأمره من أسر من رجال قريش القارئيين ، أن جعل فدية هؤلاء أن يؤم كل رجل منهم عشرة من صبيان المسلمين ، وبهذا بدأت الكتابة تروج سوتها في المدينة .

حتى إذا كان عهد عمر بن الخطاب أمر بجمع الصبيان في للكتب ، وأمر عبد عامر بن عبد الغزاعي أن يمهدهم بالتعليم ، وجعل له رزقاً على ذلك بتقاضاه من بيت المال .

وكان المعلم يجلس للصبيان بعد صلاة الصبح إلى أن يرتفع الضحى ، ومن بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر .

وحين خرج عمر إلى الشام وغاب عن المدينة شهراً أستوحش إليه الناس ، وخرج صبيان الكتب للقائه على مسيرة يوم من المدينة ، وكان ذلك يوم الخميس ، ورجعوا معه إلى المدينة يوم الجمعة ، وقد انقطعوا عن الكتب يومين أجازها لم عمر ، وكانت بعد ذلك عادة متبعة^(٣) .

وحين اختار الله لرسالة « محمد » اختار فيه صفات حسنة وصفات معنوية . أمداهما به وطبه عليهما ، فوهبه من الأولى نفساً قوية ، وروحاً عالية ، وقلباً كبيراً ، وذهناً وقادراً ، وبصيرة غاذة ، ولساناً مبيناً ،

(٢) المنكوت : ٤٨

(١) الأعراف : ١٥٦

(٣) عنوان البيان - القواعد الدواني على رسالة أبي زيدون البهرواني .

وفسراً واعياً ، وروحه من الثانية صدق لسان ، وطهارة ذيل ، وعفة بصر ، وأمانة يد ، ورحمة قلب ، ورفقة وجدان ، ونبل عاطفة ، ومضاء عزيمة ، ورحمة للناس جميعاً .

وكان اختيار الله له أمياً لا يقرأ ولا يكتب يُضيف إلى إذهاب الناس له وإيمانهم برسالاته سبباً يفسره تعالى في قوله : (وَمَا كُنْتُمْ تَقْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّوا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ)^(١) . ويُدبِّرُ حُدُودَ هَذَا الْوَحْيِ عَلَى لِسَانِهِ بِتَلْوِهِ عَلَى قَوْمِهِ بِكُرَّةٍ وَعَشْرًا ، وَلَا يُبَدِّلُ فِيهِ وَلَا تَغْيِيرَ ، وَمَا يَقْوَى عَلَى مِثْلِهَا إِلَّا مَنْ يَمْلِكُ أَسْفَارًا يَعُودُ إِلَيْهَا لِيَسْتَظْهَرَ مَا فِيهَا .

وليس في منطق الرسائل أن تكون الحجة للناس عليها ، بل لا تُطالَعُ للناس إلا والحجة لها عليهم ، كما لا تُطالَعُهم إلا وفي صفحاتها الجواب على كل ما يصوره لهم تصوُّرهم ، تُعْطِطُ السَّمَاءُ رِسَالَتَهَا بِهَذَا كَلَمَةِ لَكَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ، وَلِيَكُونَ مَنْطِقُ الرِّسَالَاتِ مِنْ مَنْطِقِ النَّاسِ ، لَا تَلْتَوِي عَلَيْهِمُ الرِّسَالَةُ فَيَلْتَوُوا بِهَا عَلَيْهِمْ .

ولم يكن اختيار محمد صلى الله عليه وسلم قارئاً وكتائباً شيئاً يَمُرُّ عَلَى السَّمَاءِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ شَيْئًا إِنْ تَمَّ بِهِوْنٌ مِنْ حُجَّةِ السَّمَاءِ فِي نَفْسِ النَّاسِ ، وَكَانُوا عِنْدَهَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَقُولُوا بِاطْلَافٍ مَحْرُصٍ الْقُرْآنَ عَلَى الْإِلَهِ يَقُولُوه : مَنْ أَنْ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ قَدْ أَخَذَهُ مِنْ أَسْفَارٍ سَابِقَةٍ .

وهذه التي الرمتها حجة السماء السلف من قبل ، فأذعنوا لها عن رعي وبهر — وأعنى بها أمية الرسول — أراد أن يُبْرِرها نَفَرٌ مِنْ ائْتِلَافٍ مِنْ بَعْدٍ لِيُخْرِجُوا عَلَى حُجَّةِ السَّمَاءِ عَنْ غَيْرِ رَعْيٍ وَلَا بَعْرِ .

غير أنا نفيد من هذا الذي يريد ائْتِلَافُ أَنْ يُشِيرُوهُ تَأْكِيدَ الْمَعْنَى الَّذِي قَدَّمَاهُ مِنْ أَنَّ حُجَّةَ السَّمَاءِ نَجِيَّةٌ أَشْمَلُ مَا تَكُونُ بِشُكُوكِ الْعُقُولِ ، مُحِيطَةٌ بِكُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهَا ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ .

وقد تَنَسَّى ، مع هؤلاء المخالفين الطاعنين ، تقرير القرآن الصادق عن أمية محمد والادِّة القائمة في ظِلِّ الْقُرْآنِ عَلَى ذَلِكَ ، قَدْ تَنَسَّى هَذَا وَذَلِكَ لِنَسَائِلِهِمْ : أَيْ جَدِيدٌ يُقَدِّمُ هَذَا — إِنْ صَحَّ — وَقَدْ مَضَى عَلَى رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ مَا يَتَقَرَّبُ مِنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا خَطَأً فِيهَا الْعِلْمُ وَالْبَحْثُ سَطَوَاتٍ تَمْرِيقَةً ، وَمَا وَجَدْنَا شَيْئًا يَنْبَأُ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ قُرْبٍ أَوْ مِنْ بَعْدٍ ، جَهْرًا أَوْ سِرًّا مِنْ يَرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوا مُحَمَّدًا قَارِئًا كَاتِبًا ، وَأَنْ يَجْعَلُوا مِنْ هَذَا سَبِيلاً إِلَى أَنَّهُ تَقَلَّ عَنْ أَسْفَارٍ سَابِقَةٍ .

٢ - نزول الوحي :

وقد تقدم أن ابتداء نزول الوحي كان في السابع عشر من رمضان ، من السنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول ، وأن قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِإِلَهِكُمْ أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْعَبْدَانِ^(١)) يُشير إلى ذلك ، فاللقاء الجمين — أعني للمسلمين والمشركون ببدر — كان في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وفي مثلها من السنة الحادية والأربعين من مولده كان ابتداء نزول الفرقان ؛ ينضم إلى هذه الآية قوله تعالى : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ^(٢)) .

والصحيح أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى : (اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ^(٣)) ، ثم كانت فترة الوحي التي أشرنا إليها من قبل والتي مكنت سنين ثلاثاً . وبعدها أخذ القرآن ينزل على الرسول مُنْجِماً ، فنزلت : ن والقلم ، ثم للزمل ، ثم : للدثر ، إلى غير ذلك مما نزل مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة ، مُنْذُ بُعث إلى أن هاجر ، وكان ذلك أنقضى عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، أي منذ اليوم السابع عشر من رمضان من سنة إحدى وأربعين من مولده إلى اليوم الأول من شهر ربيع الأول من سنة أربع وخمسين من مولده .

وقد ذكر ابن النديم بإسناده عن محمد بن نعمان بن بشير السور على ترتيب نزولها المكي والمدني ، وقد عرض لهذا أيضا البقاعي إبراهيم بن عمر (٨٨٥ هـ) في كتابه « نظم الدرر في تناسب الآي والسور » .

غير أن بين ما ساق ابن النديم وبين ما ساق البقاعي خلافاً .

ونمة جداول تنظم ترتيب ابن النديم المكي ثم المدني ، كما تنظم ترتيب البقاعي المكي والمدني ، ومن السابقين نستطيع أن نقبين هذا الخلاف :

٣

(١) الأفعال : ٤١ .

(٢) البقرة : ١٨٥ .

(٣) الملق : ١ .

١ - ترتيب نزول السور كما رواها ابن النديم

(١) المكية

الرقم	السورة	الرقم	السورة
١	اقرأ باسم ربك الذي خلق ، إلى قوله : علم الإنسان ما لم يعلم	٢٥	والشمس وضحاها
٢	ن والقلم	٢٦	والنجم ذات البروج
٣	يا أيها المزمل - وآخرها بطريق مكة	٢٧	والنجم والبروج
٤	القدر	٢٨	إيلاف قرين
٥	نبت يد أبي لهب	٢٩	القارعة
٦	إذا الشمس كورت	٣٠	لا أقسم يوم القيامة
٧	سبح اسم ربك الأعلى	٣١	ويل لكل همزة
٨	ألم نشرح لك صدرك	٣٢	المرسلات
٩	والعصر	٣٣	ق والقرآن
١٠	والبحر	٣٤	لا أقسم بهذا البلد
١١	والضحى	٣٥	الرحمن
١٢	والليل	٣٦	قل أوحى
١٣	والغاديات ضحياً	٣٧	يس
١٤	إنا أعطيناك الكوثر	٣٨	المص
١٥	المهكم	٣٩	تبارك الذي نزل الفرقان
١٦	أرأيت الذي	٤٠	لللائلة
١٧	قل يا أيها الكافرون	٤١	الحمد لله فاطر
١٨	ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل	٤٢	مريم
١٩	قل هو الله أحد	٤٣	طه
٢٠	قل أعوذ برب الفلق	٤٤	إذا وقعت
٢١	قل أعوذ برب الناس (وقين : إنها مدنية)	٤٥	طسم (الشعراء)
٢٢	والنجم	٤٦	طس
٢٣	عبس وتولى	٤٧	طسم (الآخر)
٢٤	إنا أنزلناه	٤٨	بن إسرائيل
		٤٩	هود

الرقم	السورة	الرقم	السورة
٥٠	يوسف	٦٩	الأنعام (فيها آية مدنية)
٥١	يونس	٧٠	التين (آخرها مدني)
٥٢	الحجر	٧١	نوح
٥٣	الصافات	٧٢	إبراهيم
٥٤	طه (آخرها مدني)	٧٣	الحج
٥٥	قد أنشع المؤمنون	٧٤	الطور
٥٦	سأ	٧٥	تبارك الذي بيده الملك
٥٧	الأنبياء	٧٦	الحاقة
٥٨	الزمر	٧٧	سأل سائل
٥٩	حم (المؤمن)	٧٨	عم يتساءلون
٦٠	مهم (السجدة)	٧٩	النازعات
٦١	حم . علق	٨٠	إذا السماء انشطرت
٦٢	حم (الزخرف)	٨١	إذا السماء انشقت
٦٣	حم (الدخان)	٨٢	الروم
٦٤	حم (الشرح)	٨٣	الغاشية
٦٥	حم (الأحقاف) (فيها آية مدنية)	٨٤	ويل للمطففين (ويغال : إنها مدنية)
٦٦	والذاريات	٨٥	اقتربت الساعة وانشق القمر
٦٧	هل أنالك حديث الغاشية	٨٦	والسحاب والطارق
٦٨	الكهف (آخرها مدني)	٨٧	النحل (إلا : وإن عاقبتهم فعاقبوا بثلث ما عوقبتم به)

(ب) المدنية

١	البقرة	٧	إذا زلزلت
٢	الأعراف	٨	الحديد
٣	الأعراف	٩	الذين كفروا
٤	آل عمران	١٠	الرعد
٥	المتنعة	١١	هل أتى على الإنسان
٦	النساء	١٢	يا أيها النبي إذا طلقتم النساء

الرقم	السورة	الرقم	السورة
١٣	لم يكن الذين كفروا	٢١	يأبى النبي لم نحرّم
١٤	الطغر	٢٢	الجمعة
١٥	إذا جاء نصر الله والفتح	٢٣	التين
١٦	النور	٢٤	الحجرات
١٧	الحج	٢٥	الفتح
١٨	الناقصون	٢٦	الأنبياء
١٩	المجادلة	٢٧	التوبة
٢٠	الحجرات	٢٨	التوبة (على قول)

٢ - ترتيب نزول السور كما رواها البخاري

(١) المكية

١	الحمد (نزل بعد الدثر)	١١	الكهف (بعد النازية ، إلا آية ٢٨ ، ومن آية ٨٣ - ١٠١ فمدنية)
٢	الأفهام (نزل بعد الحجر ، إلا الآيات : ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ فمدنية)	١٢	مريم (بعد فاطر ، إلا آيتي ٥٨ ، ٧١ فمدنيتان)
٣	الأنعام (بعد نوح ، إلا من : ١٦٣ - ١٧٠ فمدنية)	١٣	طه (بعد مريم ، إلا آيتي ١٣٠ ، ١٣١ فمدنيتان)
٤	يونس (بعد الإسراء ، إلا الآيات : ٩٤ ، ٩٥ ، ٨٦ فمدنية)	١٤	الأنبياء (بعد إبراهيم)
٥	هود (بعد يونس ، إلا الآيات ١٢ ، ١٧ ، ١١٤ فمدنية)	١٥	التؤمنون (بعد الأنبياء)
٦	يوسف (بعد هود ، إلا الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ فمدنية)	١٦	الفرقان (بعد يس ، إلا الآيات ٩٨ ، ٩٩ ، ٧٠ فمدنية)
٧	إبراهيم (بعد نوح ، إلا الآيتين : ٨ ، ٢٨ فمدنيتان)	١٧	التعراء (بعد النافعة ، إلا الآية ١٩٧ ، ومن ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية)
٨	الحجر (بعد يوسف ، إلا آية ٧٨ فمدنية)	١٨	النمل (بعد التعراء)
٩	الزحل (بعد الكهف ، إلا الآيات الثلاث الأخيرة)	١٩	القصص (بعد النمل ، إلا من آية ٥٢ - ٥٥ فمدنية ، وآية ٨٥ فبالجدة أثناء الهجرة)
١٠	الإسراء (بعد القصص ، إلا الآيات ٢٩ ، ٣٢ ، ٥٧ ، ومن آية ٧٣ - ٨٠ فمدنية)	٢٠	العنكبوت (بعد الروم ، إلا ١١ فمدنية)
		٢١	الروم (بعد الانشقاق ، إلا ١٧ فمدنية)
		٢٢	آدمان بعد الصافات ، إلا الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ فمدنية)
		٢٣	السجدة (بعد المؤمنون ، إلا من ١٦ - ٢٠ فمدنية)
		٢٤	سبا (بعد آدمان ، إلا ٦ فمدنية)

الترقيم	السورة	الترقيم	السورة
٢٥	الفجر (بعد المرقان)	٥٢	المرسلات (بعد الحمزة ، إلا ٤٨ قذنية)
٢٦	يس (بعد الجن ، إلا ٤٥ قذنية)	٥٣	النبا (بعد الطارج)
٢٧	الصافات (بعد الأنعام)	٥٤	النازعات (بعد النبا)
٢٨	ص (بعد القمر)	٥٥	عبس (بعد النجم)
٢٩	الزمر (بعد سباء ، إلا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ قذنية)	٥٦	التكوير (بعد المد)
٣٠	غافر (بعد الزمر ، إلا آيتي ٥٦ ، ٥٧ قذنيان)	٥٧	الانفطار (بعد النازعات)
٣١	نصت (بعد غافر)	٥٨	الطهين (بعد العنكبوت ، وهي آخر سورة نزلت)
٣٢	الشورى (بعد نصت ، إلا الآيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ قذنية)	٥٩	الانشقاق (بعد الانفطار)
٣٣	الزخرف (بعد الشورى ، إلا ٥٤ قذنية)	٦٠	البروج (بعد الشمس)
٣٤	الدخان (بعد الزخرف)	٦١	الطارق (بعد البلد)
٣٥	الجاثية (بعد الدخان ، إلا ١٤ قذنية)	٦٢	الاعلى (بعد التكوير)
٣٦	الأحقاف (بعد الجاثية ، إلا الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ قذنية)	٦٣	الغاشية (بعد الداريات)
٣٧	ق (بعد المرسلات ، إلا ٣٨ قذنية)	٦٤	الفجر (بعد الليل)
٣٨	الداريات (بعد الأحقاف)	٦٥	البلد (بعد ق)
٣٩	الطور (بعد السجدة)	٦٦	الشمس (بعد القدر)
٤٠	النجم (بعد الإخلاص ، إلا ٣٢ قذنية)	٦٧	الليل (بعد الأعلى)
٤١	القمر (بعد الطارق ، إلا الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ قذنية)	٦٨	الضحى (بعد الفجر)
٤٢	الواقعة (بعد طه ، إلا آيتي ٨١ ، ٨٢ قذنية)	٦٩	الم نشرح (بعد الضحى)
٤٣	الملك (بعد الطور)	٧٠	التين (بعد البروج)
٤٤	القلم (بعد العلق ، إلا من ١٧ - ٣٣ ، ومن ٤٨ - ٥٠ قذنية)	٧١	العلق (وهي أول ما نزل من القرآن)
٤٥	الحاقة (بعد الملك)	٧٢	القدر (بعد عبس)
٤٦	المارج (بعد الحاقة)	٧٣	العاديات (بعد العصر)
٤٧	نوح (بعد التحل)	٧٤	القارعة (بعد قمر)
٤٨	الجن (بعد الأعراف)	٧٥	الناكث (بعد الكاثر)
٤٩	الزلزل (بعد القلم ، إلا ١٠ ، ١١ ، ٢٠ قذنية)	٧٦	العصر (بعد الم نشرح)
٥٠	الدثر (بعد الزلزل)	٧٧	الهمزة (بعد القيامة)
٥١	القيامة (بعد القارعة)	٧٨	الفيل (بعد الكافرون)
		٧٩	قريش (بعد التين)

الرقم	السورة	الرقم	السورة
٨٠	الماعون (بعد التكاثر ، الثلاث الآيات الأولى والبقية مدنية)	٨٣	المد (بعد الفاتحة)
٨١	الكوثر (بعد العاديات)	٨٤	الإخلاص (بعد الناس)
٨٢	الكافرون (بعد الماعون)	٨٥	التعلق (بعد القيل)
		٨٦	الحاقة (بعد التعلق)
(ب) المدينة			
١	البقرة (أول سورة نزلت بالمدينة ، إلا ٢٨١ نزلت بمنى في حجة الوداع)	١٣	الحجرات (بعد المجادلة)
٢	آل عمران (بعد الأنفال)	١٤	الرحمن (بعد الرعد)
٣	النساء (بعد المتحة)	١٥	الحديد (بعد الزلزلة)
٤	المائدة (بعد الفتح ، إلا ٣ نزلت بعرفات في حجة الوداع)	١٦	المجادلة (بعد الناقصون)
٥	الأنفال (بعد البقرة ، إلا من ٣٠ - ٣٦ فكية)	١٧	الحشر (بعد البينة)
٦	التوبة (بعد المائدة ، إلا الآيتين الأخيرتين فكيان)	١٨	المتحة (بعد الأحزاب)
٧	الرعد (بعد محمد)	١٩	الصف (بعد التغابن)
٨	الحج (بعد النور ، إلا ٥٢ و ٣٥ و ٥٥ و ٥٤ فبين مكة والمدينة)	٢٠	الجمعة (بعد الصف)
٩	النور (بعد الحشر)	٢١	الناقصون (بعد الحج)
١٠	الأحزاب (بعد آل عمران)	٢٢	التغابن (بعد التحريم)
١١	محمد (بعد الحديد ، إلا ١٣ نزلت في الطريق أثناء الهجرة)	٢٣	الطلاق (بعد الإنسان)
١٢	الفتح (بعد الجمعة ، وقد نزلت في الطريق بعد الانصراف من المدينة)	٢٤	التحريم (بعد الحجرات)
		٢٥	الإنسان (بعد الرحمن)
		٢٦	البينة (بعد الطلاق)
		٢٧	الزلزلة (بعد النساء)
		٢٨	قنصر (آخر ما نزل من السور ، وقد نزلت بمنى في حجة الوداع ، فمد مدنية)

٣ - عدد المكي والمدني :

وللتفق عليه ، وعليه المصحف اتفق بين أئمتنا ، أن المدني من سور القرآن ثمان وعشرون سورة هي :
 (١) البقرة (٢) آل عمران (٣) النساء (٤) المائدة (٥) الأنفال (٦) التوبة (٧) الرعد (٨) الحج
 (٩) النور (١٠) الأحزاب (١١) محمد (١٢) الفتح (١٣) الحجرات (١٤) الرحمن (١٥) الحديد
 (١٦) المجادلة (١٧) الحشر (١٨) الممتحنة (١٩) المم (٢٠) الجمعة (٢١) المنافقون (٢٢) التغابن
 (٢٣) الطلاق (٢٤) التحريم (٥) الإنسان (٢٦) البينة (٢٧) الزلزلة (٢٨) النصر .
 وما بعد هذه السور الثماني والعشرين فهو مكّي ، أعني نزل بمكة وما حوالها . أما على رأي من يقول :
 إن المراد بالمكي هو ما جاء خطاباً لأهل مكة ، وأن المدني هو ما جاء خطاباً لأهل المدينة ، فالأمر يختلف .
 وإذا عرفنا أن سور القرآن عددها أربع عشرة ومائة سورة^(١) ، كان ما نزل بمكة هو ست وثمانون سورة .
 وإذا شئت مزيداً من الحصر فعدد آيات السور المدنية الثماني والعشرين هو ثلاث وعشرون وستة
 وألف آية (١٦٢٣) ، وعدد آيات السور المكية الست والثمانين هو ثلاث عشرة وستة وأربعة آلاف آية
 (٤٦١٣) فيكون مجموع آي القرآن مدنية ومكية : ستاً وثلاثين ومائتين وستة آلاف (٦٢٢٦) . وهذا
 هو المتد به .

وأنت بهذا تجد أن أكثر القرآن نزل بمكة قبل الهجرة ، وأن السور المدنية تكاد تمثل الثلث من
 مجموع السور المكية ، تزيد على الثلث قليلاً ، وأن مجموع آيات السور المدنية يكاد يمثل الثلث من مجموع
 آيات السور المكية ، ينقص عن الثلث قليلاً^(٢) .

٤ - عدد الآيات :

والآية ، طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ، وهي مسألة توقيفية أخذت عن الرسول .
 وهذا الاختلاف الذي وقع بين السلف في عدد الآيات مرجعه إلى اختلاف السامعين عن الرسول في ضبط
 الوقف والوصل ، فالمعروف أنه كان على الله عليه وسلم يقف على رموس الآية للتوقيف ، فإذا علم محلها
 وصل للتمام ، قوم بعضهم السامعين عند الوصل أن ليس ثمة فصل ، ومن هنا كان اختلاف .
 وسور القرآن بالنظر إلى اختلاف عدد آياتها ثلاثة أقسام :

(١) حقا ما عليه الإجماع . ومن السلف من يجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة ، وعلى هذا يكون عدد السور ١١٣ ،
 وفي مصنف أبي ١١٦ لأنه زاد في آخر سورتين هما : الجبد . والمأم .
 (٢) انظر انقهرست الجاهل للآيات مكيها ومدنيها : وهو من أبواب هذه الموسوعة .

أ - قسم لم يختلف فيه إجمالاً ولا تفصيلاً .

ب - قسم اختلف فيه تفصيلاً لا إجمالاً .

ج - قسم اختلف فيه تفصيلاً وإجمالاً .

أ - فاقسم الأول الذي لم يختلف فيه إجمالاً وتفصيلاً أربعين سورة ، وهي :

- (١) يوسف : ١١١ - (٢) الحجر : ٥٩ - (٣) النحل : ١٢٨ - (٤) الفرقان : ٧٧ - (٥) الأحزاب : ٧٣ - (٦) الفتح : ٢٩ - (٧) الحجرات : ١٨ - (٨) التغابن : ١٨ - (٩) ق : ٤٥ - (١٠) الذاريات : ٦٠ - (١١) القمر : ٥٥ - (١٢) الحشر : ٢٤ - (١٣) الممتحنة : ١٣ - (١٤) الصف : ١٤ - (١٥) النجم : ١١ - (١٦) النافقون : ١١ - (١٧) الضحى : ١١ - (١٨) العاديات : ١١ - (١٩) التبريم : ١٢ - (٢٠) ن : ٥٢ - (٢١) الإنسان : ٣١ - (٢٢) الترحلات : ٥٠ - (٢٣) التكرير : ٢٩ - (٢٤) الانفطار : ١٩ - (٢٥) صبح : ١٩ - (٢٦) التطهيف : ٣٦ - (٢٧) البروج : ٢٢ - (٢٨) الفاشية : ٢٦ - (٢٩) البلد : ٣٠ - (٣٠) الليل : ٢١ - (٣١) ألم نشرح : ٨ - (٣٢) التيف : ٨ - (٣٣) الهاكم : ٨ - (٣٤) الحمزة : ٩ - (٣٥) القبل : ٥ - (٣٦) الفاق : ٥ - (٣٧) تبت : ٥ - (٣٨) الكافرون : ٦ - (٣٩) الكوثر : ٣ - (٤٠) الزمر : ٣ .

ب - وقسم الثاني : وهو الذي اختلف فيه تفصيلاً لا إجمالاً ، أربع سور ، وهي :

- (١) النقص : ٨٨ - بعد أهل الكوفة (طسم) آية ، وبعد غيرهم بدلها « أئمة من الناس يستقون » (الآية : ٢٢) .
(٢) المنكوبت : ٦٩ - بعد أهل الكوفة « ألم » آية . وبعد البصريين بدلها « مُخَاصِبِينَ لَهُ الْفُتَيْنِ » (الآية : ٦٥) . والشاميون « وَتَقَطُّعُونَ الدَّيْلَ » (الآية : ٢٩) .
(٣) الجن : ٢٨ - بعد المكي « لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ » (الآية : ٢٢) . وبعد غيره بدلها « وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً » (الآية : ٢٢) .
(٤) والمصر : ٣ - الكثرة تعدد والمصر « آية » ، غير الذي فإنه بعد بدلها « وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ » (الآية : ٣) .

ج - وأما القسم الثالث ، وهو الذي اختلف فيه تفصيلاً وإجمالاً ، سبعون سورة ، وهي :

- (١) الفاتحة - من حيث التفصيل ، فالجمهور على أنها سبع آيات ، بعد الكوفي والمكي للبدلة دون « أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » . وبمكس الباقون . ومن حيث الإجمال : فالحن بعد آياتها ثمانى آيات حين بعد البدلة

و «أُنعِمْتُ عليهم» آتَيْن . وبمدها بعضهم سَجَّ ، فلا يمدون هاتين الآيتين ، كما يمدان آخرون تسعاً ، فيمدون هاتين ويضمون إليهما «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» .

- (٢) البقرة : ٢٥٨ ، وقيل : ٢٥٧ ، وقيل : ٢٥٦ .
- (٣) آل عمران : ٢٠٠ ، وقيل : ١٩٩ .
- (٤) النساء : ١٧٥ ، وقيل : ١٧٦ ، وقيل : ١٧٧ .
- (٥) المائدة : ١٢٠ ، وقيل : ١٢٢ ، وقيل : ١٢٣ .
- (٦) الأنعام : ١٦٥ ، وقيل : ١٦٦ ، وقيل : ١٦٧ .
- (٧) الأعراف : ٢٠٥ ، وقيل : ٢٠٦ .
- (٨) الأنفال : ٧٥ ، وقيل : ٧٦ ، وقيل : ٧٧ .
- (٩) براءة : ١٣٠ ، وقيل : ١٢٩ .
- (١٠) يونس : ١١٠ ، وقيل : ١٠٩ .
- (١١) هود : ١٢١ ، وقيل : ١٢٢ ، وقيل : ١٢٣ .
- (١٢) ثمود : ٤٣ ، وقيل : ٤٤ ، وقيل : ٤٧ .
- (١٣) إبراهيم : ٥١ ، وقيل : ٥٢ ، وقيل : ٥٤ ، وقيل : ٥٥ .
- (١٤) الإسراء : ١١٠ ، وقيل : ١١١ .
- (١٥) الكهف : ١٠٥ ، وقيل : ١٠٦ ، وقيل : ١١٠ ، وقيل : ١١١ .
- (١٦) مريم : ٩٩ ، وقيل : ٩٨ .
- (١٧) طه : ١٣٠ ، وقيل : ١٣٢ ، وقيل : ١٣٤ ، وقيل : ١٣٥ ، وقيل : ١٤٠ .
- (١٨) الأنبياء : ١١١ ، وقيل : ١١٢ .
- (١٩) الحج : ٧٤ ، وقيل : ٧٥ ، وقيل : ٧٦ ، وقيل : ٧٨ .
- (٢٠) المؤمنون : ١١٨ ، وقيل : ١١٩ .
- (٢١) النور : ٦٢ ، وقيل : ٦٤ .
- (٢٢) الشعراء : ٢٣٦ ، وقيل : ٢٣٧ .
- (٢٣) النسل : ٩٢ ، وقيل : ٩٤ ، وقيل : ٩٥ .
- (٢٤) الروم : ٦٠ ، وقيل : ٥٩ .

- (٢٥) لقمان : ٣٣ ، وقيل : ٣٤
- (٢٦) السجدة : ٣٠ ، وقيل : ٢٩
- (٢٧) سبأ : ٥٤ ، وقيل : ٥٥ .
- (٢٨) طه : ٦٤ ، وقيل : ٦٥ .
- (٢٩) يس : ٨٣ ، وقيل : ٨٢ .
- (٣٠) الصافات : ١٨١ ، وقيل : ١٨٢ .
- (٣١) ص : ٨٥ ، وقيل : ٨٦ ، وقيل : ٨٨ .
- (٣٢) الزمر : ٧٢ ، وقيل : ٧٣ ، وقيل : ٧٥ .
- (٣٣) غافر : ٨٢ ، وقيل : ٨٤ ، وقيل : ٨٥ ، وقيل : ٨٦
- (٣٤) فصلت : ٥٢ ، وقيل : ٥٣ ، وقيل : ٥٤ .
- (٣٥) الشورى : ٥٣ ، وقيل : ٥٠ .
- (٣٦) الزخرف : ٨٩ ، وقيل : ٨٨ .
- (٣٧) الدخان : ٥٦ ، وقيل : ٥٧ ، وقيل : ٥٩ .
- (٣٨) الجاثية : ٣٦ ، وقيل : ٣٧ .
- (٣٩) الأحقاف : ٣٤ ، وقيل : ٣٥ .
- (٤٠) القفال : ٤٠ ، وقيل : ٣٩ ، وقيل : ٣٩ ، وقيل : ٣٨ .
- (٤١) الطور : ٤٧ ، وقيل : ٤٨ ، وقيل : ٤٩
- (٤٢) النجم : ٦١ ، وقيل : ٦٢ .
- (٤٣) الرحمن : ٧٧ ، وقيل : ٧٦ ، وقيل : ٧٨ .
- (٤٤) الواقعة : ٩٩ ، وقيل : ٩٧ ، وقيل : ٩٦ .
- (٤٥) الحديد : ٣٨ ، وقيل : ٣٩ .
- (٤٦) المجادلة : ٢٢ ، وقيل : ٢١ .
- (٤٧) الطلاق : ١١ ، وقيل : ١٢ .
- (٤٨) الملك : ٣٠ ، وقيل : ٣١ ، والمصحح الأول .
- (٤٩) الحاقة : ٥١ ، وقيل : ٥٢ .

- (٥٠) المارج : ٤٤ ، وقيل : ٤٣ .
 (٥١) نوح : ٣٠ ، وقيل : ٢٩ ، وقيل : ٢٨ .
 (٥٢) المزمل : ٢٠ ، وقيل : ١٩ ، وقيل : ١٨ .
 (٥٣) الدثر : ٥٥ ، وقيل : ٥٦ .
 (٥٤) القيامة : ٤٠ ، وقيل : ٣٩ .
 (٥٥) النبأ : ٤٠ ، وقيل : ٤١ .
 (٥٦) النازعات : ٤٥ ، وقيل : ٤٦ .
 (٥٧) هب : ٤٠ ، وقيل : ٤١ ، وقيل : ٤٢ .
 (٥٨) الانشقاق : ٢٥ ، وقيل : ٢٤ ، وقيل : ٢٣ .
 (٥٩) الطارق : ١٧ ، وقيل : ١٦ .
 (٦٠) انفجر : ٣٠ ، وقيل : ٢٩ ، وقيل : ٣٢ .
 (٦١) الشمس : ١٥ ، وقيل : ١٦ .
 (٦٢) الملق : ٢٠ ، وقيل : ١٩ .
 (٦٣) القمر : ٥٠ ، وقيل : ٥٦ .
 (٦٤) البيعة : ٨ ، وقيل : ٩ .
 (٦٥) الزلزلة : ٩ ، وقيل : ٨ .
 (٦٦) القارعة : ٨ ، وقيل : ١٠ ، وقيل : ١١ .
 (٦٧) قريش : ٤ ، وقيل : ٥ .
 (٦٨) الماعون : ٧ ، وقيل : ٦ .
 (٦٩) الإخلاص : ٤ ، وقيل : ٥ .
 (٧٠) الناس : ٧ ، وقيل : ٦ .

٥ - ترتيب الآيات

وكما كان ضبط الآيات بفواصلها توقفاً كذلك كان وضمها في مواضعها توقفاً ، دليل ذلك الآية (وَأَنفُخُوا بَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) - البقرة : ٢٨١ - كانت آخر ما نزل ، فوَضَمُّهَا النَّهْيُ عَنْ وَحْيٍ مِنْ رَبِّهِ بَيْنَ آتِي الرُّبَا وَالَّذِينَ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَهَكَذَا كَانَ الْأَصْرَفُ سَائِرَ الْآيَاتِ .

(١) ففي سورة الأنعام - وهي مكية - الآيات : ٢٠ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٣ ،

فهي مدنية .

(٢) وفي سورة الأعراف - وهي مكية - الآيات من ١٦٣ - ١٧٠ ، فهي مدنية .

(٣) وفي سورة يونس - وهي مكية - الآيات : ٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ ، فهي مدنية .

(٤) وفي سورة هود - وهي مكية - الآيات : ١٢ و ١٧ و ١١٤ ، فهي مدنية .

(٥) وفي سورة يوسف - وهي مكية - الآيات : ٢١ و ٢٣ و ٧ ، فهي مدنية .

(٦) وفي سورة إبراهيم - وهي مكية - الآيتان : ٢٨ و ٢٩ ، فهما مدنيتان .

(٧) وفي سورة الحجر - وهي مكية - الآية : ٨٧ ، فهي مدنية .

- (٨) وفي سورة النحل - وهي مكية - الآيات الثلاث الأخيرة ، فهي مدنية .
- (٩) وفي سورة الإسراء - وهي مكية - الآيات : ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧ و ٧٣ و ٨٠ ، فهي مدنية .
- (١٠) وفي سورة الكهف - وهي مكية - الآيات : ٢٨ و ٨٣ - ١٠١ ، فهي مدنية .
- (١١) وفي سورة مريم - وهي مكية - الآيات : ٥٨ و ٧١ ، فهما مدنيتان .
- (١٢) وفي سورة طه - وهي مكية - الآيات : ١٣٠ و ١٣١ ، فهما مدنيتان .
- (١٣) وفي سورة الفرقان - وهي مكية - الآيات : ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ ، فهي مدنية .
- (١٤) وفي سورة الشعراء - وهي مكية - الآيات : ١٩٧ و ٢٢٤ - إلى آخر السورة ، فهي مدنية .
- (١٥) وفي سورة القصص - وهي مكية - الآيات : ٥٢ - ٥٥ ، فهي مدنية .
- (١٦) وفي سورة العنكبوت - وهي مكية - الآيات من ١ - ١١ ، فهي مدنية .
- (١٧) وفي سورة الروم - وهي مكية - الآية : ١٧ ، فهي مدنية .
- (١٨) وفي سورة لقمان - وهي مكية - الآيات : ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ ، فهي مدنية .
- (١٩) وفي سورة السجدة - وهي مكية - الآيات من ١٦ - ٢٠ ، فهي مدنية .
- (٢٠) وفي سورة سبأ - وهي مكية - الآية : ٦ ، فهي مدنية .
- (٢١) وفي سورة يس - وهي مكية - الآية : ٤٥ ، فهي مدنية .
- (٢٢) وفي سورة الزمر - وهي مكية - الآيات : ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ ، فهي مدنية .
- (٢٣) وفي سورة غافر - وهي مكية - الآيات : ٥٦ و ٥٧ ، فهما مدنيتان .
- (٢٤) وفي سورة الشورى - وهي مكية - الآيات : ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ ، فهي مدنية .
- (٢٥) وفي سورة الزخرف - وهي مكية - الآية : ٥٤ ، فهي مدنية .
- (٢٦) وفي سورة الأحقاف - وهي مكية - الآيات : ١٠ و ١٥ و ٣٥ ، فهي مدنية .
- (٢٧) وفي سورة ف - وهي مكية - الآية : ٣٨ ، فهي مدنية .
- (٢٨) وفي سورة النجم - وهي مكية - الآية : ٣٢ ، فهي مدنية .
- (٢٩) وفي سورة القمر - وهي مكية - الآيات : ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ ، فهي مدنية .
- (٣٠) وفي سورة الواقعة - وهي مكية - الآيات : ٨١ و ٨٢ ، فهما مدنيتان .
- (٣١) وفي سورة الفلم - وهي مكية - الآيات : ١٧ و ٣٣ و ٣٨ و ٤٨ - ٥٠ ، فهي مدنية .
- (٣٢) وفي سورة المزمل - وهي مكية - الآيات : ١٠ و ١١ و ٢٠ ، فهي مدنية .
- (٣٣) وفي سورة الرسائل - وهي مكية - الآية : ٤٨ ، فهي مدنية .

- (٣٤) وفي سورة الماعون - وهي مكية - الآيات من الرابعة إلى آخر السورة ، فهي مدنية :
- هذا من السور المكية وما فيها من الآيات المدنية ، أما من السور المدنية وما فيها من آيات مكية
- (٣٥) ففي سورة البقرة - وهي مدنية - الآية : ٢٨١ ، فقد نزلت بمنى في حجة الوداع .
- (٣٦) وفي سورة المائدة - وهي مدنية - الآية : ٣ ، فقد نزلت بمرقات في حجة الوداع .
- (٣٧) وفي سورة الأنفال - وهي مدنية - الآيات من ٣٠ - ٣٦ ، فهي مكية .
- (٣٨) وفي سورة التوبة - وهي مدنية - الآيات الأخيرة ، فهما مكيان .
- (٣٩) وفي سورة الحج - وهي مدنية - الآيات : ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ ، فقد نزلت بين مكة والمدنية .
- (٤٠) وفي سورة محمد - وهي مدنية - الآية : ١٣ ، فقد نزلت في الطريق أثناء الهجرة .^(١)
- ويرتب الفقهاء على عدد الآيات أحكاماً فقهية ، من ذلك مثلاً : من لم يحفظ الفاتحة فيجب عليه في الصلاة بدلها سبع آيات . هذا فيمن عدّ الفاتحة سهماً ، كما لا تصح الصلاة بنصف آية .
- وعدّ السورة في القرآن أنها تشتمل على آيات ذات فائدة وخاتمة . وأقل الآيات التي تشتمل عليها السورة ثلاث .

٦ - أسماء السور

وكما كانت الآيات بنواصلها وبترتيبها توقفاً كذلك كانت الحال في السور في جمعها وفي أسمائها ، فكلها - أعني اسم السورة وما تنفصله من آيات - توقيف .

وقد يكون للسورة اسم واحد ، وعليه الكثرة من سور القرآن ، وقد يكون لها اسمان فأكثر من ذلك مثلاً :

- (١) الفاتحة (١) ، فهي تسمى أيضاً : أم الكتاب ، والسبع للثاني ، والحمد ، والواقية ، والشافية .
- (٢) الإسراء (١٧) ، وتسمى أيضاً : بني إسرائيل .
- (٣) النمل (٢٧) ، فهي تسمى أيضاً : سورة سليمان .
- (٤) السجدة (٣١) ، فهي تسمى أيضاً : سورة المضاجع .
- (٥) فاطر (٣٥) ، فهي تسمى أيضاً : سورة الملائكة .
- (٦) الزمر (٣٩) ، فهي تسمى أيضاً : سورة النرف .
- (٧) غافر (٤٠) ، فهي تسمى أيضاً : سورة المؤمن .
- (٨) حم السجدة (٤١) ، وتسمى أيضاً : فصلت .

(١) وانظر فهرست الآيات مرتبة على حسب أوائلها مع بيان مكيتها ومدنيها .

- (١) الجاثية (٤٥)، فهي تسمى أيضاً : سورة الدهر .
- (١٠) محمد (٤٧)، فهي تسمى أيضاً : سورة القتال .
- (١١) المتحة (٦٠) وتسمى أيضاً : الامتحان .
- (١٢) الصف (٦١)، فهي تسمى أيضاً : سورة الحواريين .
- (١٣) تبارك (٦٧)، فهي تسمى أيضاً : سورة للث .
- (١٤) م (٧٨)، فهي تسمى أيضاً : سورة النبأ ، والتساؤل ، والمصرات .
- (١٥) لم يكن (٩٨)، فهي تسمى أيضاً : سورة أهل الكتاب ، والبيعة ، والقيامة .

٧ - ترتيب السور

أما عن ترتيب السور ، فن السلف من يقول : إنه توقيفي ، ويستدل على ذلك بـ ورود الحواميم مرتبة ولاء ، وكذا الطواسين ، على حين لم ترتب للمبغات ولاء ، بل جاءت مفصلاً بين سورها ، وقُصِّلَ بين « طسم » الشعراء ، و « طسم » القصص بـ « طس » ، مع أنها أقصر منها ، ولو كان الترتيب اجتهاداً لذكرت المبغات ولاء وأخرت « طس » عن « القصص » .

كما يحملون فيما نقله « الشهرستاني » محمد بن عبد الكريم في تفسيره « مفاتيح الأسماء ومصايح الأبرار » عند الكلام على قوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي) : هي السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، وللاثلة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس ، دليلاً على أن هذا الترتيب كان بهوقيف من النبي .

والذين يقولون إن ترتيب السور اجتهادي يستدلون على ذلك بـ ورود السور مختلفة الترتيب في المصاحف الخصة التي آثرت عن خمسة من كبار الصحابة ، هم : علي بن أبي طالب ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وأبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق .

أما عن مصحف « علي » فيُزَي إلى أنه رأى من الناس طيِّرةً عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنسم ألا يضع على ظهره رداءه حتى يجمع القرآن ، فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن ، فكان أول مصحف جمع فيه القرآن من قبله .

ويروى ابن النديم في كتابه « الفهرست » أن هذا المصحف كان عند أهل جعفر ، ويقول : رأيت أنا في زماننا عند « أبي بلى حمزة الطوسي » وحجة الله ، مصحفاً قد سقطت منه أوراق بخط علي بن أبي طالب يتوارثه « بنو حسن » على مر الزمان ، وهذا ترتيب السور من ذلك المصحف .

غير أن كتاب « الفهرست » في طبعته الأوروبية والمصرية يسقط منه ما بعد هذا ، فلا يورد ترتيب السور الذي أشار إليه .

ونجد اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب ، وهو من رجال القرن الثالث الهجري ، يطالعنا بما سقط من الفهرست في الجزء الثاني من تاريخه (١٥٢ - ١٥٤) طبعة « بريل » سنة ١٨٨٣ م . فيقول قبل أن يسوق الترتيب : وروى بعضهم أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان جمعه - يعني القرآن - لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأتى به يحمله على جمل فقال : هذا القرآن جمعه ، وكان قد جزأه سبعة أجزاء : جزء البقرة ، جزء آل عمران ، جزء النساء ، جزء المائدة ، جزء الأنعام ، جزء الأعراف ، جزء الأنفال ، وذلك باعتبار أول كل جزء^(١) .

ويروى غير واحد أن مصحف « علي » كان على ترتيب النزول ، وتقديم المنسوخ على الناسخ^(٢) . وأما عن مصحف « أبي » فيقول ابن النديم : قال الفضل بن شاذان : أخبرنا الثقة من أصحابنا قال : كان تأليف السور في قراءة أبي بن كعب بالبصرة في قرية يقال لها : قرية الأنصار ، على رأس قرنين ، عند محمد بن عبد الملك الأنصاري ، أخرج إنيثا مصحفاً وقال : هو مصحف « أبي » رويناه عن آبائنا . فنظرت فيه فأستخرجت أوائل السور وخواتم الرسل وعدد الآي . ثم مضى يذكر السور مرتبة كما جاء في هذا المصحف .

وأما عن مصحف عبد الله بن مسعود فيقول ابن النديم عن الفضل بن شاذان أيضاً فيقول : قال : وجدت في مصحف عبد الله بن مسعود تأليف سور القرآن على هذا الترتيب . ثم يسوق ابن النديم هذا الترتيب . ثم يقول ابن النديم : قال ابن شاذان : قال ابن سيرين : وكان عبد الله بن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه ، ولا فاتحة الكتاب .

ثم يقول ابن النديم : رأيت عدة مصاحف ذكر أنها مصحف ابن مسعود ، ليس فيها مصحفان متفقان ، وأكثرها في رِق كثير للنسخ . وقد رأيت مصحفاً قد كتب منذ نحو مائتي سنة فيه فاتحة الكتاب . وأما عن مصحف عبد الله بن عباس (٦٨ هـ) وكان رأس المفسرين ، فقد ذكر الشهرستاني محمد ابن عبد الكريم (٥٤٨ هـ) هذا الترتيب في مقدمة تفسيره « مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار » . وأما عن مصحف الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين (١٤٨ هـ) فقد ذكره الشهرستاني أيضاً في مقدمة تفسيره « مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار » .

(١) انظر الجدول بعد .

(٢) تاريخ القرآن لأرنجاني (ص : ٢٦) .

وهناك جدولاً يجمع الترتيب في هذه المصاحف الخمسة :

مصنف على	مصنف أبي	مصنف ابن مسعود	مصنف ابن عباس	مصنف حبيش الصادق
(١) البقرة	فاتحة الكتاب	البقرة	اقرأ	اقرأ
(٢) يوسف	البقرة	النساء	ت	ت
(٣) العنكبوت	النساء	آل عمران	والضحى	للزمل
(٤) الروم	آل عمران	المص	الزمل	المدثر
(٥) لقمان	الأنعام	الأنعام	المدثر	تبت
(٦) حم المجددة	الأعراف	المائدة	الفاتحة	كورت
(٧) الذاريات	المائدة	يونس	تبت يدا	للأعلى
(٨) هل أتى على الإنسان	الأفعال	براءة	كورت	والليل
(٩) ألم تنزل	التوبة	التحل	الأعلى	والنجر
(١٠) تسجدة	هود	هود	والليل	والضحى
(١١) التازعات	غريم	يوسف	والنجر	ألم نشرح
(١٢) إذا الشمس كورت	الشعراء	بنى إسرائيل	ألم نشرح لك	والعصر
(١٣) إذا السماء انشطرت	الحج	الأنبياء	الرحمن	والعاديات
(١٤) إذا السماء انشقت	يوسف	المؤمنون	والعصر	الكوثر
(١٥) ميع اسم ربك الأعلى	الكهف	الشعراء	الكوثر	التكاثر
(١٦) لم يسكن	التحل	الماقات	التكاثر	الدين
لهذا جزء البقرة				
(١٧) آل عمران	الأحزاب	الأحزاب	الدين	الكافرون
(١٨) هود	بنى إسرائيل	القصاص	القبيل	القبيل
(١٩) الحج	الزمر	النور	الكافرون	العلق
(٢٠) الحجر	حم تنزيل	الأنفال	الإخلاص	الناس
(٢١) الأحزاب	طه	مريم	النجم	الإخلاص
(٢٢) المدخان	الأنبياء	العنكبوت	الأعشى	والنجم
(٢٣) الرحمن	النور	الروم	القدر	الأعشى
(٢٤) الحاقة	المؤمنون	يس	والشمس	القدر
(٢٥) شأن سائل	حم المؤمن	الفرقان	البروج	والشمس
(٢٦) عبس وتولى	الرعد	الحج	التيقن	البروج

مصنف على	مصنف أبي	مصنف ابن مسعود	مصنف ابن عباس	مصنف حبشي المصادق
<p>(٢٧) والشمس وضحاها</p> <p>(٢٨) إنا أنزلناه</p> <p>(٢٩) إذا زلزلت</p> <p>(٣٠) ويل لكل همزة</p> <p>(٣١) ألم تر كيف</p> <p>(٣٢) لإيلاف قريش</p> <p>وهذه جزء آل عمران</p> <p>(٣٣) النساء</p> <p>(٣٤) النحل</p> <p>(٣٥) المؤمنون</p> <p>(٣٦) يس</p> <p>(٣٧) حم-عسق</p> <p>(٣٨) الواقعة</p> <p>(٣٩) تبارك الذي</p> <p>(٤٠) يأتيها الذكر</p> <p>(٤١) أرايت</p> <p>(٤٢) تبت</p> <p>(٤٣) قل هو الله أحد</p> <p>(٤٤) والمصر</p> <p>(٤٥) القارعة</p> <p>(٤٦) والسماء ذات البروج</p> <p>(٤٧) والتين والزيتون</p> <p>(٤٨) طس</p> <p>(٤٩) النمل</p> <p>وهذه جزء البقرة</p> <p>(٥٠) المائدة</p> <p>(٥١) يونس</p> <p>(٥٢) مريم</p>	<p>طس</p> <p>القصص</p> <p>طس</p> <p>سليمان</p> <p>الصافات</p> <p>داود</p> <p>ص</p> <p>يس</p> <p>اصحاب الحجر</p> <p>حم-عسق</p> <p>الروم</p> <p>الزخرف</p> <p>حم السجدة</p> <p>إبراهيم</p> <p>الملائكة</p> <p>الفتح</p> <p>محمد</p> <p>الحديد</p> <p>الأنعام</p> <p>تبارك</p> <p>الفرقان</p> <p>الم تنزيل</p> <p>نوح</p> <p>الأحقاف</p> <p>ق</p> <p>الرحمن</p>	<p>الرعد</p> <p>سبا</p> <p>الملائكة</p> <p>إبراهيم</p> <p>ص</p> <p>الذين كفروا</p> <p>القمر</p> <p>الزمر</p> <p>الحواميم السبعات</p> <p>حم المؤمن</p> <p>حم الزخرف</p> <p>السجدة</p> <p>الأحقاف</p> <p>الجنات</p> <p>الدخان</p> <p>إنا فتحنا</p> <p>الحديد</p> <p>سبح</p> <p>الحشر</p> <p>تنزيل</p> <p>السجدة</p> <p>ق</p> <p>الطلاق</p> <p>الحجرات</p> <p>تبارك الذي بيده الملك</p> <p>التحسين</p>	<p>قريش</p> <p>القارعة</p> <p>القيامة</p> <p>الهمزة</p> <p>الرسالات</p> <p>ق</p> <p>البلد</p> <p>الطارق</p> <p>القمر</p> <p>ص</p> <p>الأعراف</p> <p>الجن</p> <p>الفرقان</p> <p>الملائكة</p> <p>مريم</p> <p>طه</p> <p>الشعراء</p> <p>النمل</p> <p>القصص</p> <p>بنو إسرائيل</p> <p>يونس</p> <p>هود</p> <p>الأنعام</p>	<p>والتين</p> <p>قريش</p> <p>القارعة</p> <p>القيامة</p> <p>الهمزة</p> <p>الرسالات</p> <p>ق</p> <p>البلد</p> <p>الطارق</p> <p>القمر</p> <p>ص</p> <p>الأعراف</p> <p>الجن</p> <p>يس</p> <p>الفرقان</p> <p>الملائكة</p> <p>مريم</p> <p>طه</p> <p>الواقعة</p> <p>الشعراء</p> <p>النمل</p> <p>القصص</p> <p>بنو إسرائيل</p> <p>يونس</p> <p>هود</p> <p>يوسف</p>

مصنف على	مصنف أبي	مصنف	مصنف	مصنف
ابن عباس	ابن مسعود	ابن عباس	ابن عباس	حشيش الصادق
(٥٣) طم	انواع	للقانون	للمافات	الحجر
(٥٤) الثراء	الجن	الجمعة	أهمان	الأنعام
(٥٥) الزخرف	النجم	الحواريون	سبا	المافات
(٥٦) الحجرات	ن	قل أوحى	الزمر	لهمان
(٥٧) ق والقرآن المجيد	الحاقة	إننا أرسلنا نوحا	الزمر	سبا
(٥٨) اقرب الساعة	الحشر	المجادلة	حتم السجدة	الزمر
(٥٩) المنحة	المنحة	المنحة	حتم عسق	للقوم
(٦٠) والسماء والطارق	المرسلات	يا أيها النبي تعمر	الزخرف	حتم السجدة
(٦١) لا أقدم بهذا البلد	عم يتساءلون	الرحمن	الدخان	حتم عسق
(٦٢) ألم نشرح لك	الإنسان	النجم	الحاقة	الزخرف
(٦٣) والمعاديات	لا أقدم	الندارىات	الأحاث	الدخان
(٦٤) إننا أعطينا لك الكون	كورت	الطور (١)	الندارىات	الحاقة
(٦٥) قل يا أيها الكافرون	النازعات	اقرب الساعة	القائمة	الأحاث
وهذا جزء المائة				
(٦٦) الأنعام	عبس	الحاقة	الكهف	الندارىات
(٦٧) سبحان	الطهين	إذا وقعت	النحل	القائمة
(٦٨) اقرب	إذا السماء انشقت	ن و انهم	نوح	الكهف
(٦٩) الفرقان	بين	النازعات	إبراهيم	النحل
(٧٠) موسى	اقرأ باسم ربك	سأل سائل	الأنبياء	نوح
(٧١) فرعون	الحجرات	الدن	المؤمنون	إبراهيم
(٧٢) حم	النافقون	للمزل	الزمر	الأنبياء
(٧٣) المؤمن	الجمعة	للطهين	الطور	للقوم
(٧٤) المجادلة	نبي	عبس	المك	الم السجدة
(٧٥) الحشر	نجر	الدهر	الحاقة	الطور
(٧٦) الجمعة	نك	تقيامة	المعارج	المك
(٧٧) النافقون	و انك إذا يغنى	المرسلات	النساء	الحاقة
(٧٨) ن والقلم	إذا السماء انشطرت	عم يتساءلون	والنازعات	المعارج

مصحف على	مصحف أبي	مصحف ابن مسعود	مصحف ابن عباس	مصحف حديثي الصادق
<p>(٧٩) إنا أرسلنا نوحا</p> <p>(٨٠) قل أوحى إلى</p> <p>(٨١) الرلات</p> <p>(٨٢) والضحى</p> <p>(٨٣) ألهاكم</p> <p>وهذا جزء الأنعام</p> <p>(٨٤) الأعراف</p> <p>(٨٥) إبراهيم</p> <p>(٨٦) الكهف</p> <p>(٧٧) النور</p> <p>(٨٨) ص</p> <p>(٨٩) الزمر</p> <p>(٩٠) الشريعة</p> <p>(٩١) الذين كفروا</p> <p>(٩٢) الحديد</p> <p>(٩٣) الزمل</p> <p>(٩٤) لا أقسم يوم القيامة</p> <p>(٩٥) عم ينساء لون</p> <p>(٩٦) الفاشية</p> <p>(٩٧) والفجر</p> <p>(٩٨) والليل إذا يغشى</p> <p>(٩٩) إذا جاء نصر الله</p> <p>وهذا جزء الأعراف</p> <p>(١٠٠) الأنفال</p> <p>(١٠١) براءة</p> <p>(١٠٢) حه</p> <p>(١٠٣) الانبياء</p>	<p>الشمس وضحاها</p> <p>واللهاء ذات البروج</p> <p>الطارق</p> <p>سبح اسم ربك الأعلى</p> <p>الغاشية</p> <p>عبس</p> <p>الصف</p> <p>الضحى</p> <p>لم نشرح</p> <p>لقارعة</p> <p>التكاثر</p> <p>الخلع</p> <p>الجيد</p> <p>اللهم إني أعوذ بك</p> <p>إذا زلزلت</p> <p>المعاديات</p> <p>أصحاب الفيل</p> <p>التين</p> <p>التكاثر</p> <p>القدر</p> <p>الكافرون</p> <p>النصر</p> <p>أبي لب</p> <p>فريش</p> <p>القصص</p>	<p>التكوير</p> <p>الانفطار</p> <p>هل أتيتكم حديث الثانية</p> <p>سبح اسم ربك الأعلى</p> <p>والليل إذا يغشى</p> <p>الفجر</p> <p>البروج</p> <p>الانفطار</p> <p>اقرأ باسم ربك</p> <p>لا أقسم بهذا البلد</p> <p>والضحى</p> <p>لم نشرح</p> <p>واللهاء والطارق</p> <p>والمعاديات</p> <p>أرايت</p> <p>القدر</p> <p>التكوير</p> <p>التين</p> <p>والليل إذا يغشى</p> <p>الكافرون</p> <p>لا يلاف فريش</p> <p>التكاثر</p> <p>إنا أنزلناه</p> <p>والقصص</p>	<p>انفطرت</p> <p>انفتحت</p> <p>الروم</p> <p>المنكبوت</p> <p>الطافون</p> <p>البقرة</p> <p>الأنفال</p> <p>آل عمران</p> <p>الحشر</p> <p>الأحزاب</p> <p>النور</p> <p>المتحة</p> <p>النساء</p> <p>إذا زلزلت</p> <p>الحديد</p> <p>الحج</p> <p>الحديد</p> <p>الرحمن</p> <p>الإنسان</p> <p>الطلاق</p> <p>لم يكن</p> <p>الجمعة</p> <p>آل المسجدة</p> <p>النافون</p> <p>المجادلة</p>	<p>النبا</p> <p>والنازعات</p> <p>انفطرت</p> <p>انفتحت</p> <p>الروم</p> <p>المنكبوت</p> <p>الطافون</p> <p>البقرة</p> <p>الأنفال</p> <p>آل عمران</p> <p>الأحزاب</p> <p>المتحة</p> <p>النساء</p> <p>إذا زلزلت</p> <p>الحديد</p> <p>الحج</p> <p>الحديد</p> <p>الرحمن</p> <p>الإنسان</p> <p>الطلاق</p> <p>لم يكن</p> <p>الجمعة</p> <p>آل المسجدة</p> <p>النافون</p> <p>المجادلة</p>

(١) جاءت قبل بعد المارح - واللافت أنه لم يذكر فائمة المنكبات التي يتم بها عدد السور ١١٤ .

مصنف علي	مصنف أبي	مصنف	مصنف	مصنف
(١٠٤) الصافات (١٠٥) الأحقاف (١٠٦) الفتح (١٠٧) الطور (١٠٨) النجم (١٠٩) الص (١١٠) النمل (١١١) الطلاق (١١٢) المطففين (١١٣) المعوذتين وهذا جزء الأنفال	التعلق الناس	إذ جاء نصر الله الكواثر الكافرون السد قل هو الله أحد	الحجرات التحريم التغابن التصف المائدة التوبة النصر الواقعة والعاديات التعلق الناس	النافقون المجادلة الحجرات التحريم الص الجمعة التغابن الفتح التوبة المائدة

٨ - الحكمة في نزول القرآن منجماً

وفيما بين السابع عشر من رمضان - من السنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول ، وكان بدء نزول الوحي ، وإلى ما قبل موته صلى الله عليه وسلم بأيام لا تجاوز الواحد والثمانين ولا تنقص عن العشرة ، وكان آخر ما نزل من الوحي ، أي في نحو من إحدى وعشرين سنة ، أو على الأصح في نحو من ثمان عشرة سنة ، بإسقاط المدة التي نزل فيها الوحي والتي بلغت ثلاث سنين - نزل هذا القرآن منجماً بشرع للناس ، وبكتاب الأحكام ، ويوجب ويبين . قال تعالى : (وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ^(١)) . وقال تعالى : (وَفَرَّغْنَا مَا يَزُكُّهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى صَكِّهِ وَتَزِيلُهُ تَزِيلًا ^(٢)) .

وما كانت حكمة السماء تنقضي إلا بهذا مع أنه أراد لها التحول من عقائد إلى عقيدة ، والخروج من وثنية إلى دين ، ومن أوهام وظنون إلى منطق وحق ، ومن جحود إلى إيمان .

تلك خطوة أولى كان من الحكمة أن تبدأ بها الدعوة وتفرغ لها ، حتى إذا ما ضمت الناس على الطريق

(١) الرمان : ٢٣

(٢) البقرة : ١٠٦

أخذتهم بما تحمى إيمانهم به ، غاظتهم بعبادات وأزمتهم بواجبات ، والناس لا يمتصون فيا يجد عليهم خرمًا لا ينطقون ، ومهمًا لا ينظرون ، وغفلًا لا يتدبرون ، بل هم عن كل ما يمرض لهم سائلون ، والوحى يقابهم في كل ما يستفسرون عنه ، إذ به تمام الرسالة .

ثم إن هذه الدعوة السماوية بدأت جهاداً وعاشت جهاداً ، أملت الألبان وتمخضت عنه الأعوام ، وهو وإن كان في علم السماء قبل أن يقع لكنه كان على علم الناس جديداً لم يقع ، وكان لابد أن يلتقوا مع زمانه وأوانه .

ثم ما أكثر ما أخذ الناس وأعطوا في ظل الدعوة لتثبت أركانها في قلوبهم ، وهذا - وإن كان في علم السماء قبل أن يقع - لكنه كان على حياة الناس جديداً لم يقع ، وكان لابد أن يلتقوا بيانه مع زمانه وأوانه .

وهكذا لم تكن الرسالة كلمة ساعتم ، وإنما كانت كلمات أعوام ثمانية عشر ، وكانت هذه الكلمات كلها في علم السماء وفي اللوح المحفوظ ، ولكنها نزلت إلى علم الناس مع زمانها وأوانها .
لهذا نزل القرآن مُتَجَمِّعاً .

ولقد خال المشركون أن دعوة الرسول إليهم كلمة ، وأن صفة معهم صفة ، وفاتهم أن الدعوة معها خطوات ، وأن هذه الخطوات معها جديد على علمهم لا على علم السماء ، وما أحوجهم مع كل جديد إلى بيان ، ومن أجل هذا الذي قاتهم استذكروا أن ينزل القرآن متجماً وقالوا : (لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ بُحَلَّةً وَاحِدَةً)^(١) ، وكان جواب السماء عليهم : (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)^(٢) أى : جعلنا بعضه في إثر بعض ، منه ما نزل ابتداء ، ومنه ما نزل في عقب واقعة أو سؤال ، ليكون في تقابسه مع الأحداث ، وما تُثيره من شكوك ، ما يردُّ النفوس إلى طمأنينة ، والأفئدة إلى ثبات .

وإنك لو تدبعت أسباب النزول في القرآن ومواقع الآيات لتبينت أن رسالة الرسول لم تكن جملة واحدة ليكون القرآن جملة واحدة ، بل كانت أحداثاً متلاحقة تقتضى كلمات متلاحقة .

فلقد نزلت آية الظَّهَارُ في سَلَمَةَ بن صَخْر ، ونزلت آية اللِّسَانِ في شأن هِلَال بن أمية ، ونزلت آية حَدِّ الْقَذْفِ في رُمَاء هائشة ، ونزلت آية الْقِبْلَةِ بعد الهجرة وبعد أن استقبل المسلمون بيت المقدس بضعة

(١) القرآن : ٣٢ .

(٢) الفرقان : ٣٢ .

عشر شهراً ، ونزلت آية اتخاذ مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين سأل عمر الرسول في ذلك ، كذلك كانت الحال في الحجاب ، وأسرى بدر ، وغير ذلك كثير ، فكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات ، وأكثر وأقل ، وقد صرح نزول عشر آيات في قصة الإفك جملة ، كما صرح نزول عشر آيات من أول « المؤمنون » جملة ، وصح نزول « غير أولي الضرر »^(١) . وحدها وهي بعض آية ، « وإن خفتهم عيلة »^(٢) إلى آخر الآية ، وهي بعض آية ، نزلت بعد نزول أول الآية .

٩ - نزول القرآن هل سبعة أحرف

وهذا الوحي ألهم الرسول معناه كما ألهم لفظه ، فهو بمعناه ولفظه من صنع السماء ، والرسول ناطق بلسان السماء ، يلقى على قومه ما أملة السماء عليه ، ويصور ما تصور في روعه ، ويتعلق بما أنطقه السماء ، تفيض عليه السماء . فإذا هو قد خلاص لهذا الفيض بكلياته ، وإذا هو إشباع لهذا الفيض بصدور عنه وبشكل جرسه ، فإذا ما انفصل عنه هذا الفيض عاد يصدر عن نفسه يطوع له نطقه .

ولسان الرسول عربي ، ولهذا جرى القرآن على لسانه عربياً ، يُمثل أعلى ما ينتظمه اللسان العربي من لغات ، وأحوى ما يجمع من لهجات ، وكانت لغة مضر أعلى ما يجري على لسان قريش وأحواء ، فنزل بها القرآن ، وفي هذا يقول عمر : نزل القرآن بلغة مضر : وكانت لغة مضر هذه تنتظم لغات سبعا لقباثل سبع ، هم : هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وحنيفة ، ونعيم الرباب ، وأسد بن خزيمه ، وقريش .

واقده تمثل القرآن هذه اللغات السبع كلها مُترقة فيه . لكل لغة منه نصيب . وهو أولى الأقوال بفسر الحديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » :

٩ - اسم كتاب الله

ولقد سمي الله ما أنزله على رسوله : قرآناً ، وكتاباً ، وكلاماً ، وفرقاناً ، وذكراً ، وقولاً . وكان أكثر هذه الأسماء دوراناً هو لفظ القرآن ، فقد جاء في نحو سبعين آية ، وكان فيها صريحاً في أسميته ومدلوله الخاص . من أجل ذلك كتبت لهذا اللفظ القليلة على غيرها ، وصارت الاسم الغالب

لكتاب الله الذي جاء به محمد وحفظه عنه المسلمون . وبُذِرَ عن الشافعي أنه قال : القرآن أسم على غير مُشتق خاص بكلام الله .

فهو غير «موز» ، لم يؤخذ من قراءة ، ولكنه أسم لكتاب الله مثل : التوراة والإنجيل .

ويقول الزجاج : إن ترك الهمز فيه من باب التخفيف . ونقل حركة الهمز إلى الساكن الصحيح قبلها . والقائلون بالهمز يختلفون ، وأوجه ما في خلافهم رأيان :

أولها : أنه مصدر ثمرات ، مثل الرُّجْعَان والمُفْرَان ، سُمي به الكتاب القروء ، من باب تسمية المفعول بالصدر .

والرأي الثاني : أنه وصف على فعْلان ، مُشتق من القرء ، بمعنى الجمع .

وأما تسميته بالمصحف فكانت تسمية متأخرة جاءت بعد جمع القرآن وكتابته ، وكانت من وضع الناس ، فإنهم يحكون أن عثمان حين كتب المصحف التمس له أسما فأنهى الناس إلى هذا الاسم . غير أن هذا يكاد يكون مردوداً ، فقد سبق أن علمت أن ثمة مصاحف كانت موجودة قبل جمع عثمان ، هي مصحف علي ، ومصحف أبي ، ومصحف ابن مسعود ، ومصحف ابن عباس ، ومصحف جعفر الصادق .

والمصحف : هو الجامع للمصحف المكتوبة بين الدفتين .

ويقال فيه : مُصْحَفٌ ، ومِصْحَفٌ ، بضم الميم وكسرها مع فتح الميم ، والضمّة هي الأصل ، والكسرة لاستئصال الضمة ، فن ضم جاء به على أصله ، ومن كسر فلا يستأصل الضمة .

١١ - جمع القرآن

ولقد مات رسول الله والقرآن كله مكتوب على العُصْب جريد النَّخْل - واللُّخْاف - صفائح الحجارة - والرَّقَاع - والأديم والأكتاف - عظام الأكتاف - والأقْباب - ما يوضع على ظهر الإبل - كما كان محفوظاً في صدور الرجال يحفظه حفظة من المسلمين .

وقبل أن يقبض الله رسوله إليه عارض الرسول ما أنزله عليه ربّه بسوره وآياته على ما حفظه عنه حفظة المسلمين ، فكان ما في صدور الحفظة صرورة بما كان في صدر الرسول .

وكان لابد لهذا المكتوب على الرقاع وغيرها من أن يُعرض على الحفوظ في الصدور ليخرج من

بينهم اكتاب الله في صورة مقرونة ، كي يُقيد منه الناس جميعاً على تعاقب الأزمان ، فما تُغنى الرُفَاع ولا غيرها ، ثم هي مُعرضة للبلل والنتشت ، وما يُغنى الحفظه ، وهم إلى فناء ، ولا الناقلون عنهم ، وليس لهم مبرة العاصرة .

ويحرك الله المسلمين لهذه الحسنة حين أستععر القتل يوم اليمامة بقرء القرآن ، فيخف عمر بن الخطاب إلى أبي بكر ، وكان عندها خليفة ، وكان الذي استخف عمر إلى أبي بكر فرزعه من أن يتخطت الموت القرءاء في مواطن أخرى ، كما تخطفهم في ذلك الوطن — أعني اليمامة — فيضيع على المسلمين جماع دينهم ويمرّ عليهم كتابهم .

وحين جلس عمر إلى أبي بكر أخذ يناقشه فيما أتى إياه ، من جمع القرآن ، بعد أن بسط السبب الحفز ، وتابث أبو بكر يراجع نفسه ، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت ، وكان من كتّاب الوحي ، كما مرّ بك ، وحضر زيد نجس أبي بكر وعمر وسمع منهما ما هما فيه ، فإذا هو معهما في الرأي ، وإذا أبو بكر حين يجد من زيد حسن الاستجابة يتجه إليه يقول : إنك شاب عاقل لا نتفكك ، وقد كتبت نكتب الوحي لرسول الله ، فتتبع القرآن فأجمعه .

ومضى زيد يتتبع القرآن يجمعه ويكتبه ، وكان زيد حافظاً ، فدير عليه حفظه ما كلف به ، ولكنه كان إلى هذا لا يجمع في إثبات الآية يختلف فيها إلا بشهادة .

واجتمعت هذه الصحف في بيت أبي بكر حياته ، ثم في بيت عمر حياته .

١٢ - مصحف عثمان

وكما حرّكت لجنة اليمامة عمر إلى حسنة ، حرّكت لجنة أخرى — بعد مقتل عمر — عثمان إلى حسنة ، فقد قديم حذيفة بن اليمان من حرب أرمينية وأذربيجان على عثمان فرعاً من اختلاف المسلمين في قراءة القرآن ، يقول عثمان : أدرك الأمة قبل أن يتخلفوا .

وكما استجاب أبو بكر إلى عمر استجاب عثمان إلى حذيفة ، فأرسل عثمان يطلب الصحف من عند حنيفة بنت عمر ، زوج النبي . وأرسلت حنيفة بالصحف إلى عثمان ، وجمع عثمان إليه زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وكلهم من كتّاب

النوحى ، وأمرهم بنسخ هذه الصحف . فكتبوا منها سبع مصاحف . ثم ردّ عثمانُ الصحفَ^(١) إلى حفصة ، فلم تزل عندها حتى أرسل مروان بن الحكم بن أبي العاص فأخذها فحرقها ، كما ذكر أبو بكر السجستاني^(٢)

ويقول أبو بكر السجستاني في مكان آخر بسند متصل عن سالم بن عبد الله : إن مروان كان يرسل إلى حفصة بأهلها الصحف التي كتب فيها القرآن ، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها . قال سالم : فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزينة إلى عبد الله بن عمر : ليرسلن إليه تلك الصحف . فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر ، فأمر بها مروان فشقت . فقال مروان : إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كُتب وحُفظ بالمصحف فخشيت أن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب ، أو يقول : إنه قد كان شيء منها لم يكتب^(٣) .

ولا ندرى إلى أي حد كان توفيق مروان فيما فعل ، ولكنه ، وهو الرجل الذي كان معاصراً لما وقع ، كان عليه أن يطمئن إلى أن الأمر قد تمّ على أحسن ما يكون دقةً وضبطاً ، وما نُقله غاب عنه كيف احتاط عثمان لذلك ، وما نُقله إلا كان شاهداً عثمان وهو يُخطب الناس يُناشدهم أن يأتوه بما مهم من كتاب الله ، وكان عهدهم بالنبي قريباً ، إذ لم يكن قد مضى على وفاته أكثر من ثلاث عشر سنة . وما نفلن الناس إلا وفّوا لعثمان ، وجاءه كلُّ رجل بما كان عنده ، فامد كان الرجل يأتيه بالورقة والأديم فيه القرآن .

ولقد جمع من ذلك عثمان الشيء الكثير . وما وقف عثمان عند هذه بل اتمد دعاهم رجلاً رجلاً فبأشده : لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك ؟ فيقول الرجل : نعم . حتى إذا فرغ من ذلك قال : من أكتب الناس ؟ فقال الناس : كاتب رسول الله زيد بن ثابت . قال عثمان : فأبى الناس أعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص — وكان سعيد أشبههم لهجةً برسول الله — قال عثمان : فليمل سعيد وليكتب زيد .

هذا كله فعله عثمان ، وفعل إلى جانبه الاستئناس بالصحف التي تمّ جمعها في عهد أبي بكر وشارك فيها عمر ، والتي كانت عند حفصة ، تلك الصحف التي مثلت المصحف الأول للمتمد .

(١) وابن : إنه نسخ من المصحف أربعة مصاحف أرسلها إلى البصرة والكوفة والكاه ، واحتفظ بالرابع في المدينة .

(٢) المصاحف السجستاني (ج : ١٠) .

(٣) المصاحف (٢٤ - ٢٥) .

من أجل هذا لم يختلف زيد وسعيد في شيء ، ووجدنا ما أجمع لهما من قبل علي يد أبي بكر وعمر .
هو الذي جمعه عثمان ثمانية وأستخلف للناس عليه .

ومحكي المؤرخون أن زيدا وسعيدا لم يختلفا إلا في حرف واحد في سورة البقرة ، فقال أحدهما « الثابت » . وقال الآخر « الثابت » . واختيرت قراءة زيد بن ثابت ، لأنه كاتب الوحي .
وأرسل عثمان ستا من هذه المصاحف إلى مكة ، والشام ، واليمن ، والبحرين ، والبصرة ، والكوفة ،
وحبس مصحفا بالمدينة ، وأمر عثمان غرق ما كان مخافا لمصحفه .

وقد مر بك أن علي بن أبي طالب كان له مصحف باسمه ، أعني كان إليه جمعه ، وأنه بعد موت
النبي كان قد أقسم ألا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ، ففعل .

وينقل أبو بكر السجستاني^(١) بسند متصل عن أشعث ، عن ابن سيرين ، أنه حين تخلف علي
عن بيعة أبي بكر أرسل إليه أبو بكر يقول له : أكرهت إمارتي يا أبا الحسن ؟ فقال علي : لا والله ، إني
أقسمت ألا ارتدي برداء إلا لجمعة . فبقيته ثم رجع .

ثم يقول أبو بكر : لم يذكر « المصحف » أحد إلا أشعث ، وهو ابن الحديث . وإنما قال : حتى
أجمع القرآن ، يعني أتم حفظه .

غير أن ابن النديم — فيما نقلت إليك عنه قبل — يذكر أنه رأى عند أبي يعلى حمزة الحلي
مصحفاً سقطت منه أوراق بخط علي بن أبي طالب بتواريه بنو الحسن ، ثم أورد ترتيب الشور فيه ، وقد
نقلناها لك فيما سبق .

ولقد كان إلى مصحف علي مصاحف أخرى مرت بك ، هي مصحف أبي ، ومصحف ابن
مسعود ، ومصحف ابن عباس ، ومصحف جعفر الصادق . وكان ثمة مصاحف أخرى هي : مصحف
لأبي موسى الأشعري ، ومصحف للقناد بن الأسود ، ومصحف لسالم ، مولى أبي حذيفة .

ولقد كانت هذه المصاحف موزعة في الأمصار ، فكان أهل الكوفة على مصحف ابن مسعود ،
وأهل البصرة على مصحف أبي موسى الأشعري ، وأهل دمشق على مصحف القناد بن الأسود . وأهل
الشام على مصحف أبي بن كعب .

(١) المصاحف (ص : ١٠) .

وكان نمة خلاف بين هذه المصاحف ، وهذا الخلاف هو الذي شهد به حذيفة حين كان مع الجيش في فتح أذربيجان . وهذا الخلاف هو الذي فزع من أجله عثمان فنهض يجمع أصول القرآن ويجمع إلى هذه الأصول الحفظ الموثوق بهم .

فتمت مراحل ثلاث مرّ بها تدوين المصحف :

أولى هذه المراحل : تلك التي كانت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان من حوله كتابه يكتبون ما يلقى عليهم ، وكان الرسول حربصاً على ألا يكتب عنه غير القرآن ، حتى لا يلبس به شيء آخر . ويروون عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمتعه .

ولم يترك رسول الله دنياه إلى آخرته إلا بعد أن عارض ما في صدره على ما في صدر الحفظة الذين كانوا كثرة ، وحديثك ما يقال من كثرتهم أنه في غزوة بدر مؤنة ، قتل منهم — أي من القرآن — سبعون . ثم حديثك عن كثرتهم أنه كانت منهم سيئة ، هي أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله يزورها ويسمّيها الشهيذة ، وكانت قد جعت القرآن ، وقد أمرها رسول الله أن تؤم أهل دارها^(١) .

ثم حديثك دليلاً على أن القرآن كتب في حياة الرسول ، وأنه كتب في صحفة وضبط ، ما رواه البراء مع نزول قوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)^(٢) قال الرسول : أذع لي زبناً وليسبح بالروح والدواة والكتف ، ثم قال : أكتب « لا يستوى » أي إن الرسول كان يملأ على كاتبه لسانه .

ثم لذلك تذكّر في إسلام عمر أن رجلاً من قريش قال له : أختك قد صلبت — أي خرجت عن دينك — فرجع إلى أخته ودخل عليها بيئتها وأطعمها طعاماً شجّ بها وجهها . فلما سكنت منه الغضب نظرت فإذا صحيفة في ناحية البيت فيها (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . سُبْحَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٣) وأطعم على صحيفة أخرى فوجد فيها (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : طه) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى^(٤) فأسلم بعد ما وجد نفسه بين يدي كلام موهج ليس من قول بشر .

(١) الطائفة الكبرى ، لابن سعد . (٢) النساء : ٦٥ .
(٣) الحديد : ١ . (٤) طه : ١ .

فهذه وتلك تدلّانك على أن الكتاب كانوا يكتبون بإملاء الرسول ، وأن هذا المکتوب كان يتناوله الناس .

والثانية من تلك الراجل : ما كان من عمر مع أبي بكر حين استخّر القتل بالقرآن في « التيمامة » ، وما انتهى إليه الرأي بين أبي بكر وعمر في أن يسكّل إلى زيد بن ثابت جمع الصحف ، لتكون معارضة بين ما هو مکتوب في الألواح وبين ما هو محفوظ في الصدور ، قبل أن تأتي الحروب على حفظة القرآن ، فما من شك في أن الاثنين يكمل أحدهما الآخر ، لمن أراد أن يبلغ السكّال والدقة والضبط .

وما يمنع من هذا الذي فكّر فيه عمر أن يكون هناك جمع سابق على يد نفر من الصحابة ، مثل ما فعل « علي » ومثل ما فعل « ابن مسعود » ، ومثل ما فعل « ابن عباس » ، ومثل ما فعل غيرهم .

وما كان هذا يغيب عن « عمر » ولكنه كان تيمّة تفرّق بين ما فكّر فيه « عمر » وما سبق بعض الصحابة به ، فلقد كان الرأي عند « عمر » أن يبادر في ظل وجود القرآن إلى إيجاد مصنف رئيسي بتكليف من الخليفة ، والخليفة أقوى على حشد الجهد العظيم لهذا العمل العظيم .

راقد أحسن زيد ريق المنة التي أرادها عمر ، وأرادها معه أبو بكر ، فأبو بكر وعمر لم يربدا عملاً فردّياً بعمل عبثه فردّ واحد ، وإنما أراد عملاً جماعياً يحمل عبثه الخلافة وباسم الخلافة يمدّر .

من أجل ذلك قال زيد : قوالله لو كان في نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليّ مما كان أمروني به من جمع القرآن .

ومن أجل ذلك مضى زيد بهجرى ، لم يكتف بما في صدره وما بين يديه ، بل اقد تلهس آية يفقدها فوجدتها عند رجل من الأنصار بدونها ، وهي « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه^(١) » .

ومن أجل ذلك قال أبو بكر لسمر بن الخطاب وزيد بن ثابت : أقدّا على باب المسجد فن جاءنا بشاهدين على شيء من كتاب الله فأكتباه .

ومن أجل ذلك لم يمد زيد عن السمي ليجد آخر المطاف آخر سورة التوبة مع خزيمه بن ثابت .

(١) الأحزاب : ٢٣ .

إذن فقد كان مصحف أبي بكر وعمر أول مصحف رسمي جمعه زيد بن ثابت لما في ظل هذا التعرّي الدقيق ، الذي كان أبو بكر وعمر من ورائه . غير أن هذا المصحف الرسمي لم يأخذ طريقه الرسمي إلى الأمصار ، وأصل مقتل عمر هو الذي آخر ذلك .

والرحلة الثالثة والأخيرة هي الرحلة التي تمت على يد عثمان ، وكانت نعمة للرحلة الرسمية التي بدأت في عهد أبي بكر وشاركه فيها عمر ، فلقد وقع الذي كان يخشاه عمر ، والذي فكّر من أجله في هذا الجمع الرسمي ، وعجل به القتل عن أن يفضي فيه إلى آخره .

فلقد مرّ بك كيف استقل كل مصنف بمصنف ، وكانت مصاحف فردية لم يجتمع لها ما أجمع لمصنف أبي بكر الذي انتهى إلى حقة ، ثم انتهى إلى عثمان ، من جهد جماعي متوحد ، ولقد سمي « على » جهده ، وسمى « أبي » جهده ، وسمى « ابن عباس » جهده ، وسمى « جعفر الصادق » جهده ، ولكن هذه الجهود لو تلاقت كانت تلاقت حياة أبي بكر وعمر أخضعت لتمديد كثير ، ودليلاً على ذلك أنه لما خرج إلى الأمصار مصحف عثمان دان الناس لتحريره قبل أن يدينوا السلطان الخليفة ، وما يستطع أحد أن يظن بالمسلمين الذين والصنف عن أن يقيموا لأقوى الخلفاء بئزموه رأيهم ، إن كانوا يعرفون أنهم على الحق وأن الخليفة على غير الحق في مثل هذا الأمر الديني الجلل ، ولكن انصياع المسلمين في الأمصار كلها لمصنف عثمان ، وما كان عثمان بالمتعسف ، بذلك على أن المصحف العثماني خرج من إجماع الطمأنة القلوب إليه .

ويروى أبو بكر الشجستاني بسند متصل عن « على » في المصاحف وحرق « عثمان » لما : « لو لم يصنعه عثمان لصنعه »^(١) .

ولقد كان « على » صاحب مصحف اختفى بظهور مصحف عثمان . ولكن هذا لم يمنعه من نصرة الحق الذي جاهد من أجله حياته كلها .

والذي قبله « علي » قبله « ابن مسعود » ، ولكن بعد لآي^(٢) ، وقبله بعد هذين كثير من الصحابة .

يروي أبو بكر الشجستاني بسند متصل عن مصعب بن سعد ، قال : أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان للمصاحف ، فأعجبهم ذلك ولم ينكر ذلك منهم أحد .

(٢) المصاحف : (ص : ١٨) .

(١) المصاحف : (ص : ١٤) .

وَمَا أَجَلَ هَذِهِ الَّتِي فَعَلَهَا عُثْمَانُ ، وَحَسْبُهُ عَنْهَا مَا يَرْوِيهِ أَبُو بَكْرٍ السُّجِسْتَانِيُّ بِسَنَدٍ مُتَّصِلٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ يَقُولُ : خَصَلَتَانِ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ لَيْسَتَا لِأَبِي بَكْرٍ وَلَا لِعُمَرَ : صَبْرُهُ نَفْسَهُ حَتَّى قُتِلَ مَظْلُومًا ، وَبَحْثُهُ النَّاسَ عَلَى الْمُصْحَفِ .

وَحَسْبُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْحَالَ فِي اخْتِلَافِ النَّاسِ لَمْ تَسْكُنْ أُولَامُ عُثْمَانَ فِي الْأَمْصَارِ حُونَ الْمَدِينَةِ ، بَلْ لَقَدْ تَنَوَّعَتِ الْمَدِينَةُ أَيْضًا ، فَقَدْ كَانَ الْمُعَلِّمُونَ فِيهَا لِكُلِّ مُعَلِّمٍ قِرَاءَتَهُ ، فَعَمِلَ الْفِلْدَانُ يَلْتَقُونَ فَيَخْتَلِفُونَ . فَكَانَ هَذَا لِعُثْمَانَ ، إِلَى مَا بَلَغَهُ مِنْ حَذِيقَةِ ، مِمَّا أَفْرَعَهُ وَجَمَعَهُ يَقُومُ بَيْنَ النَّاسِ خُطِيبًا ، وَيَقُولُ : أَنْتُمْ هُنْدَى مُخْتَلِفُونَ فِيهِ فَتَتَحَنَّنُونَ ، فَمَنْ نَأَى عَنِّي مِنَ الْأَمْصَارِ أَشَدُّ فِيهِ اخْتِلَافًا وَأَشَدُّ لَحْنًا ، أَجْتَمِعُوا يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ رَاكِبُوا لِلنَّاسِ إِمَامًا .

من أجل هذا سُمِّيَ مصحف عُثْمَانَ : الإمام .

وقَدْ أَرْسَلَ عُثْمَانُ مِنْ هَذَا الْمُصْحَفِ نُسْخًا لِلْأَمْصَارِ — كَمَا مَرَّ بِكَ — وَأَمَرَ بِأَنْ يُحْرَقَ مَا عِطَاهَا . وَيَحْكِي أَبُو فُضْلٍ اللَّهِ الْمُرِّيُّ فِي كِتَابِهِ «مَسَالِكُ الْأَبْصَارِ»^(١) . وَهُوَ يَصِفُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ : «وَالْيَ جَانِبِهِ الْأَيْسَرُ الْمُصْحَفُ الْعُمَيْيُّ بِحِطِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» .

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْمُصْحَفَ كَانَ بِدِمَشْقَ حَيَاةَ الْمُرِّيِّ ، أَيْ إِلَى النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّامِنِ الْهَجْرِيِّ ، فَانْقَضَتْ وَفَاةَ الْمُرِّيِّ سَنَةَ ٧٤٩ هـ .

وَيُرْجِحُ الْمُتَمَصِّلُونَ بِالْقُرْآنِ أَنَّ هَذَا الْمُصْحَفَ هُوَ الَّذِي كَانَ فِي دَارِ الْكُتُبِ بِمَدِينَةِ لَيْسَنْجَرَادَ ، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْمَجْلَتَرَا ، وَلَا يَزَالُ بِهَا إِلَى الْيَوْمِ .

وَيَرْوِي السَّافِصِيُّ فِي كِتَابِهِ «غَيْثُ النِّفْعِ» : «وَرَأَيْتُ فِيهِ — بِعَنِّي مُصْحَفَ عُثْمَانَ — أَثَرَ الدِّمَامِ ، وَهُوَ بِالْمَدْرَسَةِ الْفَاضِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ» .

وَلَقَدْ كَانَ فِي دَارِ الْكُتُبِ الْقَلْوِيَّةِ فِي النَّجَفِ مُصْحَفٌ بِالنُّسْخَةِ الْكُوفِيَّةِ مَكْتُوبٌ فِي آخِرِهِ : «كُتِبَ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ» ، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي تَوَفَّى فِيهَا عَلِيٌّ .

١٣ - كُتُبُ الْمَصَاحِفِ

وَلَقَدْ كُتِبَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَافِ كُتُبًا عَرَضُوا فِيهَا لِلْمَصَاحِفِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي سَبَقَتْ مُصْحَفَ عُثْمَانَ ، وَالَّتِي جَاءَ مُصْحَفُ عُثْمَانَ مُتَأَخِّرًا لَهَا ، نَذَكَرَ مِنْهَا :

(١) السَّالِكُ (١ : ١٩٥ طَبْعَةُ دَارِ الْمَكْتَبِ الْمِصْرِيَّةِ) .

(٢) غَيْثُ النِّفْعِ فِي الْقُرْآنِ وَالْأَدَبِ (ص ٢٣٠) .

- ١ - اختلاف مصاحف الشام والنجاز والمراق ، لابن عامر ، للتوفى سنة ١١٨ هـ .
- ٢ - اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة ، عن الكسائي ، للتوفى سنة ١٨٩ هـ .
- ٣ - اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف ، للفراء ، للتوفى سنة ٢٠٧ هـ .
- ٤ - اختلاف المصاحف خلف بن هشام ، للتوفى سنة ٢٢٩ هـ .
- ٥ - اختلاف المصاحف وجامع القراءات ، للمدائني ، للتوفى سنة ٢٣١ هـ .
- ٦ - اختلاف المصاحف ، لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني ، للتوفى سنة ٢٤٨ هـ .
- ٧ - المصاحف والمجاهد ، لمحمد بن عيسى الأصبهاني ، للتوفى سنة ٢٥٤ هـ .
- ٨ - المصاحف ، لأبي عبد الله بن أبي داود السجستاني ، للتوفى سنة ٢٦٦ هـ .
- ٩ - المصاحف ، لابن الأنباري ، للتوفى سنة ٢٧٧ هـ .
- ١٠ - المصاحف ، لابن أشتة الأصبهاني ، للتوفى سنة ٣٦٠ هـ .
- ١١ - غريب المصاحف للوراق .

وترى من هذا المرض لهذه الكتب ووافيها أن المصحف الإمام لم يُلغ المصاحف، التي جاء ليُلفيها، إلغاء تاماً، وأن هذه المصاحف بخلافها على المصحف الإمام ظلت حية، إن لم تكن كتابة فحفظاً، وإن كنا نرجع الأولى . وأول كتاب في هذا كان لابن عامر - كما ترى - وابن عامر كانت وفاته سنة ١١٨ هـ . أي بعد مقتل عثمان بما يقرب من ثلاثة وعشرين سنة ، فلقد كانت وفاة عثمان في الخامسة والثلاثين من الهجرة . ولقد أنهى إلينا من هذه الكتب كلها كتاب المصاحف لأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني ، وقد نقلت لك نصراً سمعت بك ، وأشرت إلى موضعها من النسخة المطبوعة من هذا الكتاب .

ويكاد يكون كتاب أبي بكر السجستاني جامعاً لكلام من سبقوه ، لتأخره في الزمن عنهم ، وما أظن من بعده أضاف كثيراً . أعني بهذا أن كتاب أبي بكر السجستاني يكاد يمثل لنا هذا الخلاف كله .

وإني لأعد إقدام هؤلاء النعم من السلف على مثل هذا التأليف إجماعاً لخلاف حاول الخلفاء الثلاثة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان - أو قل، الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي - أن يضعوا له نهاية ، بالمحاولة الأولى التي تمت على يد أبي بكر وعمر ، ثم بالمحاولة الثانية التي تمت على يد عثمان وأقره عليها علي ، وشارك فيها كثير من الصحابة ، ومنهم من كان صاحب مصحف . مثل « أبي » .

وعثمان لم يقدم على ما فعله إلا حين قرَّره الخلاف ، ولم يمتنع ما أقدم عليه إلا بعد أن أطمأنت نفسه

إلى ما انتهى إليه ، ولم يطمئن إليه أطمئنانه إلا بعد أن آزرته عليه الكثرة . وبعد هذا كله وقف عثمان موقفه الحازم القاطع فالزم الأمصار بالمصحف الإمام ، ثم أحرق ما عداه . ومعنى هذا أنه لا رجعة إلى هذا الخلاف ، ولا سبيل إلى الرجعة إليه ، إذ لو صح أن نمة شكاً وقع في رُوع عثمان لما كان منه هذا القرار الحازم القاطع .

وأملك تذكر ما كان من مروان من إحراقه لمصحف حفصة ، الذي كان مرجعاً من مراجع الإمام . وقد أراد من هذا ألا يسكون نمة رجعة إلى الوراء تُثير هذا الخلاف في كتاب قال فيه تعالى : (إِنَّا نَعْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ^(١)) .

وبعد ما يقرب من قرن إلا قليلاً يطالعنا ابن عاصم بمؤلفه في اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق ، أو قل بعد أن أختفى جيل القراء الأول والثاني والثالث من الميدان ، وبعد أن نهض أصحاب المصحف الإمام أيديهم من أدلتهم وطرحوها وأحرقوها ، بعد هذا كله تُثار قضية لا تسكف فيها ، أدلتها الخلافية قُطِع فيها بالرأى ، وأستبعد شيء ، لا يستقيم ، وأقيم مقامه شيء مستقيم .

وإننا من أجل هذا من القائلين - لا خوفاً على ما بين أيدينا - بأن إثارة مثل هذا ليست نوعاً من الدراسة ، فتلك حراسة بتراء لا تملك أسلوبها العلمي الصحيح . وقد كنا نرغب بها لو كانت شيئاً جديداً لم نعرفه البيئة الأولى حين حكمت في أسره ، بل لقد كان شيئاً مبروداً للبيئة الأولى نعرفه ونعرف أكثر منه ، ولقد حكمت فيه وقرعت منه ، وإثارته بعد هذا ليسكون شيئاً يدرس نوعاً من الكيد ، ولو كنا نملك لمفينا آثاره كما عفى عثمان آثاراً مثله ، ولن نكون معها متجشئين أو متسفين أو خائفين ، بل نكون مع الحزم الذي اتصف به «عثمان» وناصره عليه «علي» ، واجتمع معه في الرأي عليه اثنا عشر صحابياً ، يجمعهم عثمان لهذا العمل الجليل .

وما صدقها كلمة جرت على لسان أبي بكر السجستاني في ختام عرضه لمصحف «أبي بن كعب» حين يقول : لا نرى أن يُقرأ القرآن إلا بمصحف عثمان الذي اجتمع عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن قرأ إنسان بخلافه في الصلاة أمرته بالإعادة .

ولقد جاء في المصحف الإمام من الرسم القديم ، ما كان مظنة اللبس ، ولقد رأى عثمان أن السنة العرب نقيضه على وجهه ، وإن بدا على غير وجهه ، فلم يمرض له ؛ ولعل هذا هو تفسير ما عزي إلى عثمان حين قال :

(١) الحجر : ٩

إن فيه لحناً ومُتقيمه للعرب بالسنتها . ويزيد هذا بياناً قوله ، أعني : عثمان : « لو كان السُّبُل من هُذيل والكَاتِب من ثَقِيف لم يوجد فيه هذا » .

ويقول ابن أشتة في كتابه « المصاحف » : جميع ما كتب خطأ يجب أن يقرأ على صحة لفته لا على رسمه ، وذلك في نحو « لا أَوْضُوا » و « لا أذْبَحْهُ » بزيادة ألف في وسط الكلمتين ، إذا لو قُرئ بظاهر الخط لكان لحناً شديداً ، يقلب معنى الكلام ويخل بنظامه .

ويقول أبو بكر السجستاني في كتابه « المصاحف »^(١) تعقيباً على الحديث المنزوع إلى عثمان : « هذا عندي بمنى : بلغتها - يريد : معنى قوله بالسنتها - وإلا لو كان فيه لحن لا يجوز في كلام العرب جميعاً لما استُجِيز أن يبحث به إلى قوم يقرؤونه » .

ويؤيد هذا ما روى عن عمر بن الخطاب : « إنا لترغب عن كثير من لحن أبي . بمنى : لغة أبي »^(٢) .

١٤ - تعقيب على كتب المصاحف

ويزور أبو بكر السجستاني إلى عائشة ، يرويه هشام بن عروة عن أبيه ، قال : سألت عائشة عن لحن القرآن « إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ »^(٣) ، وعن قوله تعالى « وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ زَكَاةً »^(٤) ، وعن قوله تعالى : « وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ »^(٥) ، فقالت : يا بن أختي ، هذا عمل السكتاب أخطأوا في الكتاب^(٦) .

ومثل هذا الذي عُزِيَ لعائشة يُعزى لأبان بن عثمان يرويه الزبير يقول : قلت لأبان بن عثمان : كيف صارت « أَسْكِنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » ما بين يديها وما خلفها رفع وهي نصب ؟ قال : من قبل السكتاب ، كتب ما قبلها ثم قال : ما أكتب ؟ قال : أكتب « للمؤمنين الصلاة » فكتب ما قبل له^(٧) .

ويتضم إلى هذا ما يُعزى إلى سعيد بن جبير أنه قال : في القرآن أربعة أحرف لحن : « وَالصَّالِحِينَ » ، و « قَاصِدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ »^(٨) ، و « إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ » . وإليك ما يؤوله عالم جليل من علماء التفسير والألفاظ :

(١) المصاحف لأبي بكر السجستاني : ٢٢

(٢) النساء : ١٦٢

(٣) المصاحف : ٢٤

(٤) المائدة : ١٠

(١) المصاحف : ٢٢

(٢) طه : ٦٣

(٣) المائدة : ٦٩

(٤) المصاحف : ٢٢ - ٢٤

يقول الزمخشري محمود بن عمر في كتابه «الكشاف»^(١) : «والصائبون» (المائدة : ٦٩) رفع على الابتداء ، والنية به التأخير عما في حيز «إن» من اسمها وخبرها ، كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصائبون كذلك ، وأنشد سيبويه^(٢) شاهدا له :

وَالْأَفَاعِلُوا أَنَا وَأَنْتُمْ بُنَاءً مَا بَقِيْنَا فِي شِقَاقِ

أى : فاعلوا أنا بُنَاءً وأنتم كذلك . فإن قلت : هل زعمت أن ارتفاعه للعطف على محل «إن» واسمها ؟ قلت : لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر ، لا تقول : إن زيدا وعمرو مطلقان ، فإن قلت : لم لا يصح والنية به التأخير ، فكأنك قلت : إن زيدا مطلق وعمرو ؟ قلت : لآنى إذا رفعت عطفاً على محل «إن» واسمها ، والهامل في محلها هو الابتداء ، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر ، لأن الابتداء يفتظم الجزأين في مقامهما كما تفتظمهما «إن» في عملها ، فهو رفعت «الصائبون» والنوى به التأخير بالابتداء ، وقد رفعت الخبر بأن ، لأعملت فيها رافعين مختلفين .

فإن قلت : فقوله «والصائبون» معطوف لا بدله من معطوف عليه فما هو ؟ قلت : مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله «(إن الذين آمنوا)» ولا محل لها ، كما لا محل للتي عطفت عليها .

فإن قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة ، فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه على أن «الصائبين» أئيين هؤلاء الممدودين ضللا وأشدم غيا ، وما شئوا صائبين إلا لأنهم صبثوا عن الأدب أن كلمها ، أى خرجوا . كما أن الشاعر قدم قوله «وأنتم» تنبيها على أن المخاطبين أرغل في الوصف بالبهاء من قومه ، حيث عاجل به قبل الخبر الذى هو «بناء» ، لتلا بدخل قومه في البنى قبلهم ، مع كونهم أرغل فيه منهم وأثبت قديما .

فإن قلت : لو قيل : والصائبين وإياكم ، لكان التقديم حاصلًا ؟ قلت : لو قيل هكذا لم يكن من التقديم فى شيء ، لأنه لا إزالة فيه عن موضعه ، وإنما يقال : مقدم ومؤخر ، للمزال لا لاقار فى مكانه ، ويجرى هذه الجملة مجرى الاعتراض فى الكلام .

وقال الزمخشري^(٣) : «والقيمين» (النساء : ١٦٣) نصب على المدح إيمان فضل الصلاة ، وهو باب واسع . وقد كثره سيبويه على أمثلة وشواهد ، ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه خطأ فى خط المصحف .

(١) الكشاف : (١ : ٦٦٠ - ٦٦١ طبة الاسفانة)

(٢) الكتاب : (١ : ٢٩٠)

(٣) الكشاف (١ : ٤٩٠)

وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ، ولم يعرف مذاهب العرب وما هم في النصب على الأئمة من الانشقاق ، وخفى عليه أن السابقين الأولين الذين مناهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ، كانوا أبدية في الغيرة على الإسلام وذب المظالم عنه من أن يتركوا في كتاب الله نعمة يسدها من بعدهم ، وحرقا يرفقوه من لحق بهم .

وقيل : هو عطف على « (بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ) » أي يؤمنون بالكتاب وبالقيميين الصلاة ، وهم الأنبياء . وفي مصنف عبد الله « (وَالْقِيَمُونَ) » بالواو ، هي قراءة مالك بن دينار ، والجحدري ، وعيسى النقي . وقال الزمخشري ^(١) « (يُرَوِّا كُنْ) » (الناقضون : ١٠) عطفا على محل « فأصدق » . كأنه قيل : إن أخرني أصدق رأكن . ومن قرأ « وأكون » على النصب ، فلي اللفظ . وقرأ عبيد بن عمير « وأكون » على الرفع ، وتقديره : وأنا أكون ، عِدَّة منه بالصلاح .

وقال الزمخشري ^(٢) : « (إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ) » (طه : ٦٣) : قرأ أبو عمرو « (إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ) » ، على الجملة الظاهرة المكشوفة . وابن كثير وحفص : « (إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ) » ، على قولك : إن زيدا لمطلق . واللام هي الفارقة بين « (إِنْ) » النافية والحقيقة من التثنية . وقرأ « (أَبَى) » لم أن ذان إلا ساحران . وقرأ ابن مسعود : أن هذان ساحران ، بفتح أن وبغير لام ، بدل من « النجوى » . وقيل في القراءة المشهورة — وهو يعني المصنف الإمام — « (إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ) » ، هي لغة بلحارث بن كعب ، جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف ، كمما وسعدى ، فلم يقلبوها في الجر والنصب . وقال بعضهم : « (إِنْ) » بمعنى : « نعم » وساحران » خبر مبتدأ محذوف ، واللام داخلية على الجملة ، تقديره : لهما ساحران ، وقد أعجب به أبو إسحاق .

وهما أنت ذا ترى في كلام الزمخشري دليلاً جديداً يؤيد ما قلنا من قبل عن القراءات السبع في القرآن وأنها لغات العرب جاءت ميثوقة في القرآن ، وبها كلها يتجه الكلام .

وأما ما جاء ممزوراً إلى عائشة ، فما نطن عائشة تسكت على خطأ الكتاب في كتاب الله وترضى به يشيع ويخرج عن المدينة إلى الأمصار ، ولم تكن بعيدة عن عثمان ولا عن الصعابة السكانيين ، وما نظنها كانت أقل منهم حرصاً على سلامة كتاب الله ، وحسبك ما قدمه الزمخشري في هذه .

(٢) الكتاب (٢ : ٧٢) .

(١) الكتاب (٤ : ٥٤٤) .

وأما عن تلك التي تُعزى لأبان بن عثمان ، فلا ندري كيف جاءت على لسانه ، مع العلم بأنه ممن لم يشهدوا عصر التدوين ، ولا كان حاضراً ذلك ، فلقد كانت وفاته سنة ١٠٥ هـ ، وعثمان مات سنة ٣٥ هـ .

فهذا الذي نُسب إلى « أبان » استنباط لا رواية مأثورة . وهذا الاستنباط الذي استنبطه « أبان » لا يصح إلا عن مشاهدة أو سماع عن مشاهدة ، وكلاهما لم يتوفر لهذا الحكم .

وثمة شيء آخر : ما يمزوه أصحاب التوالمف في المصاحف إلى الحجاج بن يوسف ، وأنه غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً ، وقد رواها أبو بكر السجستاني في كتابه المصاحف مرتين :

الأولى بقول فيها : حدثنا عبد الله : حدثنا أبو حاتم السجستاني : حدثنا عبيد بن صهيب ، عن عوف بن أبي جميلة : أن الحجاج بن يوسف غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً^(١) .

والثانية يقول فيها : قال أبو بكر — يعني نفسه — كان في كتاب أبي : حدثنا رجل ، فالتُ أبي : من هو ؟ قال : حدثنا عبيد بن صهيب ، عن عوف بن أبي جميلة : أن الحجاج بن يوسف غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً^(٢) .

وهذه هي الأحرف كما ذكرها أبو بكر السجستاني :

١ — كانت في البقرة « لَمْ يَنْسَنَ » فغيرها « لَمْ يَنْسَنَهُ » بالماء (الآية : ٢٥٩) .

وأحب أن أعقب أن ابن مود قرأ « لم ينسن » والأصل فيها « ينسن » ، فحابت لأن الثانية حرف علة ، كافي : تنفض ، وتنفى . وقرأ حمزة والكسائي بحذف الماء في الوصل ، على أنها هاء مكسرة . وقرأ باقي السبعة بإثبات الماء في الوصل والوقف ، على أنها أصلية . وقرأ « أبي » « لم ينسنه » بإدغام التاء في السين .

٢ — وكانت في سورة المائدة : « كَثِيرَةً وَمِنْهَا جَا » ، فغيره « شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا » (الآية : ٤٨) وأحب أن أعقب أن هذه لم يقرأ بها أحد من القراء .

٣ — وكانت في سورة يونس « هُوَ الَّذِي يُنْذِرُكُمْ » ، فغيره « هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ » (الآية : ٢٢) .

(١) المصاحف (ص : ١٩)

(٢) المصاحف (ص : ١١٧)

وأحب أن أعقب أن « يُفْشِرْكُمْ » قراءة ابن عامر ويزيد بن القهقاع . وينشركم ، أى يحبيكم .
٤ - وكانت في سورة يوسف « أَنَا آتِيكُمْ بِهِ » ، فغيرها « أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ »
(الآية : ٤٥) .

وأحب أن أعقب : أن هذه لم يقرأ بها أحد من القراء .

٥ - وكانت في سورة المؤمنين « سَيَقُولُونَ رَبِّهِ » ، فغيرها « سَيَقُولُونَ اللَّهُ » (الآيات : ٨٥ و ٨٦ و ٨٩) .
وأحب أن أعقب : أن الأولى هي القراءة المشهورة ، وبالثانية قرأ أبو عمرو ، ويعقوب .
٦ و ٧ - وكانت في سورة الشعراء « مِنَ الْمُخْرَجِينَ » (الآية : ١١٦) فغيرها « مِنَ الْمَرْجُومِينَ » ،
و « مِنَ الْمَرْجُومِينَ » (الآية : ١٦٧) فغيرها « مِنَ الْمُخْرَجِينَ » .

وأحب أن أعقب : أن هذه وثلاثها القراءتان المشهورتان .

٨ - وكانت في سورة الزخرف « مَعَانِشُهُمْ » ، فغيرها « مَعِيشَتُهُمْ » (الآية : ٣٢) .

وأحب أن أعقب : أن هذه هي القراءة المشهورة ، ولم يقرأ بالأولى أحد من القراء .

٩ - وكانت في سورة « الَّذِينَ كَفَرُوا » ، « يَأْسَنَ » فغيرها « آسَنَ » (الآية : ١٥) .

وأحب أن أعقب أن حمزة قرأ « يأسن » وفقاً وعللاً ، وأن « آسن » هي القراءة المشهورة .

١٠ - وكانت في سورة الحديد « قَائِلِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْتَقُوا » ، فغيرها « وَأَنْتَقُوا »
(الآية : ٧) .

وأحب أن أعقب أن القراءة المشهورة « وَأَنْتَقُوا » ولم يقرأ أحد من القراء (وَأَنْتَقُوا) .

١١ - وكانت في سورة التكاوير « وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنٍّ » فغيرها « بِظَنٍّ »
(الآية : ٢٤) .

وأحب أن أعقب أن مكياً ، وأبا عمرو ، وعلي ، ويعقوب ، قرءوا « بظنين » أى : منهم ؛ وأن
الباقين قرءوا « بظنين » أى : بينيل .

هذه هي الأحرف التي يروى أن الحجاج غيرها في مصحف عمار .

وأحب أن أزيد الأمر وضوحاً ولا أتركه على إيهامه هذا الذي يثير شكاً ويكاد القول فيه على ظاهره
يعطى لتعديج أن يغير في كتاب الله :

١ - لقد رأيت كيف روى أبو بكر السجستاني هذا الخبر في كتابه « للمصاحف » في مكانين
بسنين ، وما وإن اتفقا ، إلا أن ثانيهما رواه أبو بكر في أسلوب يهون فيه من شأن المستند إليه الخبر .

٢ - ولقد رأيت ، من التعقيب الذي عقبتنا به على هذه الأحرف ، أن ثمانية منها نَحْتَمِلُ قراءات ، وأن ما أثبتته الحجاج كان المشهور .

٣ - ولقد رأيت كذلك أن ثلاثة منها لم يقرأ بها أحد من القراء ، وهي « شريعة » التي غيرت إلى « شرعة » ، و « آتيكم » التي غيرت إلى « أنبئكم » و « معاشهم » التي غيرت إلى « معيشتهم » . ونحن نعرف :

٤ - أن الحجاج كان من حُفَظ القرآن المعدودين .

٥ - وأن الحجاج كانت على يديه الجولة الثانية في نقط المصاحف وشكلاها ، بعد أن كانت الجولة الأولى على يد الصحابة ، وكانت جولة الصحابة بداية لم تشمل القرآن كله بل كانت نوعاً من التبسيط .

يقول الداني^(١) بسند متصل عن قتادة : بدءوا فنقطوا ثم تحسوا ثم عثروا - وهو يعني الصحابة . ثم يقول في إثر هذا : هذا يدل على أن الصحابة وأكابر التابعين هم المبتدئون بالنقط ورسم الخموس والعشور .

وفي الجولة الثانية خلاف ، فن الرواة من يمزوها إلى أبي الأسود الدؤولي بعد أن طلبها منه زياد ، ومنهم من يمزوها إلى يحيى بن يعمر المدائني ، وكان ذلك عن طلب الحجاج . ويقول الداني : إن هذا هو الأمر .

وما نظن الحجاج ، وهو الحافظ للقرآن - كان بعيداً عن يحيى بن يعمر ، كما لم يكن عثمان بعيداً عن زيد بن ثابت ، وسعيد .

وبهذا نستطيع أن نقول :

١ - إن هذه الأحرف الثلاثة التي لم يقرأ بها أحد لم تكن منقوطة ولا مشكولة ، فبزها النقط وبينها ، وكانت على ألسنة الناس كما كانت على لسان الحجاج ، بدليل أنها لم ترد في قراءة ، ولا ندرى كيف قامت هذه دعوى .

٢ - إن الأحرف الثمانية الباقية ، فيها قراءات ، كما مر بك ، والمشهور منها ما يُمزَى إلى الحجاج أنه أثبتته ، ولكن من أثنى لنا أن هذا الذي يقال إن الحجاج أثبتته لم يكن ، وأن رسم مصحف عثمان كان يشتمل عليه ، وأن الحجاج لم يفعل غير أن بيّنه وميزه .

(١) المحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (س : ٢-٣)

يؤكد هذا ما روى أن عثمان حين كان يرض عليه المصحف غيره لم يَنْسَنَ إلى « لم يَنْسَنَ » .
إذن فالنسي يعزى إلى الحجاج فإنه عَزَى إلى عثمان أنه فعله من قبله ، ولا يمنع أن يكون هذا كله - أعنى
الأحرف الثمانية - كانت مقروءة مصحف عثمان ، وأن الحجاج حين نَقَطَ وشكّل ميز الرُّسم وبَيَّنَّته ،
بَسَّطَ وحى في ذلك من مقروئيه ومقرؤ الناس الذين يقرءون مصحف عثمان .

وإذن فلا تغيير للحجاج في كتاب الله ، ولم يكن ما فعل غير تبين رسم وتمييزه ، وما نطق الحجاج
خرج فيما فعل على مصحف عثمان بقراءة أخرى ، بل نكاد نؤيد أنه التزم فيها مقروء مصحف عثمان ،
وأنه لم يفعل غير التمييز والتبيين ، بدليل تلك التي سقناها عن « لم يَنْسَنَ » و « لم يَنْسَنَ » ، وأن الحجاج
فيما فعل كان حريصاً على أن يُمكن للمصحف الإمام ، وأن يَنْفَى عنه ما عساه أن يكون دخل عليه من
قراءات .

١٥ - القراءات

وقد سرك الرأى في القراءات السبع ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف » ،
وأن المراد : على سبعة أوجه من اللغات : متفرقة في القرآن ^(١) .

ولقد روى عن عمر أنه قال : نزل القرآن بلغة مضر .

وإذا رجعنا نُدعى قبائل مضر وجدناها سبع قبائل ، وهى : هذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبة ، وتيم
الرباب ، وأسد بن خزيمه ، وقريش .

كما يروى عن ابن عباس أنه قال : نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس بلغة العَجُز من هوازن ،
وأثنان لسائر العرب .

والعَجُز هم : سمد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وتقيف ، وكان يقال لهم : عُلَياً هوازن .

كما يروى عن أبي حاتم السجستاني أنه قال : نزل القرآن بلغة قريش ، وهذيل ، وتيم ، والأزد ،
وربيعة ، وهوازن ، وسد بن بكر .

كما يرى السَّوطى في « الإتيان » ^(٢) : آراء غير مُسندة ، منها :

(١) أنها سبع لغات متفرقة لجميع العرب ، كل حرف منها لقبيلة مشهورة .

(٢) أنها سبع لغات : أربع لعَجُز هوازن ، وثلاث لقريش .

(١) تأويل شكل القرآن (ص : ٢٦) .

(٢) الإتيان (ص : ١٧) .

(٣) أنها سبع لغات ، لغة لقريش ، ولغة لليمن ، ولغة لجرحم ، ولغة لهوازن ، ولغة لقضاة ، ولغة لنعيم ، ولغة لطبي .

(٤) أنها لغة السكّانيين : كعب بن عمر ، وكعب بن لؤي ، ولها سبع لغات .

وهذا الخبر مسند لابن عباس من طريق آخر غير الطريق الأول الذي روى به خبره السابق .

وهذا الاختلاف في التبيين لا يضير في شيء ، فثم لغات سبع مفرقة في القرآن ، أخبر الرسول عن جعلها ولم يخبر عن تفصيلها ، وكان هذا التفصيل مكان الاجتهاد بين المجتهدين .

وليس معنى الحديث أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات ، بل اللغات السبع مفرقة ، تقرأ قريش بلغتها ، وتقرأ هذيل بلغتها ، وتقرأ هوازن بلغتها ، وتقرأ اليمن بلغتها .

وفي ذلك يقول أبو شامة نقلاً عن بعض شيوخه : أنزل القرآن بلسان قريش ، ثم أبيع للعرب أن يقرأوه بلغاتهم التي جرت عاداتهم باستعمالهم على اختلافهم في الألفاظ والإعراب ^(١) .

وبعقب ابن الجوزي على هذه الأحرف السبعة يقول : وأما وجه كونها سبعة أحرف ، دون أن لم تكن أقل أو أكثر ، فقال الأكثرون : إن أصول قبائل العرب تنهى إلى سبعة ، وإن اللغات الفصحى سبع ، وكلاهما دعوى .

وقيل : ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل المراد السمة والتمييز ، وأنه لا حرج عليهم في قراءته بما هو في لغات العرب ، من حيث إن الله تعالى أذن لهم في ذلك .

والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعائة ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر ^(٢) .

وكانت هذه اللغات عليها إلى الرسول ، قد أحاطه الله بها علماً ، وحين يقرأ المذلل بين يديه «عنى حين» وهو يريد «حتى حين» ^(٣) ، يميزه ، لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها .

وحين يقرأ الأسدى بين يديه «نشود وجوه» ^(٤) بكسر التاء في «نورد» ، و «ألم أعهد إليكم» ^(٥) بكسر المهملة في «أعهد» يميزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يهز التميمي على حين لا يهز القرشي ، يميزه ، لأنه هكذا يلفظ وهكذا يستعمل .

(١) الإيقان (ص : ٤٧) (٢) الفشر في القراءات العشر (٢٥-٢٦) .

(٣) المأثورون : ٥٤ - الصفات : ١٧٤ و ١٧٨ - القاريات : ٤٧

(٤) يس : ٦٠

(٥) آل عمران : ١٠٦

وحين يقرأ قارئهم « وإذا قيل لم^(١) » و « غيض للاء^(٢) » بإشمام الضم مع الكسر ، يُجيزه لأنه هكذا بلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « هذه بضاعتنا ردت إلينا^(٣) » بإشمام الكسر مع الضم في « ردت » يُجيزه ، لأنه هكذا بلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « مالك لا تأمنا^(٤) » بإشمام الضم مع الإدغام في ميم « تأمنا » يُجيزه ، لأنه هكذا بلفظ وهكذا يستعمل ، وتكليفه غير هذا عسير .

وحين يقرأ قارئهم « عليهم » و « فيهم » بالضم ، ويقرأ قارئ آخر « عليهم » و « فيهم » بالهلة ، يُجيزه ، لأنه هكذا بلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « قد أفلح » و « قل أوحى » و « خلو إلى » بالنقل ، يُجيزه لأنه هكذا بلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « موسى » و « عيسى » و « سبأ » بالإمالة يُجيزه ، لأنه هكذا بلفظ وهكذا يستعمل .
وحين يقرأ قارئهم « خبيراً » و « بصيراً » بالترقيق ، يُجيزه ، لأنه هكذا بلفظ وهكذا يستعمل .

وحين يقرأ قارئهم « الصلوات » و « الطلقات » بالتفخيم ، يُجيزه ، لأنه هكذا بلفظ وهكذا يستعمل^(٥) .
ويفسر لك هذا ما روى عن « عمر » قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة « الفرقان » على غير ما أقرؤها ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أقرأ فيها ، فأتيته به النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال له : أقرأ ، فقرأ تلك القراءة . فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال لي : أقرأ ، فقرأت . فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال : هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فأقرءوا منه ما تيسر^(٦) .

وكذلك بفسرك هذا ما روى عن « أبي » قال : دخلت المسجد أصلي فدخل رجل فافتتح « النعل » فقرأ ، فخالفني في القراءة . فلما انتقل قلت : من أقرأك ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم جاء رجل فقام يصلي ، فقرأ وافتتح « النعل » ، فخالفني وخالف صاحبي ، فلما انتقل قلت : من أقرأك ؟ قال : رسول

(٣) يوسف : ٦٥

(٢) هود : ٤١

(١) البقرة : ١١

(٤) يوسف : ١١

(٥) نأويل مشكل القرآن (ص : ٣٠) - القدر لـ القراءات النادرة (١ : ٢٩) .

(٦) المرجع السابق .

الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأخذتُ بأيديهما فانطلقت بهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقلت : استقرئْ هذين ، فاستقرأ أحدهما . فقال : أحضت . ثم استقرأ الآخر ، فقال : أحضت .
ويقول ابن قتيبة : «ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لفته وما جرى عليه اعتياده طفلاً ونائناً وكملاً لا شدة ذلك عليه ، وعنت الحنة فيه ، ولم يمكنه إلا بمد رياضة للنفس طويلاً ، وتذليل لسان ، وقطع للمادة^(١) » .

١٦ - القراء

ولقد كانت كتابة المصحف بلغة قريش ، أو بحرف قريش ، بذلك أمر عثمانُ زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وهم ينسخون للمصاحف ، وقال لهم : إذا اختلفتم أتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم .
وأرسل عثمان للمصاحف إلى الأمصار ، وأخذ كل أهل مصر يقرءون بما في مصحفهم ، يثقلون ما فيه عن الصحابة الذين تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قاموا بذلك مقام الصحابة الذين تلقوا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان بالدينة نفر ، منهم : ابن السائب ، ومعاذ بن الحارث ، وشهاب الزهري ؛ وكان بمكة نفر ، منهم : عطاء ، وطاؤوس ، وعكرمة ؛ وبالكوفة نفر ، منهم : علقمة ، والشامي ، وسعيد بن جبير ؛ وبالبصرة نفر ، منهم : الحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ؛ وبالشام نفر ، منهم : الخيرة بن أبي شهاب الغزومي ، صاحب عثمان بن عفان .

ثم تجرد قوم للقراءة وأعتنوا بضبطها أتم عناية حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم ، ويروحل إليهم . ويؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلد على تأقي قراءتهم بالقبول ، ولم يختلف عليهم فيها أنسان ، ولتصديهم لقراءة نُسبت إليهم .

فكان بالدينة نفر ، منهم : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم نافع بن أبي نعيم .
وكان بمكة نفر ، منهم : عبد الله بن كثير ، ومحمد بن يحيى .
وكان بالكوفة نفر ، منهم : سليمان الأعشى ، ثم حمزة ، ثم الكسائي .
وكان بالبصرة نفر ، منهم : عيسى بن عمر ، وأبو عمرو بن الملاء .

(١) تأويل مفصل القرآن (ص : ٢٢) - النشر (١ : ٢١)

وكان بالشام نقر ، منهم : عبد الله بن عامر و شريح بن يزيد الحضرمي^(١) .
غير أن القراء بعد هذا كثروا وتفرقوا في البلاد ، وأنشروا في الأقطار ، وكاد يدخل على هذا العلم ما ليس فيه ، فشمّر لضبطه وتنقيته أئمة مشهود لهم ، منهم :

(١) الإمام الحافظ الكبير أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الداني ، من أهل دانية بالأندلس ، وكانت وفاته سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وكتابه في هذا الباب هو : « التيسير » .
(٢) الإمام للقرئ المفسر أبو العباس أحمد بن عمارة بن أبي العباس المهدوي ، التوفي بعد الثلاثين وأربعمائة ، وله كتب « الهداية » .

(٣) الإمام أبو الحسن طاهر بن أبي الطيب بن أبي غلبون الحلبي ، نزل مصر ، وتوفي بها سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، وله كتاب : « التذكرة » .

(٤) الإمام أبو محمد مسكن بن أبي طالب القيرواني ، وكانت وفاته سبع وثلاثين وأربعمائة بقرطبة ، وله كتاب : « التبصرة » .

(٥) الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل ، المعروف بأبي شامة ، وله كتاب « المرشد الوجيز » .
وكان رائد هؤلاء جميعاً ، فيما أخذوا فيه ، أن كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت المصحف الإمام ، وصح سندها ، فهي قراءة صحيحة لا يجوز ردّها ولا يحل إنكارها ؛ وإذا اختلف ركن من هذه الأركان كانت تلك القراءة ضعيفة ، أو شاذة ، أو باطلة .

وفي ظل هذه القيود التي أجمع عليها القراء :

(١) الموافقة للعربية ولو بوجه .

(٢) الموافقة للمصحف الإمام ، ولو احتمالاً .

(٣) أن يصح سندها .

قام الأئمة بتأليف كتب في القراءات ، وكان أول إمام جمع القراءات في كتاب هو أبو عبيد القاسم ابن سلام ، للتوفي سنة أربع وعشرين ومائتين . وقد جعل القراءات نحواً من خمس وعشرين قراءة . ونوالى بعده أئمة مؤلفون جمعوا القراءات في كتب ، منهم من جعلها عشرين ، ومنهم من زاد ، ومنهم من نقص ، إلى أن كان الأمر إلى أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد ، فاقصر على قراءات سبع

القراء سبع ، هم : عبد الله بن كثير ، في مكة ؛ ونافع بن أبي رؤيم ، في المدينة ؛ وأبو عمرو بن العلاء ، في البصرة ؛ وعاصم بن أبي النجود ، وحمة بن حبيب الزيات ، وعلى الكسائي ، في الكوفة ؛ وعبد الله ابن عامر ، في الشام .

ثم جاء بعدهم من رفعها إلى عشر ، نذكر منهم إماماً متأخراً وهو : ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد ، المتوفى سنة ٨٨٣ هـ ، وكتابه هو : النشر في القراءات العشر .

والقراء الثلاثة الذين زادوا على السبعة ، هم : يزيد بن القعقاع ، في المدينة ؛ ودمتوب الحضرمي ، في البصرة ؛ وخلف البزاز ، في الكوفة .

هذا غير قراء جاءوا بقراءات شاذة ، كان على رأسهم ابن شيبوذ ؛ المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، ثم أبو بكر المطار النحوي المتوفى سنة ٥٣٥ هـ .

١٧ - وأي ابن لثنية في القراءات

وقد ناص ابن قتيبة وجوه الخلاف في القراءات ، فقال^(١) :

وقد تدرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه :

أولها : الاختلاف في إعراب الكلمة ، أوف حركة بنائها بما لا يُزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها ، نحو قوله تعالى : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ - هود : ٧٨ - و ﴿ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ بالنصب - ، ﴿ وَهَلْ يُجَازِي إِلَّا الْكُفُورُ ﴾ - سبأ : ١٧ - و ﴿ هَلْ يُجَازِي إِلَّا الْكُفُورُ ﴾ ، ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ النساء : ٤٧ ، الحديد : ٢٤ و ﴿ الْبَخْلُ ﴾ بفتح الباء ، والخاء و ﴿ فَتَضَرَّ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ - البقرة : ٢٨٠ - و ﴿ مَيْسَرَةٍ ﴾ بضم الميم .

ثانيها : أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها ، ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب ، نحو قوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ سبأ : ١٩ ، و ﴿ رَبُّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ ، الأولى على صيغة الأمر ، والثانية على صيغة للناسي ، و ﴿ إِذَا تَلَقَّوْنَهُ بِالسَّلَامِ ﴾ النور : ١٥ - و ﴿ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ بفتح فكهم فضم : و ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ يوسف : ٤٥ - و ﴿ أُمِّهِ ﴾ أي : نسيان .

ثالثها : أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ، ولا يزيل صورتها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ﴾ - البقرة : ٢٥٩ - و ﴿ نُنْشِزُهَا ﴾ بالراء ، و ﴿ حَقِّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ سبأ : ٢٣ - و ﴿ فُزِعَ ﴾ بالراء والنين للمعجمة .

(١) تأويل مشكل القرآن (٢٨ - ٢٢) .

رابعها : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب ، ولا يغير معناها في الكلام ، نحو قوله تعالى : « إِن كَانَتْ إِلَّا صَحِيفَةً وَاحِدَةً » يس : ٢٩ ، و « زَقْنَةً وَاحِدَةً » ؛ و « كَالْمِثْقَالِ مِنَ التَّنْفُوسِ » القارعة : ٥ ، و « كَالصُّوفِ » .

خامسها : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها ، نحو قوله تعالى : « وَطَلَعَ مَنصُورٌ » الواقعة : ٢٩ ، و « طَلَعَ » .

سادسها : أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير ، نحو قوله تعالى : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » ق : ١٩ ، وفي موضع آخر : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

سابعها : أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان ، نحو قوله تعالى : « وَمَا عَلَّمْتُمُ ابْنِيكُمْ » و « وَمَا عَلَّمْتُهُ ابْنِيكُمْ » يس : ٣٥ ، ونحو قوله : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » لقمان : ٢٦ ، و « إِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » .

ثم قال ابن قتيبة :

فإن قال قائل : هذا جائز في الألفاظ المختلفة إذا كانت للمعنى واحداً ، فهل يجوز أيضاً إذا اختلفت المعاني ؟

قيل له : الاختلاف نوعان : اختلاف تغاير واختلاف تضاد .

فاختلاف التضاد لا يجوز ، ولست واجدهُ بحمد الله في شيء من القرآن إلا في الأمر والنهي من الناسخ والنسخ .

واختلاف التغاير جائز ، وذلك مثل قوله : « وَادْكُرْ بَعْدَئِذَا » أي بعد حين ، و « بعد أمة » أي بعد نسيان له ، والمعنيان جميعاً ، وإن اختلفا ، صحيحان ، لأن ذكر أمر يوسف بعد حين وبعد نسيان له ، وكقوله : « إِذْ تَأَقَّوَتْهُ بِالْسِيفِ » أي تقبلونه وتقولونه ، و « تَلَقَّوْهُ » من الولد ، وهو الكذب ، والمعنيان جميعاً ، وإن اختلفا ، صحيحان ، لأنهم قبلوه ، وقالوه وهو كذب . وكقوله : « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » على طريق الدعاء والمألة ، و « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » على جهة الخبر ، والمعنيان ، وإن اختلفا ، صحيحان .

وكقوله : « وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا » وهو الطعام ، و « وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا » بضم الميم وسكون التاء وفتح الكاف ، وهو الأترج ، فدلّت هذه القراءة على معنى ذلك الطعام .

وكذلك « نُشْرُها » و« نُشْرُها » لأن الإِشْرار : الإِحياء ، والإِشْرار : هو التحريك لقتل ، والحياة حركة ، فلا فرق بينهما .

وكذلك « فُرِّعَ عن قُلُوبِهِم » و« فُرِّغَ » ، لأن « فُرِّعَ » : خُفِّفَ عنها الفزع ، وفُرِّغَ : فُرِّغَ عنها الفزع .

ثم قال ابن قتيبة : وكل ما في القرآن من تقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقصان ، فلي ، مثل هذه السبيل .

١٨ - تعليل على القراءات

والأمر في القراءات كما يبدو لك ، يتعصر في أحوال ثلاث :

الأولى — وهي تنصل بأحرف العرب أو لسانها — وهي التي قدمنا منها مثلاً في الإمالة ، والإشمام والترقيق ، والتنخيم ، وغير ذلك ، مما لَفَّظَتْ به القبائل ولم تستطع التثنية غيره ، وهذا الذي قلنا عنه : إنه الذي بالأحرف السبعة التي جاءت في الحديث .

وما من شك في أن ذلك كان رخصة للعرب يوم أن كانوا لا يستطيعون غيره ، وكان من العسير عليهم تلاوة القرآن بأخه قريش .

ثم ما من شك في أن هذه الرخصة قد نُسخَتْ بزوال الضر ونيسر الحفظ ، وفُسُو الضبط ، وتعلم القراءة والكتابة ^(١) .

والإليك مقال الطبري بعد أن عرفت مقال الطحاوي ، يقول الطبري :

ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه اختلاف الناس في القراءة ، وخاف من تفرق كلمتهم ، تجمهم على حرف واحد ، وهو هذا المصحف الإمام ، واستوثقت له الأمة على ذلك ، بل أطاعت وراثة أن فيما فعله الرشد والهداية ، وترك القراءة بالأحرف السبعة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها ، طاعة منها له ، ونظراً منها لأنفسها ولن بعدها من سائر أهل ملتها ، حتى درست من الأمة معرفتها ، وعفت آثارها ، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها لنورها وعفو آثارها .

فإن قال من ضمنت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهم إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهم بقراءتها ؟ قيل : إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمراً بإيجاب وفرض ، وإنما كان أمراً بإباحة ورخصة .

(١) معاني الآثار للطحاوي أحمد بن ٤٤

الثانية : وهي تفصل برسم المصحف وبقائه عهداً غير منقوط ولا مشكول إلى زمن عهد الملك ، حتى قام الحجاج بإسناد هذا العمل إلى رجلين ، هما : يحيى بن بهمر ، والحسن البصري ، فنقطاه وشكلاه .
وما نرى صحيحاً هذا الذي ذهب إليه القراء من تأويلات كثيرة تكاد تحتمل الكلمة عشرين وجهاً ، أو ثلاثين ، أو أكثر من ذلك ، حتى لقد بلغت طرق هذه القراءات للقراءات العشر فقط ثمانمائة وثمانين طريقة .

فإن كان هذا اجتهداً من القراء ، ولكنه كان إسرافاً في ذلك الاجتهاد ، وإنك لو تتبع ما عتب به الزمخشري في تفسيره على القراء لوجدت له الكثير مما رده عليهم ولم يقبله منهم . فاقصد عقب على ابن عامر ، في قراءته لقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِّلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ » (الأنعام : ١٢٧) ، فاقصد تراها ابن عامر « زَيْنَ لِّلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ » برفع « القتل » ، ونصب « الأولاد » ، وجر « الشركاء » ، على إضافة « القتل » ، إلى « الشركاء » والفصل بينهما بغير الظرف .

فقال الزمخشري : فهذا لو كان في مكان الضرورات - وهو الشر - لكان شيئاً مردوداً ، فكيف به في الكلام للثبور ، وكيف به في القرآن المجز بحسن نظمه وجزالة ، والقي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف « شركائهم » مكتوباً بالياء .

وبعقب الزمخشري مرة أخرى على أبي عمرو حيث بدعهم الراء في اللام في قوله تعالى : « قَتِيلُهُ لَيْنَ بَشَاء » (البقرة : ٢٨٤ ، آل عمران : ١٢٩ ، السائدة : ٢٠ و ٤٣ ، النتح : ١٤) فيقرأها أبو عمرو : « قَتِيلُهُ لَيْنَ بَشَاء » . ويقول الزمخشري : ومُدغم الراء في اللام لا حين مخطئ خطأ فاحشاً ، وراويه عن أبي عمرو مخطئ مرتين ، لأنه يلحن ، وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤخذ به جهل عظيم .

وكذلك تتبع ابن قتيبة القراء وأحصى لهم الكثير ، وفي ذلك يقول : وما أقل من سلم من هذه الطبقة في حرفه من الفلط والوم^(١) .

ونحن حين نمسك لهذه القراءات أن تبيش نكون كمن يحاول أن يخرج على ما أراده عثمان ، ومعه على من قبل ، ثم الصعابة ، على وحدة القرآن تلاوة . هنا بعد أن صح لنا أن هذه القراءات اجتهد ، وأن رسم المصحف ، وإماله نقطاً وشكلاً ، جرت إلى شيء منها .

(١) تأويل شكل القرآن (ص : ٤٣)

يقول ابن قتيبة . وهو يناقش بعض القراءات :
وليس تخلو هذه الحروف من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الإعراب فيها ، أو أن تكون
غلطاً من الكاتب .

فإن كانت على مذهب النحويين ، فليس هاهنا لحنٌ بحمد الله .
وإن كانت خطأ في الكتابة ، فليس على الله ولا على رسوله صلى الله عليه وسلم جناية الكاتب
في التلخيص .

ولو كان هذا عيباً يرجع على القرآن لرجع عليه كل خطأ وقع في كتابة المصحف من طريق التهجى ،
فقد كُتب في الإمام : « إن هَذَا لَسَاحِرٌ » بحذف ألف التثنية ، وكذلك ألف التثنية تحذف في
هجاء هذا المصحف في كل مكان . وكُتب كُتَابُ المصحف : الصلوة والزكاة ، والحياة ، بالواو ،
واتيمناهم في هذه الحروف خاصة على التبيين بهم^(١) .

فنعن إذن بين رسم الكتاب كان ما رسموا آخر الجهد عندهم ، ولقد حفظ الله كتابه بالحفظة
القارئ أكثر مما حفظه بالكتاب الكاتبين ، ثم كانت إلى جانب الحفظة حجة أخرى على الرسم ،
وهي لغة العرب ، أقامت الرسم لتدعيم الحفظ ولم تُقم الحفظ لتدعيم الرسم ، وكان هذا ما عناه عثمان
حين قال : أرى فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها . ولقد أقامته بألسنتها ، وتركتم الرسم على
حاله مُتَلافي مُصحفه الإمام ، الذي كان حرباً على أن يجتمع عليه الأمة الإسلامية ، ومن أجل ذلك
أحرق ما سواه .

غير أن ما فعله عثمان لم يَقْضِ على كل خلاف ، وأوسع في هذا الخلاف بقاء المصحف الإمام غير
منقوط ولا مشكول ، كما مرّ بك .

من أجل ذلك كان أول شيء عمله الخُجَّاجُ ، بعدما فرغ من قِطْعِ المصحف وشكله ، أن وكل
إلى «عاصم الجعدي» ، و«ناجية بن رُمح» ، و«علي بن أصم» ، أن يفتشوا المصاحف وأن
يَقْطَعُوا كل مُصحف يَجِدُونَهُ مخالفاً لمصحف عثمان ، وأن يُعْطُوا صاحبه ستين درهما . وفي ذلك
يقول الشاعر :

وَالْأَرْسُومَ الدَّارِ أَفْرَأَ كَأَنَّهَا كِتَابٌ نَحَاهُ الْبَاهِلِيُّ ابْنُ أَصَمٍّ^(٢)

(١) تأويل شكل القرآن (ص : ٤٠ ، ٤١)

(٢) . . . (ص : ٢٧)

ونحن اليوم في أيدينا هذا الصحف الإمام أقوم ما يكون ضيقاً ، وأصح ما يكون شكلاً ، فما أغناها به عن كل قراءة لا يحملها رثمه ولا يشير إليها ضيقه ، من تلك القراءات التي كانت تلك حالها التي بسطناها لك .

الثالثة : وهي التي تتصل بإحلال كلمة مكان كلمة ، أو تقديم كلمة على كلمة ، أو زيادة أو نقصان . وما أعلن هذه تكون كلمة تُذكر بعد أن أصبح في أيدينا للصحف الإمام ، هتاء لنا هتان في الأول ، وزقه إلينا الحجاج في الثانية ، وما كان هذان الصلان إلا خطوتين : خطوة دعت خطوة ، في سبيل الوحدة الكاملة لكتاب الله ، كما حفظه الله على لسان الحفظة من الصعابة والذابين .

وآخر ما نختم به الحديث عن القراءات قول الزركشي في كتابه « البرهان » حيث يقول :

« القرآن والقراءات حقيقتان متبايرتان :

فالقرآن : هو الوحي للنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز .

والقراءات السبع متواترة عند الجمهور ، وقيل : بل مشهورة ؛ والتحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة .

أما تواترها عن النبي صلى الله عليه وسلم ففيه نظر .

١٩ - رسم الصحف

ومن الناظرين في رسم القرآن : فريق صرفهم الإجلال له عن أن يفصلوا بين ما هو وحي من عند الله حرك به لسان رسوله ، وبين ما صوره ككتاب الرسول حروفاً وكلمات .

وأنت تعرف أن الكلمة الواحدة قد تختلف صورة رسمها على أيدي كتبة يكتبون عن مثل واحد ، إذا اختلفت طرق تلقينهم للإملاء ، غير أنهم حين يلفظون هذه الكلمة يُجهدون على نطق واحد .

وما من شك في أن القرآن الكريم تعرضَ رثمه لهذا الخلاف ، وكان حفظ الله له في بقاء حفظته ، بين الناس عنهم أكثر مما يكون من القراءة ، وكانوا بهذا مطمئنين ، وحين عدت الماديات على الحفظة بدأ الخوف يبد ، وبدأ تفكير الصعابة يجبه إلى ما هو أبقي ، أعني جمع القرآن مكتوباً .

وكانت محاولة أبي بكر وعمر التي مرت بك ، واجتمع للناس قراءتهم مكتوباً ، وبدأ شغلهم بها هو

مكتوب يترجم شفاهم بما هو متلو ، أو يعادله . وأخذ الرسم يمل برسمه وبقوته الحفظ في عهد لم يكن الصعابة منه أبعدوا كثيراً عن عهد نزول القرآن .

وما كانت الأمة العربية عهد كتابة الوحي أمة عريقة في الكتابة ، وما كان كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلا صورة من العصر البادي في الكتابة ، ولم تكن الكتابة العربية بالأمس البعيد على حالها اليوم من التجويد والكمال إملاء ورشماً . وإن نظرة في رسم المصحف ، وما يحمل من صور إملائية تخالف ما استقر عليه الوضع الإملائي أخيراً ، لتكشف لك عما كان العرب عليه إملاء ، وما أصبحنا عليه نحن .

وحين أطل عهد عثمان كاد اختلاف الناس في قراءة الرسوم يجبر إلى خروجهم على الحفظ ، من أجل هذا فرع عثمان إلى نفر من الصعابة كتبوا للرسم رسول وخيه ، ليدركوا هذا الرسوم ، كي يخرجوا منه بصورة خطية تصور ما أجمع عليه الحفاظ .

وقد لا يفوتك أن الخط العربي عصر كتابة الوحي إلى أيام عبد الملك بن مروان لم يكن عرف النقط المميز للحروف في صورته الأخيرة ، كما لم يكن عرف شكل الكلمات ، وبقي المصحف الرسوم ينتميه النقط في صورته الأخيرة وينقصه الشكل ، وطاش بحميه حفظ الحفاظ من اللحن .

غير أن الأمة العربية كانت قد انتشرت وأظلم الإسلام تحت لوائه أئمة مختلفة ، وأصبح الحفظ في هذه البيئة الواسعة ، وبين هؤلاء الأقوام المختلفين ، لا يفي غناه أبداً أن كانت البيئة محدودة والأقوام غير مختلفين ، من هنا كان لا بد من نقط وشكل على يد « الحجاج » كما مرّ بك .

ولقد كانت هذه المراحل التي مرّ بها جمع القرآن وكتابته ونقطه وشكله نتيجة لقصور الكتابة العربية والخط العربي . إذ لو كانا في كمالها اليوم لما احتاج القرآن في رسمه إلى مرحلة بعد مرحلة ، ولما كتب يوم أن كتب للمرة الأولى في صورة أخيرة .

ونحن بحمد الله ، على الرغم من بعد عهدنا بنزول القرآن ، لم نبد عن وعيه كما أنزل ، نصدقاً لقوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِلُونَ » ، غير أنه يجب أن يلفتنا إلى قرآننا ما لفت الشيخين أبا بكر وعمر إليه ، ثم ما لفت عثمان إليه ، ثم ما لفت الحجاج إليه . فهذه لفتات أحسن فيها أصعابها الخوف من أن يمس القرآن سوء ، فجمعه للناس مكتوباً يوم أن خافوا ذهاب الحفاظ . ثم جمعوا الناس على مصحف واحد يوم أن خافوا تفرق الناس على مصاحف ، ثم تقطعوا وضبطوه يوم أن خافوا أن يتفرق الناس في قراءته .

٢٠ - كتابة المصنف وطبعه

ولقد مر بك كيف كان الوحي يُكتب ، وعلى أى شيء كان يكتب ، ثم : من كانوا يكتبونه .
ومر بك أيضاً كيف جمعه أبو بكر وعمر ، ثم كيف كتب عثمان مصحفه الإمام ، وأرسل . . .
مصاحف أربعة إلى الأمصار : مكة . والبصرة . والكوفة ، والشام ، وأنه أبقى اثنين آخرين في المدينة ،
اختص نفسه بواحد منها .

ومنذ أن دخلت هذه المصاحف الأمصار أقبل المسلمون يندفعونها ، واتخذ نسخوا منها عدداً كثيراً
لا شك في ذلك .

فنعن نقراً للمودى وهو يتكلم على وقعة صفين ، التي كانت بين علي ومعاوية ، وما أشار به عمرو
ابن العاص من رفع المصاحف ، حين أحس ظهور « علي » عليه : « وَرَفَعَ مِنْ مَسْكِرٍ مُعَاوِيَةَ نَحْوَ
مِنْ خَمْسِائَةِ مَصْنُفٍ ^(١) » .

وما نظن هذا العدد الذي رُفع من المصاحف في مسكر معاوية كان كل ما يملكه المسلمون حينذاك .
والذي نظنه أنه كان بين أيدي المسلمين ما يُربى على هذا العدد بكثير ، هذا ولم يكن قد مضى على كتابة
عثمان لمصحفه الإمام ، وإرساله إلى الأمصار ، ما يزيد على سنين سبع .

والجديد الذي يحب أن نسوقه هنا تلامه من نظروا في نشأة الخط العربي ^(٢) : أن العرب كانوا قبيل
الإسلام يكتبون بالخط الجبري - نسبة إلى الحيرة - ثم سعى هذا الخط بعد الإسلام بالخط الكوفي .
وهذا الخط الكوفي قرع - كما يقولون - من الخط السرياني ، وأنه على الأخص طور من أطوار
قلم السريان كانوا يسمونه « السطر نجى » ، وكان السريان يكتبون به الكتاب المقدس ، وعن
السريان أنتقل إلى العرب قبل الإسلام ، ثم كان منه الخط الكوفي ، كما سبق القول .

ولقد كان العرب إلى جانب هذا القلم الكوفي قلم نجى ، أنتقل إليهم من حوران مع رحلاتهم إلى
الشام ، وعاش العرب ولهم هذان القلمان : الكوفي والنجى ، يستخدمون الكوفي لكتابة القرآن ،
ويستخدمون النجى في شئون أخرى .

وبالخط الكوفي كانت كتابة المصاحف ، غير أنه كان أشكالاً ، واستمر ذلك إلى القرن الخامس

(١) مروج الذهب (٢ : ٧٠) .

(٢) كشف الظنون (١ : ٧١٠ - ٧١٤) فهرست ابن النديم (٢٤ - ٢٦) الخط العربي لخليل ناسي .

تلويح الخط العربي لحمد طاهر الكروبي . (وانظر : الخط العربي والمصاحف . كلة تقديم قبل الباب الثالث من هذا المجلد)

تقريباً ، ثم ظهر الخط الثلث . وعاش من القرن الخامس إلى ما يقرب من القرن التاسع ، إلى أن ظهر القلم
النسخ ، الذي هو أساس الخط العربي إلى اليوم .

فلقد كتب القرآن بالكوفي أيام الخلفاء الراشدين ، ثم أيام بني أمية ، وفي أيام بني أمية صار هذا
الخط الكوفي إلى أقلام أربعة . ويمزون هذا التشكيل في الأقلام إلى كاتب اسمه « ثعلبة » وكان كاتب
أهل زمانه ، وكان يكتب لبني أمية المصاحف .

وفي أوائل الدولة العباسية ظهر « الضعّاء بن عجلان » ومن بعده « إسحاق بن عباد » ، فإذا ما يزيدان
على « ثعلبة » ، وإذا الأقلام العربية تبلغ اثني عشر فلماً : قلم الجليل ، قلم السجلات ، قلم الديباج ، قلم
اسطودمار الكبير ، قلم الثلاثين ، قلم الزهور ، قلم للفتوح ، قلم الحرم ، قلم التوامرات ، قلم العمود ، قلم
النصص ، قلم الحرفاج .

وحين ظهر الهاشميون حدث خط يسمى : المراق ، وهو المحقق . ولم تزل الأقلام تزيد إلى أن انتهى
الأمر إلى المأمون فأخذ كتابه يتجويد خطوطهم ، وظهر رجل يعرف « بالأحول الحرر » ، فتسكّم على
رسوم الخط وقوانينه وجعله أنواعاً .

ثم ظهر قلم « المرصع » ، وقلم « النساخ » ، وقلم « الرياس » ، نسبة إلى ذي الرياستين الفضل بن سهل ،
وقلم الرقاع ، وقلم غبار الحلبة .

فزادت الخطوط على عشرين شكلاً ، ولكنها كلها من الكوفي . حتى إذا ما ظهر ابن مقلة (٢٢٨هـ)
نقل الخط من صورة القلم الكوفي إلى صورة القلم النسخي ، وجعله على قاعدة جميلة كانت أساساً
لكتابة المصاحف .

وينقل القرّى عن ابن خليل التكوني : أنه شاهد بجامع « المديس » بأشبيلية رُبعة مصحف في
أسفار يُسمى به لتعويده خطوط الكوفة ، إلا أنه أحسن خطاً وأبينه وأبرعه وأتقنه ، وأن أبا الحسن بن
الطّغلب بن عظمية قال له : هذا خط ابن مقلة .

ثم يقول القرّى : وقد رأيت بالمدينة المنورة — على ما كتبها أفضل الصلاة والسلام — مصحفاً بخط
ياقوت المستعصي^(١) .

ولقد كانت وفاة ياقوت هذا سنة ٦٩٨ هـ^(٢) ، وكان سبباً في هذا اليلدان .

(١) نفع الطيب (٦ - ٤٠) .

(٢) الفهرست لابن النديم (ص : ٩) طبعة مصر .

ويقول محمد بن إسحاق : أول من كتب المصاحف في الصدر الأول ويوصف بحسن الخط : خالد بن أبي الهياج ، رأيت مصحفاً بخطه ، وكان « سعد » نَصَبَهُ لَكُتَبِ المصاحف ، ولشمر والأخبار للوليد بن عبد الملك ، وهو الذي كَتَبَ السِّكِّابُ الذي في قِبلة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالذهب من « وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا » إلى آخر القرآن .

ويقال إن عمر بن عبد العزيز قال له : أريد أن تكتب لي مُصحفاً على هذا النّال . فكتب له مصحفاً تنوّع فيه . فأقبل عمر بقلبه ويستحسنه واستكثر عنه فترده عليه .

ومالك بن دينار مولى أسامة بن لؤي بن غالب ، وبُكِنِي : أبا يحيى . وكان يكتب المصاحف بأجر . ومات سنة ثلاثين ومائتين .

ثم أورد ابن إسحاق فقرأ من كتاب المصاحف بالخط الكوفي وبالخط الحقيق المشق ، وقد رآهم جميعاً . والذي لا شك فيه أن هذه الأقسام المختلفة تبارت في كتابة المصحف ، كما كتب بأقلام غير هذه ، ذكر منها السكردى في كتابه (تاريخ الخط العربى) قلبيّان : سياقت ، وشكسته ، وأورد لهما نماذج . وظلت المصاحف على هذه الحال إلى أن ظهرت الطابع سنة ١٤٣١ م ، وكان أول مصحف طبع بالخط العربى في مدينة « همبرج » بألمانيا ، ثم في « البندقية » في القرن السادس عشر الميلادى .

وحين أخذت الطابع تشيع كثر طابع المصحف ، إذ هو كتاب المسلمين الأول وعليه معتمد .

٢١ - تجزئة المصحف

ولقد سقنا لك الحديث عن عدد سور القرآن ، وعدد كلماته ، وعدد حروفه ؛ وما نظن هذا كله بدأ مع السنين الأولى أيام كان المسلمون مشغولين بجمع القرآن وتدوينه ، عهد أبي بكر وعمر ، ثم عهد عثمان ، وما نظنه إلا مختاب زماناً بعد هذا إلى أيام الحجاج .

ولقد كان المسلمون والوحى لا يزال متصلاً ، يختصون يومهم بنصيب من القرآن ، يتخلون إلى أنفسهم ساعة من يومهم هذا يتلون فيها ما يتسمرون ، يفرض كل منهم على نفسه جزءاً يقينه ، وإلى هذا يشير ما روى عن المنيرة بن حبة ، قال : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بين مكة والمدينة ، فقال : إني قد فاتني الليلة جزئي من القرآن ، فإني لا أوتر عليه شيئاً^(١) .

وما نشك في أن هذه التجزئة كانت فردية ، أى إن مرجعها كان إكسكل فرد على حدة ، ونكاد نذهب إلى أنها لم تكن على التساوى .

وهذه التجزئة التي أخذ المسلمون بها أنفسهم مكررين ليجعلوا القرآن حفظاً من ساعات يومهم حتى لا ينسيوا عنه فيغيب عنهم ، وحتى يُيسروا على أنفسهم ليمضوا فيه إلى آخره أسبوعاً بعد أسبوع ، أو شهراً بعد شهر ، هذه التجزئة الأولى غير المضبوطة هي التي أملت على المسلمين بعد أن يأخذوا في تجزئة القرآن تجزئةً تخضع لمعايير مضبوطة ، ولم يكن عليهم ضمير في أن يفعلوا .

عند هذه ، وبعد أن استوى للصحف بين أيديهم مكتوباً ، كان عدد السور وعد الكلمات وعد الآيات ، ولا يمتنى هذا أن للمسلمين الأول أيام الرسول كانوا يسيدين البعد كله عن هذا كله ، بل إن ما نعتبه هو الإحصاء المستوعب الشامل ، وأما غيره فما نطأنا نذكره على المسلمين الأول ، من ذلك ما روى عن ابن مسعود أنه قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة من الثلاثين من آل حم . يعني الأحقاف ، ويقول السيوطي : كانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت الثلاثين ^(١) .

ولكن هذا الاستيعاب الشامل لم يكن إلا مع أيام الحجاج ، ودليلاً على هذا : ما يرويه أبو بكر بن أبي داود يقول : جمع الحجاج بن يوسف الحقاظ والأقراء — ويقول أبو بكر : وكنت منهم — فقال الحجاج : أخبروني عن القرآن كله كم هو من حرف ؟ قال أبو بكر : جعلنا نحسب حتى أجمعوا أن القرآن ثلاثمائة ألف حرف وأربعمائة ألفاً وسبعائة ونيّف وأربعين حرفاً .

قال الحجاج : فأخبروني إلى أي حرف ينتهي نصف القرآن . فحسبوا فأجمعوا أنه ينتهي في الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » (الآية : ١٩ ، في القاء) .

قال الحجاج : فأخبروني بأسماعه على الحروف ؟ قال أبو بكر : فإذا أول سبع في النساء « قَتَنَهُمْ مَنْ أَمَنَ بَرٍّ وَمَتْنَهُمْ مَنْ صَدَّ » (الآية : ٥٥ ، في الدال) ، والسبع الثاني في الأعراف « أُولَئِكَ حَبِطَتْ » (الآية : ١٤٧ ، في التاء) والسبع الثالث في الرعد « أَسْكَلَهُمْ دَانِمٌ » (الآية : ٣٥ ، في الألف آخر « أَسْكَلَهُمْ » ، والسبع الرابع في الحج « وَلِكُلٍّ أُمَّةٌ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » (الآية : ٣٤ ، في الألف) ، والسبع الخامس في الأحزاب « وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ وَلَا الْمُؤْمِنَةِ » (الآية : ٣٦ ، في الهاء) ، والسبع السادس في الفتح « الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ » (الآية : ٦ ، في الواو) والسابع مابقي من القرآن .

قال الحجاج : فأخبروني بأثلاثه ؟ قالوا : الثلث الأول رأس مائة من براءة ، والثلث الثاني رأس إحدى ومائة آية من « طسم » الشعراء ، والثلث الثالث مابقي من القرآن .

(١) الإثنان (١ : ٦٦)

ثم سألهم الحجاج عن أرباعه . فإذا أول ربع خاتمة سورة الأنعام . والربع الثاني الكهف وليناطفه
(الآية : ١٩) والربع الثالث خاتمة الزمر ، والربع الرابع ما بقى من القرآن .

كانت هذه نظرة الحجاج مع القراء والحفاظ ، وكانت تجزئته للقرآن بوفق عدد حروفه ، ولقد رأيت
كيف جزمه نصفين ، ثم أسباعاً ، ثم أثلاثاً ، ثم أرباعاً .

وما نظن الحجاج كان يستعمل في هذه التجزئة إلا عن تفكير في التيسير ، فجعله نصفين على القارئ
المجد ، ثم أثلاثاً على اللاحق ، ثم أرباعاً على من يتلو اللاحق ، ثم أسباعاً على من يريد أن ينته في أسبوع ،
وكانت ذلك هي النهاية التي أحبها الحجاج للمسلمين ، وكأنه لم يحب لهم أن يتجاوزوها ، فذلك لم يحض مع
القراء والحفاظ يسألهم عما بعدها ، ونحن ندلم أن الحجاج كان يقرأ القرآن كله في كل ليلة^(١) .

وحين نظر الحجاج في القرآن يجزئته هذه التجزئة التي تتعدى الحروف ، بدأ غيره من بعده يظفرون
في تجزئة القرآن تجزئة تليها الآيات ، فتسموه أنصافاً ، وأثلاثاً ، وأرباعاً ، وأخماساً ، وأسداساً ، وأسباعاً
وأثماناً ، وأنساءً ، وأعشاراً .

وما نظن هؤلاء الذين جاءوا في إثر الحجاج بهذه التجزئة التي تخالف تجزئة الحجاج كانوا يستعملون
إلا عن مثل ما استعمل الحجاج عنه ، وهو التيسير ، ثم الإرخاء في هذا التيسير ، ثم تخصيص كل يوم
بفصيص لا يزيد ولا ينقص ، وكان أقصى ما أرادوه اكتمال مسلم أن يتم قراءة القرآن في أيام لا تعدو
العشرة .

ولقد مر بك قبل ، عند الكلام على عدد آيات القرآن ، ما كان من خلاف يسير علمت سببه ، ولكن
هذا الخلاف اليسير في عدد الآيات جر إلى خلاف يسير في هذه التجزئة .

ولقد كانت فكرة الحجاج ، وفكرة من جاء بعد الحجاج ، في تجزئة القرآن هي التيسير على القارئ ،
ولكن الحجاج كان مُتشدداً ، مُتشدداً على نفسه أولاً ، كما رأيت ، فلم يجاوز في تيسيره إلى غير سبعة
أيام ، ولكن من جاءوا بعد الحجاج لم يكونوا على تشدد الحجاج فأرخوا شيئاً في التيسير وزادوا
الأيام إلى عشرة .

وما وقف التيسير عند هذا الحد الذي انتهى إليه الذين جاءوا في إثر الحجاج ، بل نرى المبشرين أرخوا
للقارئ إلى أن بلغوا بهم الثلاثين ، فإذا القرآن مجزأً إلى ثلاثين جزءاً .

غير أن هذه الراحل التي جاءت بعد الحجاج لم تتم في يوم وليلة ، بل امتدت بامتداد الأيام ، ولقد كانت وفاة الحجاج في العام الخامس والتسعين من الهجرة ، وزي السجستاني يروي أخباره في تجزئة القرآن تلك التجزئة الثانية عن رواية تنحصر وفاتهم في القرن الثاني للهجرة ، ثم زى ابن النديم وهو يتكلم عن السكتب للؤلؤة في أجزاء القرآن يذكر لنا :

- ١ - كتاب أسباع القرآن لحزبة بن حبيب بن عماره الزيات . ولقد كانت وفاة حزبة سنة ١٥٨ هـ .
- ٢ - كتاب أجزاء ثلاثين ، عن أبي بكر بن عياش ، ولقد كانت وفاة أبي بكر بن عياش سنة ١٩٣ هـ^(١) .

وما يعيننا الكتاب الأول ، فلقد علمنا أن تجزئة القرآن أسباعاً ، كانت على يد الحجاج حروفاً ، وقد تكون على يد حزبة آيات ، نقول لا تمنينا هذه واسكن تعيننا الثانية ، فهي تدلنا على أن تجزئة القرآن إلى ثلاثين جزءاً ، وهي التجزئة التي عليها مصاحفنا اليوم ، تجزئة قديمة انتهت إلى أبي بكر بن عياش ، بهذا يُشمرنا أسلوب ابن النديم ، إذ لم يُعز الكتاب لأبي بكر وإنما قال : عن أبي بكر بن عياش .

إذن فتجزئة القرآن ثلاثين جزءاً لم تنب عن القرن الثاني الهجري ، ولا يبعد أن تكون دون منتهاه بكثير ، فقد كان مولد أبي بكر بن عياش سنة ست وتسعين من الهجرة ، والرجل يصلح للتلقي والرواية مع الخامسة والعشرين من عمره ، أي إن أبا بكر بن عياش كان رجل رواية وتلقي مع العام العشرين بعد المائة الأولى من الهجرة .

وهذه التجزئة الأخيرة ، أعني تجزئة القرآن ثلاثين جزءاً ، هي التجزئة التي غلبت وعاشت ، ولعل ما ساعد على غلبتها يُسرّها ، ثم ارتباطها بعدد أيام الشهر ، ونحن نعلم كم تجد هذه التجزئة إقبالا عظيماً في شهر رمضان من كل عام ، وما نظن الذين جزءوا انتهوا إلى هذه التجزئة الأخيرة في مرحلة واحدة متجاوزين التجزئة العشرية إلى التجزئة الثلاثينية ، والذي نقطع به أنه كانت ثمة تجزئات بين هاتين للرحلتين لا ندرى تدرجها ، ولكن ينبغي أن نُقيّد أن ثمة تجزئة تقع في عشرين جزءاً ، تحتفظ بها مكتبة دار الكتب المصرية .

وبهذه التجزئة - أي إلى ثلاثين جزءاً - أصبح القرآن يُعرض أجزاء منفصلة كل جزء على حدة ، وأصبحت أراء في الساجد - لا سيما في شهر رمضان - محفوزة في صناديق بأجزائه الثلاثين ، كل مجموعة في صندوق ، يقدمه الراغبون في الثواب إلى المفلتين إلى الساجد رغبة في تلاوة نصيب من القرآن .

(١) الفهرست (ص : ٥٥) طبعة مصر

وأصبح يطلق على هذه الأجزاء الثلاثين أسمُ رَيَّة . والريَّة في اللغة : الصُّندوق أو الوعد من جلد .
ولعل تسمية الأجزاء الثلاثين بهذا الاسم جاءت من إطلاق المجلد على الحال فيه .
ولكن هذا التيسير الأخير جر إلى تيسير آخر يتصل به ، وما نشك في أن المدافع إليه كان التيسير
هنا على الحافظين ، بمد أن كان التيسير قبلُ على القارئ ، وفرق بين أن تيسر على قارئ وبين أن
تيسر على حافظ .

من أجل هذه فيما نظن كان تقسيم الأجزاء الثلاثين إلى أحزاب ، كل جزء ينقسم إلى حزبين ، ثم
تقسيم الحزب إلى أرباع ، كل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع .
وعلى هذا التقسيم الأخير طبعت المصاحف ، واعتمد هذا التقسيم على الجانب الراجح بين القراء في
عدد الآيات ، فانت تلم هذا الخلاف الذي بينهم :

- فالمدينون الأوّل بمدون آيات القرآن ٦٠٠٠ آية
- والمدينون المتأخرون بمدون آيات القرآن ٦١٢٤ »
- والمكيون المتأخرون بمدون آيات القرآن ٦٢١٩ »
- والكوفيون بمدون آيات القرآن ٦٣٦٣ »
- والبصريون بمدون آيات القرآن ٦٣٠٤ »
- والشاميون بمدون آيات القرآن ٦٢٢٥ »

وفي هذا الخلاف كان نعمة ترجيح ، ونعمة اتفاق وثمة تغليب . وقد انبرى لهذا السافسى في كتابه « غيث
النفع » . ولقد اعتمد السافسى على رجلين سبقاه في هذه الصناعة ، هما : أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي
بكر القسطلاني في كتابه « لطائف الإشارات في علم القراءات » ، والقادري محمد ، وكتاب « مُسَمِّف
المقرئين ومُعين المُستفيلين بمعرفة الوقف والابتداء » ، وانتهى إلى الرأي الراجح أو المتفق عليه ، وبهذا
أخذ الذين أشرفوا على طبع المصحف طبعته الأخيرة في مصر ، وخرج يعمل الإشارات الجانبية الدالة على
مكان الأجزاء والأحزاب وأرباع الأحزاب .

٢٢ - النسخ والنسوخ :

النسخ ، لغةً : إبطال الشيء ورفعهُ ، والمتكلمون عن النسخ في القرآن يحملونه على ثلاثة أضرب :
١ - ما نسخ خطه وحكمه ، ويروون في ذلك عن أنس أنه قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى

الله عليه وسلم سورة تعدلها سورة التوبة ، ما أحفظ منها غير آية واحدة « ولو أن لابن آدم واديين من ذهب لاجتنى إليهما ثالثاً ، ولو أن لهم ثالثاً لا يمتنى إليها رابعاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

عن كايرون عن ابن مسعود أنه قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم آية لحفظتها وكتبتها في مصحف ، فلما كان الليل رجعت إلى مصحف فلم أرجع منها بشيء ، وغدوت على مصحف فإذا الورقة بيضاء . فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : يا ابن مسعود ، تلك رفعت البارحة .

وهذا قسم يسكاد سرده يدل عليه وبكشف عن سقوطه ، فما أجل الله حكيماً علياً . وما كانت الرسالة تجربة بشرية يجوز عليها تعديل أو الوقوع فيها سيقض بعد حين . واقد كان الرسول يحدث المسلمين بحديثه ويقرأ عليهم وحى السماء ، ولقد كان عليه السلام يعارضهم فيما يحلوه عنه على التوالى حرصاً على سلامة الوحي من أن يختلط به غيره ، وكم من سامع خلط ما بين ما هو وحى وبين ما هو حديث للرسول ، ولكنه كان بعد حين قليل مردوداً إلى السلامة حين يلتقى الرسول ، أو يقابل صحابياً على بصيرة بما هو وحى وما هو حديث . وسرعان ما كانت تستقيم الأمور ، ويبين هذا من ذلك ، حتى إذا ما حان أن يقبض الله إليه رسوله كانت الترخصة الأخيرة للقرآن ، ولم تكن إلا لهذا ومثله .

٢ - ما نسخ خطه وبقى حكمه . ويروون لهذا خبراً عن عمر بن الخطاب ، يقول :
لولا أكره أن يقول الناس قد زاد في القرآن ما ليس فيه لكتبت آية الرجم وأثبتها ، فوالله لقد قرأناها على رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ترغبوا عن آياتكم فإن ذلك كفر بكم » . الشيخ والشيخة إذا زليا فارجوها البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

وأحسب أن عمر لو صح هذا منه ، وأنه سمعها عن الرسول ما تخلف عن أن يكتتها ، ثم ألم بسمها مع « عمر » غيره فيجعل منه شاهداً معه ، إن كان « عمر » لا يرى أنه وحده تجزئ ، اللهم إن هذا ينقض علينا تلك المارضات التي كانت تتم بين الرسول والقارئ ، وينقض علينا التفكير السليم ، وما نحب لمن يبالغ ما يتصل بكتاب الله إلا أن يكون ذا تفكير سليم .

٣ - ما نسخ حكمه وبقى خطه . وهذا شيء يقتضيه التشريع والانتقال من حكم إلى حكم ، مثال ذلك الآيات التي تتصل بالقبلة ، والتي انتهت بقوله تعالى يخاطب نبيه : « قَوْلٌ وَجْهَكَ لِشَطْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ^(١) » وكانت قبلها « فَأَبْنِا تَوَلَّوْا قَوْمٌ وَجْهَهُ اللَّهُ ^(٢) » .

ومثل قوله تعالى: « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْمَةُ وَالَّذِي وَلَعَنَ الْخَزِيرَ^(١) » فجاء قوله عليه الصلاة والسلام: « أَحِلَّتْ لَنَا مَيْمَتَانِ وَدَمَانِ : السُّكَّ وَالْجَرَادُ وَالسَّكْبَدُ وَالطُّعَّالُ » يَسْتَفَى شَيْئًا مِنَ اللَّيْثَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ .

وقد عد الناظرون في هذا نحوًا من ١٤٤ منها :

- | | |
|---------------------------------|-----------------------------------|
| (١) ثلاثون آية في البقرة | (٢) حشر آيات في آل عمران |
| (٣) أربع وعشرون آية في النساء | (٤) تسع آيات في المائدة |
| (٥) خمس عشرة آية في الأنعام | (٦) آيتان في الأعراف |
| (٧) ست آيات في الأنفال | (٨) إحدى عشرة آية في التوبة |
| (٩) ثمان آيات في يونس | (١٠) أربع آيات في هود |
| (١١) آيتان في الرعد | (١٢) آية في إبراهيم |
| (١٣) خمس آيات في الحجر | (١٤) أربع آيات في النحل |
| (١٥) ثلاث آيات في بني إسرائيل | (١٦) آية في السكف |
| (١٧) خمس آيات في مريم | (١٨) ثلاث آيات في طه |
| (١٩) ثلاث آيات في الأنبياء | (٢٠) ثلاث آيات في الحج |
| (٢١) آيتان في المؤمنین | (٢٢) سبع آيات في النور |
| (٢٣) آيتان في الفرقان | (٢٤) آية واحدة في النمل |
| (٢٥) آية واحدة في القصص | (٢٦) آية واحدة في العنكبوت |
| (٢٧) آية واحدة في الروم | (٢٨) آية واحدة في السجدة |
| (٢٩) آيتان في الأحزاب | (٣٠) آية واحدة في صبا |
| (٣١) آية واحدة في اللائكة | (٣٢) أربع آيات في الصافات |
| (٣٣) آيتان في من | (٣٤) ثلاث آيات في الزمر |
| (٣٥) آيتان في حم (المؤمن) | (٣٦) آية واحدة في حم (السجدة) |
| (٣٧) سبع آيات في الشورى | (٣٨) آيتان في الزخرف |
| (٣٩) آية واحدة في المدخان | (٤٠) آيتان في الجاثية |

(٤١) آيات في الأحقاف	(٤٢) آيات في محمد
(٤٣) آيات في ق	(٤٤) آيات في الذاريات
(٤٥) آيات في الطور	(٤٦) آيات في النجم
(٤٧) آية واحدة في القمر	(٤٨) آية واحدة في الحديد
(٤٩) ثلاث آيات في المتعنة	(٥٠) آيات في القلم
(٥١) آيات في المارج	(٥٢) ست آيات في الزمل
(٥٣) آيات في الإنسان	(٥٤) آية واحدة في عبس
(٥٥) آية واحدة في التكويد	(٥٦) آية واحدة في الطارق
(٥٧) آية واحدة في الفاشية	(٥٨) آية واحدة في التين
(٥٩) آية واحدة في النصر	(٦٠) آية واحدة في الكافرين

وسوف نرى أن كل ما يتصل بها هو ترتيب أحكام اقتضاها التشريع السماوي الذي أملاه نزول القرآن مجزءاً بوفق أحوال المسلمين وتدرجهم في الحياة ، الأمر الذي قد منا عنه حديثاً عند الكلام على نزول القرآن مجزءاً لا بجملة واحدة^(١) .

٢٣ - الحكم والتشابه والحروف المقطعة في أوائل السور

يذهب العلماء في الحكم والتشابه مذاهب ، ويرى ابن حبيب الديسابوري إلى أقوال ثلاثة :
أولها : أن القرآن كله حكم ، لقوله تعالى : (كتاب أحكمت آياته) ١ : ١١
ثانيها : أنه كله متشابه ، لقوله تعالى : (كتاباً متشابهاً مثاني) ٢٣ : ٣٩
ثالثها : انقسامه إلى حكم ومتشابه ، لقوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب وأخر متشابهات) ٣ : ٧

وكما اختلفوا في هذه اختلفوا في معنى الحكم ومعنى التشابه ، فقليل :
الحكم : ما عرف المراد منه ، إما بالظهور وإما بالتأويل .
والتشابه : ما أستاذر الله بطله ، كقيام الساعة ، وخروج الدجال ، والحروف المقطعة في أوائل السور .

وقيل :

الحكم : ما وضع معناه ، والتشابه ، تقيضه .

(١) انظر باب الناسخ والمنسوخ

وقيل :

الحكم : ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ؛ والمنشابه : ما أحتمل أوجهها .

وقيل :

الحكم : ما كان مقول المعنى ؛ والمنشابه بخلافه ، كأعداد الصلوات ، واختصاص الصيام برمضان

دون شعبان .

وقيل :

الحكم : ما استقل بنفسه ؛ والمنشابه : ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره .

وقيل :

الحكم : ما لم تُكرر ألفاظه ؛ ويقابله التشابه .

وقيل :

الحكم : الفرائض، والوعد، والوعيد ؛ والمنشابه : القصص والأمثال .

وقيل :

الحكم : ناسخه ، وحلاله ، وحرامه ، وحدوده ، وفرائضه ، وما يؤمن به ويعمل به .

والمنشابه : منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وما يؤمن به ولا يعمل به .

وقيل :

الحكم : الحلال والحرام ، وما سوى ذلك منه فهو منشابه ، يصدق بهضه بعضاً

ثم اختلفوا بعد هذين في المنشابه ، هل يمكن الاطلاع على علمه ، أولاً يعلمه إلا الله ؟

وكان مرد هذا إلى اختلافهم في تفسيرهم قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) ٣ : ٧

منهم من جعل الواو للاستئناف ، وعلى هذا يكون السياق : والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل

من عند ربنا .

ومنهم من جعلها لامطف ، وعلى هذا يكون السياق : والراسخون في العلم يعلمون تأويله

ويقولون آمنا^(١) .

ويقول ابن قتيبة^(٢) : إن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ، ويدل به على معنى أراد .

ويقول : فلو كان المنشابه لا يعلمه غيره كَلَزِمْنَا لِلْعِطَاعِ مقال ، وتعلق علينا بعلّة .

(١) الإنان (٢ : ٢)

(٢) تأويل مشكور القرآن (٧٤ - ٧٣)

ويضئ ابن قتبية في حديثه فيقول : وهل يجوز لأحد أن يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف المنشأ به ، وإذا جاز أن يعرف مع قوله تعالى : « وَمَا يَكْمُلُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته كما قد علم « علياً » التفسير ، ودعا لأبن عباس فقال : اللهم هذه القلوب وقم في الدين .

ثم يقول ابن قتبية : وبعد . فإننا لم نر للفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا : هذا منشأه لا يعلمه إلا الله : بل أمروه كله على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور . ويقول ابن قتبية في تفسير قوله تعالى : « وَمَا يَكْمُلُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ^(١) » : فإن قال قائل : كيف يجوز في اللغة أن يعلمه الراسخون في العلم ، وأنت إذا أشركت الراسخين في العلم أنقطعوا عن « يقولون » ، وليست ها هنا في نسق توجب للراسخين فدلين ؟ قلنا له : إن « يقولون » ها هنا في معنى الحال ، كأنه قال : هو الراسخون في العلم قائلين آمنا به . ^(٢) ثم اختلفوا بعد هذا في تفسير الحروف المقطعة .

١ - فمنهم من يحملها أسماء للسور ، تعرف كل سورة بما افتتحت به منها ، فهي أعلام تدل على ما تدل عليه الأسماء من أعيان الأشياء وتفرق بينها ، فإذا قال القائل : قرأت « المص » ، أو قرأت « ص » ، أو « ن » دل بذلك على ما قرأ .

ولا يرد هذا أن بعض هذه الأسماء يقع لعدة سور ، مثل « حم » و « ألم » ، إذ من الممكن التمييز بأن يقول : حم السجدة ، و « ألم » البقرة ، كما هي الحال عند وقوع اللفظ في الأسماء ، فتميزها بالإضافات ، وأسماء الآباء ، والسكنى .

٢ - ويحملها بعضهم للقسم ، وكأن الله عز وجل أقسم بالحروف المقطعة كلها ، وأنقصر على ذكر بعضها من ذكر جميعها ، فقال « ألم » ، وهو يريد جميع الحروف للمقطعة ، كما يقول القائل : نعلت « أ ب ت ث » وهو لا يريد تعلم هذه الأحرف دون غيرها من الثمانية والعشرين .

وأما أقسم الله بحروف النجم لشرعها وقضاها ، إذ هي مبادئ كتابه للنزل على رسوله .

٣ - ويحملها بعضهم حروفا مأخوذة من صفات الله تعالى ، ويكون هذا فناً من فنون الاختصار عند العرب .

(١) آل عمران : ٧

(٢) تأويل مشكل القرآن (٢٣٠ - ٢٣٩) لدان الرب (١ : ٤ - ٦)

وهذا الاختصار عند العرب كثير ، يقول الوليد بن عتبة ، من رجزه :

قُلْتُ لَهَا رِنِي قَقَاَت قَاف

أى قالت : وقد رقت ، فأوماً بالقاف إلى معنى الوقوف .

وعلى هذا يجعل للفسرون كل حرف من هذه الحروف يشير إلى صفة من صفات الله .

فيقول ابن عباس مثلاً في تفسير قوله تعالى « كَتَمَ قَسْ » إن الكاف من كافٍ ، والهاء من هَادٍ ، والياء من حَكِيمٍ ، والعين من عَالِمٍ ، والصاد من صَادِقٍ .

هذا مجمل ما ذهب إليه المفسرون القدامى في معنى هذه الحروف المقطعة وفي كل منها منقح .

أما ما ذهب إليه المحدثون في هذا فحسبك ما انتهى إليه « على نصوص الطاهر » في كتابه « أوائل السور في القرآن الكريم » . وإليك مجمل ما قال في خاتمة كتابه :

١ - إن أوائل السور تقوم على حساب الجمل .

٢ - إنها تبين عدد الآيات المسكية أيام كان القرآن يخشى عليه من أعدائه في مكة من أن يزيدوا فيه أو أن ينقصوا منه ، ودليله على ذلك .

(أ) أنها وردت مع سبع وعشرين سورة من سور القرآن .

(ب) من هذه السور سبع وعشرون مسكية وثلاثان مدينتان ، هما البقرة وآل عمران .

(ج) أن هاتين السورتين المدينتين نزلا في أوائل العهد المدني ، ولم يكن قد استقر أمر المسلمين كثيراً ، فهو عهد أشبه بعهد مكة .

(د) أنه حين اشتد أمر المسلمين ، وكانت كثرة من الفارثين والسكانيين ، لم تكن ثمة حروف مقطعة في فروع سور .

ولقد تنبعم في كتابه « أوائل السور في القرآن الكريم » السور ذات الفروع ، وطابق بين جملها والآيات المسكية بها فإذا هو ينتهي إلى رأى شبه قاطع .

هذا مجمل ما للسلف عن التشابه والحكم عامة ، ثم مجمل ما للسلف والخلف من المحدثين عن الحروف المقطعة في أوائل السور خاصة .

وتسكاد أراء السلف عن الشق الأول على تعقيباً ، فالآيات الثلاث التي فرعوا عليها أحكامهم تسكاد تكون كل آية منها معنى قائم بذاته .

وقوله تعالى (كتاب أحكمت آياته) ١١ : ١١ ، المراد بالإحكام هنا : غاية الإبداع ، أى : إنه على صورة من البيان لا بدانى فيها إبداعاً ، وهذا من دلائل إعجاز القرآن .

وقوله تعالى (كتاباً متشابهاً) ٢٣ : ٣٩ ، المراد بالتشابه هنا الاتفاق ، إذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، وهذا دليل ثانٍ من دلائل إعجاز القرآن .

وقوله تعالى (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) ٣ : ٧ ، فالمراد أن من آياته ما جاء لغرض بعينه لا أشركه فيه غيرها ، ومنها ما جاءت حول غرض عام أشاركم فيه غيرها .

وعلى هذا يستوى لنا رأى أين قتيبة ومن انت لفته في أنه ليس ثمة في الكتاب الكريم شيء إلا وهو مناط تفكيرنا وتديرننا ، وإعمال الرأى فيه ، لأنه كتاب الله إعباده ، نزل على رسوله ليبلغه عباده ليعملوا به وبما فيه ، ولن يبلغوا هذا أو يقاربوه إلا إذا نظروا في معانيه وتدبروها .

وقد كتب الساف عن القرآن الثانى وقالوا فيه مارأوا ، وإذا كان القرآن للناس إلى يوم الدين ، يقول كل ما يرى ، إذا ما بلغ مبلغ من يقول في القرآن ، فقد نزلنا لك هذا الرأى المحدث .

٢٤ - البسملة . والاستعاذة . والسجدة

والبسملة عند الأكاذين آية تقرأ من أول كل سورة ، غير « براءة » .
والتعوذ قبل القراءة من السنة ، أقوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)^(١) .
وصيغته المختارة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وعند بعض المانف : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم .
وقال ابن الجزرى في كتابه « النشر في القراءات المشرفة » : المختار عند أئمة القراء الجمهور بها .
وبين السجود عند قراءة آية السجدة ، وهى أربع عشرة آية ، فى :
الأعراف : الرعد ، النحل ، الإسراء ، مريم ، وفيها « سجدتان » ، الفرقان ، النمل ، الحجر ، فصلت ،
النجم ، إذا السماء انشقت ، اقرأ باسم ربك .
وأما فى « من » فمستعبة وليست من عزائم السجود ، أى متأكداً .

(١) النحل : ٩٨

٢٥ - كتاب المصحف

كان « السند » - هو الخط الحبرى ، الذى كان مستعملا فى الأنبار والحيرة - المرحلة الثالثة من المراحل التى جازها الخط العربى ، فلقد سبقته فى سُمِّ الترقى مرحلتان: المرحلة المصرية بفروعها الثلاثة: الهيرغليفية ، والميراطيقية ، والديموطيقية ؛ والمرحلة الفينيقية ، نسبة إلى فينيقية ، أرض كنعان .

ومن الحيرة انتقل هذا الخط « السند » إلى الجزيرة العربية ، وكان أقدم خط عُرف بها ، وسمى مع انتقاله « الجزم » ، لأنه جُزم ، أى قُطع من « السند » .

وبعد بناء الكوفة ، فى عهد عمر بن الخطاب ، سُمي هذا الخط « السند » : الخط الكوفى ، نسبة إليها ، وما إن عمرت الكوفة حتى رحلت إليها القبائل ، وكان من بين القبائل الراحلة قبائل يمنية ، وكان من بينها من يكتب بالخط للسند ، فسرعان ما أنتشر هذا الخط بين الكوفيين ، وجوّدوا فيه ، وأضافوا إليه حليات وزخرفات على شكلة تلك التى كانت فى الخط السريانى المعروف بأسم : « المطرنجلى » .

وحين انتهى الخط الكوفى إلى الحجاز كان بين مقور ومبسوط ، وُسِمى الخط المقور بأسم « الابين » ، أو « النسخى » ، وهو ما تكون عرقاته منخسفة إلى أسفل ؛ وشاع استخدام هذا النوع من الخط فى الرقاع ، والمراسلات ، والكتابات العامة .

أما الخط « للمبسوط » ، وهو ما يعرف بأسم « اليايس » ، فلقد كانت عرقاته مبسوطة ، وقصُر استخدام هذا النوع من الخط على النقش فى المحارب ، وأبواب المآجد والمآبد وجدرانها ، وعلى كتابة المصاحف الكبيرة .

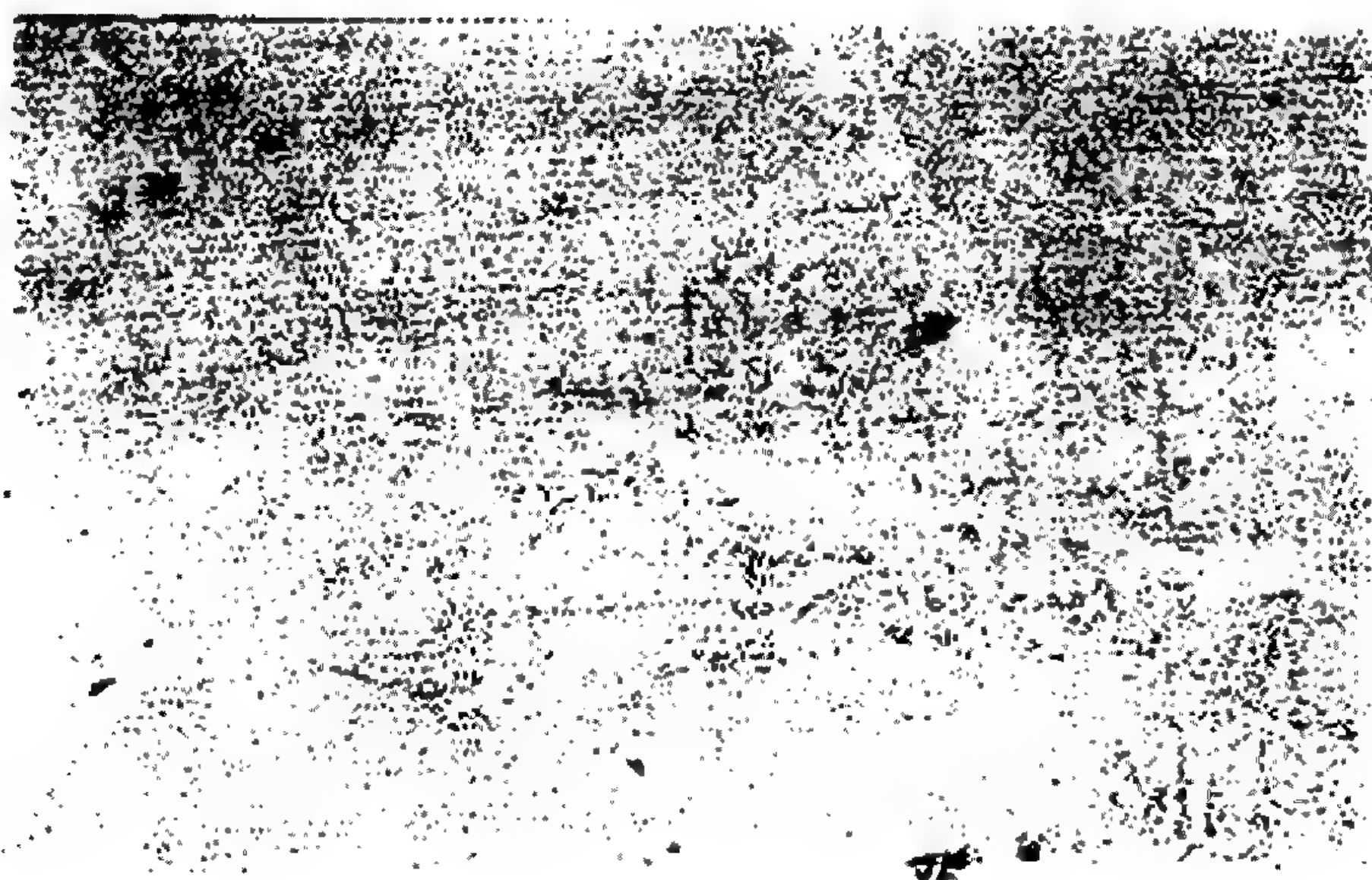
وكان كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم يكتبون بالخط المقور « النسخى » ، وبهذا الخط كتب زيد بن ثابت - رضى الله عنه - صحف القرآن فى خلافة أبى بكر بأمره وإشارة عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهما .

وبين تلك الفرق بين الخطين واضعاً فى تلك الصور الثلاث : فالصورتان الأولى والثانية تمثلان خطابين بعث أولهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوقس [ش: ١] ، وبعث ثانيهما إلى المنذر بن سارى [ش: ٢] .



ن : ١

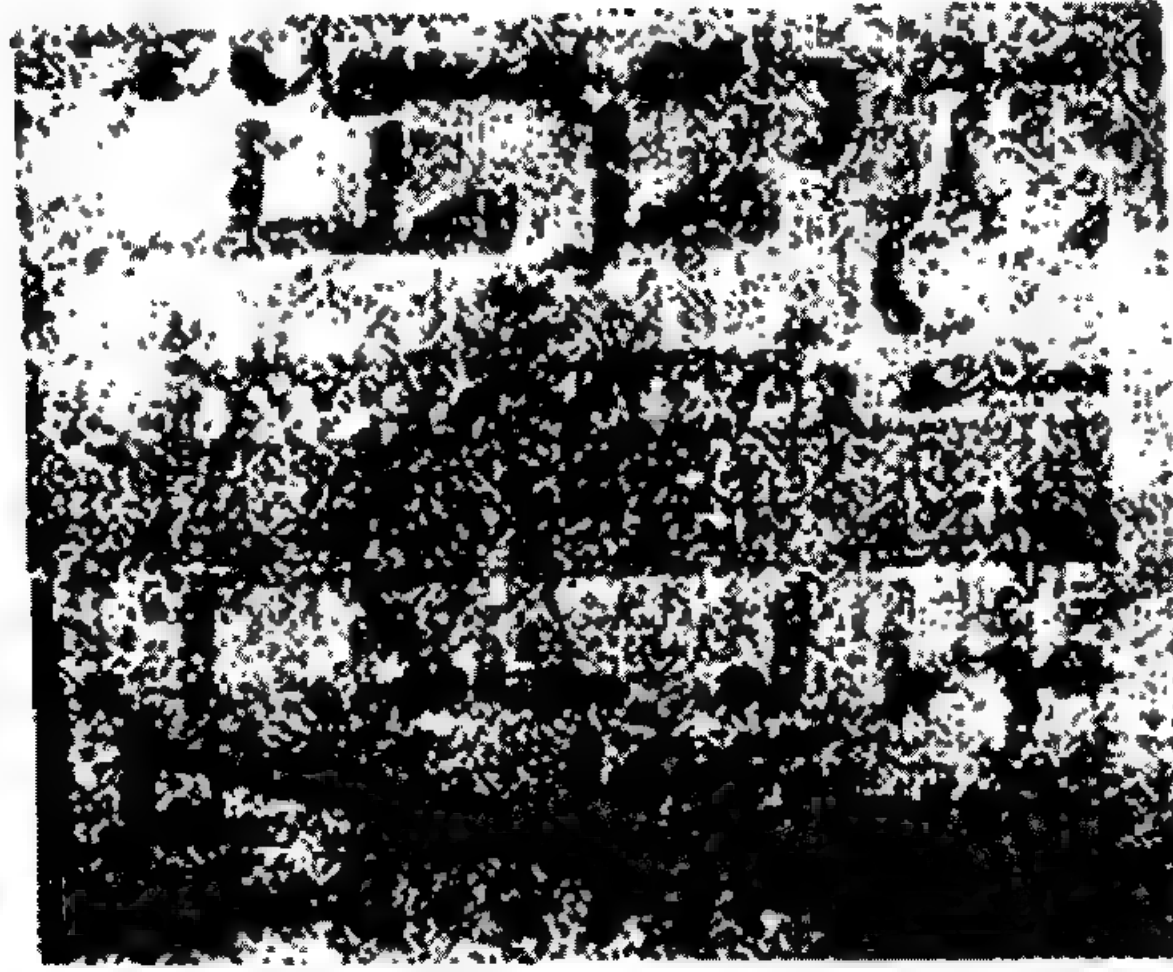
خطاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس



ن : ١

خطاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أنفذر بن سادى

أما الصورة الثالثة فتمثل صفحة من القرآن الكريم كُتبت في القرن الأول الهجري [ش : ٣]



ش : ٣

صفحة من القرآن الكريم . القرن الأول الهجري

وهكذا نجد أن الفرق بين خط القرآن وخط الرسائل واسع .

وحين يُجمع القرآن بالمدينة ، وأُرسلت المصاحف إلى مكة ، والشام ، والبصرة ، والكوفة ، وغيرها ، أقبل الناس على نسخ القرآن الكريم ، وأصبحت لكل إقليم طريقة تميز بها عن غيره ، وكان لها اسمها ، ونشأ عن ذلك :

١ - الخط المدني ، وكان يسمى : الحقيق ، والوراق ، نسبة إلى الوراقين الذين كانوا يكتبون المصاحف بالخط الحقيق أو النسخي .

٢ - الخط المسكي ، ويتميز هذا الخط المسكي والخط المدني بأن في لفاتها تعويجا إلى يمين اليد ، أو إلى أعلى الأصابع ، في انضجاع يسير .

٣ - الخط البصري (الكوفي ، الأصفهاني ، العراقي) ، وكان على ثلاثة أنواع : المدور ، والمثاق ، والتميم (وهو خط التمايق الذي بين الثاق والنسخ) .

وحين أطل العهد الأموي ، وأقبل الناس على تعلم العربية ، أخذ الخط العربي يرقى ، وظهر في أواخر عهد بني أمية رجل اسمه « قطبة » اشتهر بتجديد الخط ، وكان على يديه انتقال الخط العربي من الشكل

الكوفي إلى قريب من الشكل الذي هو عليه الآن ؛ وإلى « قطبة » هذا يرمى اختراع القلم الجليل ، الذي ينسب إليه الخط الجليلي ، أي الكبير الواضح .

وكان ثمة في أيام « الوليد بن عبد الملك » كاتب مختص به ، هو « خالد بن أبي الهياج » ، أنقطع لكتابة المصاحف للوليد ، وكان مجوداً في كتابتها . « وابن أبي الهياج » هذا هو الذي كتب بالذهب على حجاب مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة سورة « والشمس وضحاها » ، وما بعدها من الشور إلى آخر القرآن الكريم ، ولكن هذا كله للأسف ذهب ولم يبق له أثر .

وجاء من بعد « خالد بن أبي الهياج » رجل من كبار الزاهدين ، كانت وفاته سنة إحدى وثلاثين ومائة من الهجرة ، هو : « مالك بن دينار » ، وكان « مالك » هو الآخر من المجددين في كتابة المصاحف .

فلما كانت أيام « الرشيد » برز كاتبان من الكتاب المجددين المصاحف هما : خشنام البصري ، ومهدي الكوفي .

ويقول ابن النديم : ولم ير مثلهما إلى حيث انتهتا .. أي إلى عصر ابن النديم - حتى إذا ما كانت أيام المعتصم ظهر « أبو حدي الكوفي » ، وكان يكتب المصاحف اللطاف .

ثم كانت بعد « أبي حدي » جماعة من الكوفيين اشتهروا بكتابة المصاحف ، منهم : ابن أم شيبان ، والعمور ، وأبو حمزة ، وأبو الفرج .

هذا إلى جماعة أخرى من الوراقين كانوا يكتبون المصاحف بالخط الحقيق (الشق) ، منهم : ابن أبي حسان ، وابن الحضرمي ، وابن زيد ، والفريابي ، وابن أبي فاطمة ، وابن بجادة ، وشرشير المصري ، وابن حسن النابيج ، وأبو حديدة ، وأبو عتيل ، وأبو محمد الأصفهاني ، وأبو بكر أحمد بن نصر ، وابنه أبو الحسن . وقد ظهر في أوائل الدولة العباسية رجلان من أهل الشام عرفا بجودة الخط ، وإليهما انتهت الرياسة في ذلك العصر ، هما : الضحاك بن عجلان ، وكان في خلافة السفاح ؛ وإسحاق بن حماد ، وكان في خلافة المتصور والمهدي ، وفي عهدهما بلغت الأقلام العربية أمتى عشر قلماً ، كان لكل قلم طريقته .

ثم انتهت رياسة الخط إلى ابني مقله : أبي علي محمد بن مقله ، وعبد الله ، وكان يضرب بخطهما المثل . وعن الوزير « ابن مقله » أخذ عبد الله بن محمد بن أسد (٤١٠ هـ) ، وعن « ابن أحمد » أخذ « ابن البواب » (٤١٣ هـ) ، وهو الذي أكل قواعد الخط ، وعن « ابن البواب » أخذ « محمد بن عبد الملك » ، وعن « محمد بن عبد الملك » أخذت « شهدة زينب بنت الأبري » (٥٧٠ هـ) السكانية الحديثة .

وعنها أخذ خلق كثير ، منهم : ياقوت (٦١٨ هـ) ، وعن « ياقوت » أخذ « الولى المعجمى » ، وعليه كتب « المفيد » ، وعن « المفيد » أخذ والده « عماد الدين » ، وعن عماد الدين أخذ « الزفناوى شمس الدين بن على » ، وعنه أخذ « الفلتشندى أبو المباس أحمد » صاحب كتاب صبح الأعشى .

واقعد عنى الملوك الفاطميون ومن بعدهم بالخط العربى فجلوا به قصورهم ، وعروشهم ، وأدوات منازلهم ، إلى غير ذلك مما لا تزال آثارهم بمصر إلى اليوم تنطق به .

وحين انتقلت الخلافة إلى الدولة العثمانية كانت للخلفاء العثمانيين عناية بتحصين الخط العربى وتهذيبه ، فأنشئت فى الأستانة ، سنة ١٢٢٦ هـ ، مدرسة لتعليم الخط والنقش .

ثم حلت مصر الممبىء بعد ذلك ، فأنشئت فى القاهرة مدرسة لهذا الغرض .

- ٢ -

ونحن نعرف أن « السريان » هم أول من وضع الشكل على السكات ، وذلك عندما دخلوا النصرانية وأخذوا فى نقل الكتاب للقدس إلى لغتهم ، وكان الأسقف « يمتوب الرهاوى » أول من اخترع النقط التى كانت ترسم فى حشو الحروف ، وكان ذلك سنة ٤٦٠ م ، أى قبل الهجرة بنحو من ١٢١ سنة ، ثم تحولت تلك النقط إلى خط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث .

وحين انتشر الإسلام ، وعمّ بقائما مختلفا من الأرض ، وخاف المسلمون ماخافه « السريان » من قبل ، فكروا فى النقط أو الشكل ، ولما هم استأسروا فى ذلك بما فعله « السريان » من قبل ، وكان أول من فعل ذلك أبو الأسود الدؤلى (٦٧ هـ) فى خلافة عبد الله بن الزبير .

وبدا « أبو الأسود » فى شكل المصحف ، بعد ما احتال عليه زياد بن سمية ، الذى كان واليا على البصرة ، فى ذلك ، وعهد « أبو الأسود » - فيما يقال - إلى كاتب يعنى الكتابة ، من بين كاتبين ثلاثين ، بمنهم إليه زياد بن سمية ، بأن يتولى الشكل ، وقال له : خذ للمصحف وصيغتا يخالف لون اللداد ، فإذا رأيت فى فتحت شفتى بالحرف فانقط واحدة فوقه ، وإذا كسرتها فانقط واحدة أسفله ، وإذا ضمتها فاجعل النقطة بين يدي الحرف ، فإن أتبعث شيئا من هذه الحركات ثمة فانقط نقطتين .

وأخذ « أبو الأسود » يقرأ القرآن فى نودة وللكتاب يضع النقط ، وكلما أتم الكتاب صحيفة نظر فيها « أبو الأسود » . ومعنى على ذلك إلى أن أتم للمصحف كله . ونلاحظ أن « أبا الأسود » ترك السكون بلا علامة .

وأخذ الناس هذه الطريقة عن أبي الأسود ، وكانوا يسمون للنقط شكلا .

وجاء من بعد « أبي الأسود » نصر بن عاصم ، ثم أتباعه من بعده ، فحوروا في شكل النقط ، فمنهم من جعلها مربعة ، ومنهم من جعلها مدورة مضمومة ، ومنهم من جعلها مدورة غير مضمومة .

وزاد أهل المدينة فجعلوا للحرف تشديد علامة على شكل قوس مرفوعة إلى أعلى (≡) ، يكون فوق الحرف للفتوح ، ويكون تحت للكسور ، وعلى شمال المضموم ، وكانوا يضمون نقطة الفتحة داخل القوس ، ونقطة الكسرة تحته ، ونقطة الضمة إلى شماله : ثم استغفروا عن النقط وقابوا القوس مع الكسرة والضمة ، فأصبح الحرف المشدد على هذا النحو :

١ - لفتوح ≡

٢ - المكسور ≡

٣ - المضموم ≡

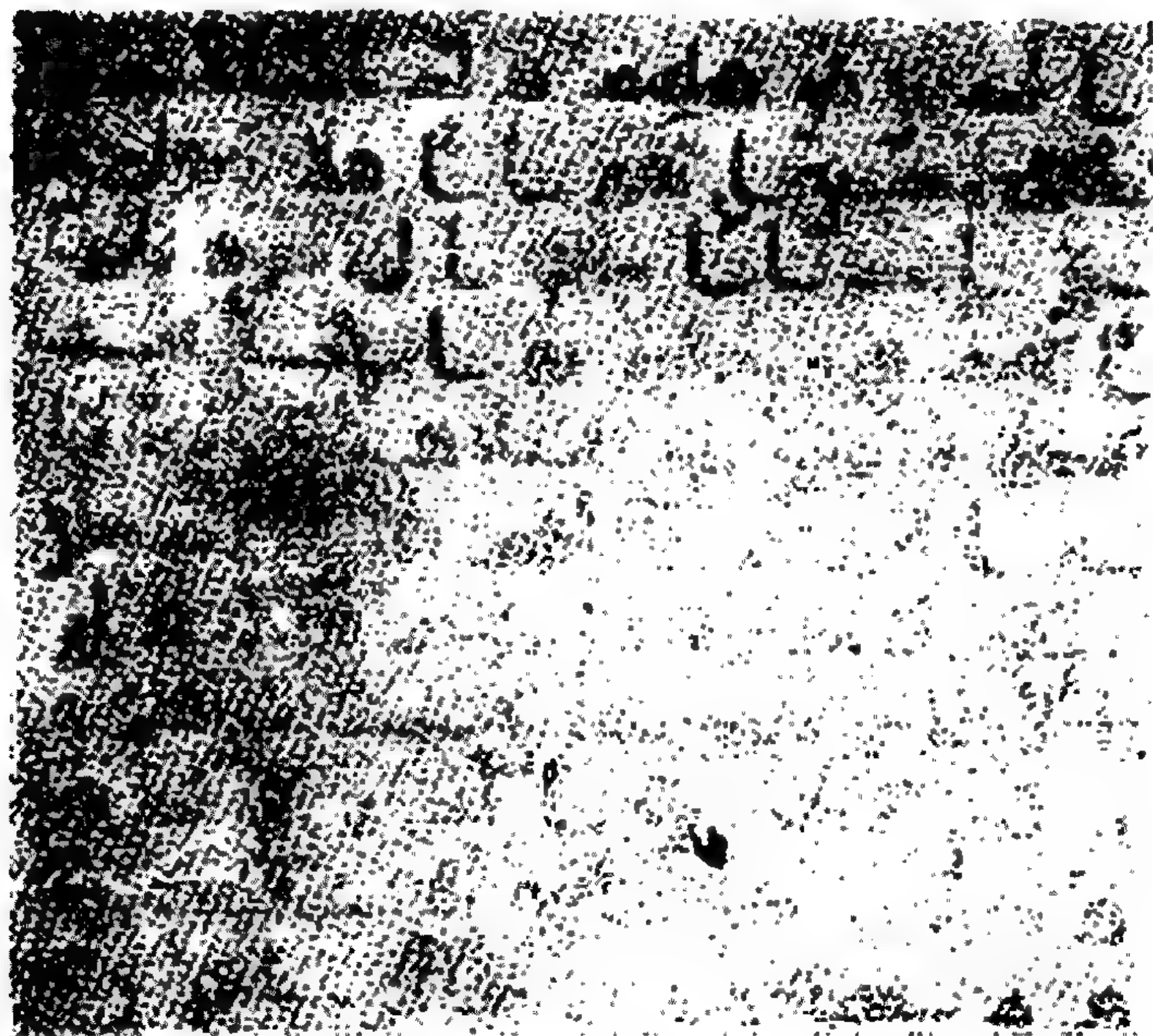
ثم زيدت علامات أخرى في الشكل ، فوضعت للكسرة جرة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه ، سواء أكان همزة أم غير همزة ، ولألف الوصل جرة في أعلاها متصلة بها إن كانت قبلها فتحة ، وفي أسفلها إن كانت قبلها كسرة ، وفي أوسطها إن كانت قبلها ضمة ، وذلك كله بالمداد الأحمر .

وابتدع أهل الأندلس ألوانا أربعة في المصاحف ، فجعلوا السواد للحروف ، والحمرة للنقط « الشكل » ، والصفرة للهمزات ، والخضرة لألفات الوصل ، وكانت طريقة « أبي الأسود » أكثر شيوعا في المصاحف . وهناك صورا ثلاثا تمثلان الشكل تدبعا (ش : ٤ و ٥ و ٦) .

ولقد عاش الناس زمن بني أمية على النهج الذي رسمه « أبو الأسود » ثم « نصر بن عاصم » ، حتى إذا كانت أيام الدولة العباسية أخذ الناس يعملون الشكل من مداد الكتابة ، لتبديل على الكتاب ، غير أن ذلك جر إلى صعوبة ، وهي اختلاط الشكل بالإعجام ، لأن كلا منهما أصبح بمداد واحد ، فسكان لابد من تغيير ثالث ، وهذا ما انتهى إليه « الخليل بن أحمد » ، فوضع تلك الطريقة التي عاينها الناس الآن ، وأصبح للشكل ثمانى علامات : الفتحة ، والضمة ، والكسرة ، والسكون ، والشدة ، والمدة ، والصلة ، والهمزة .

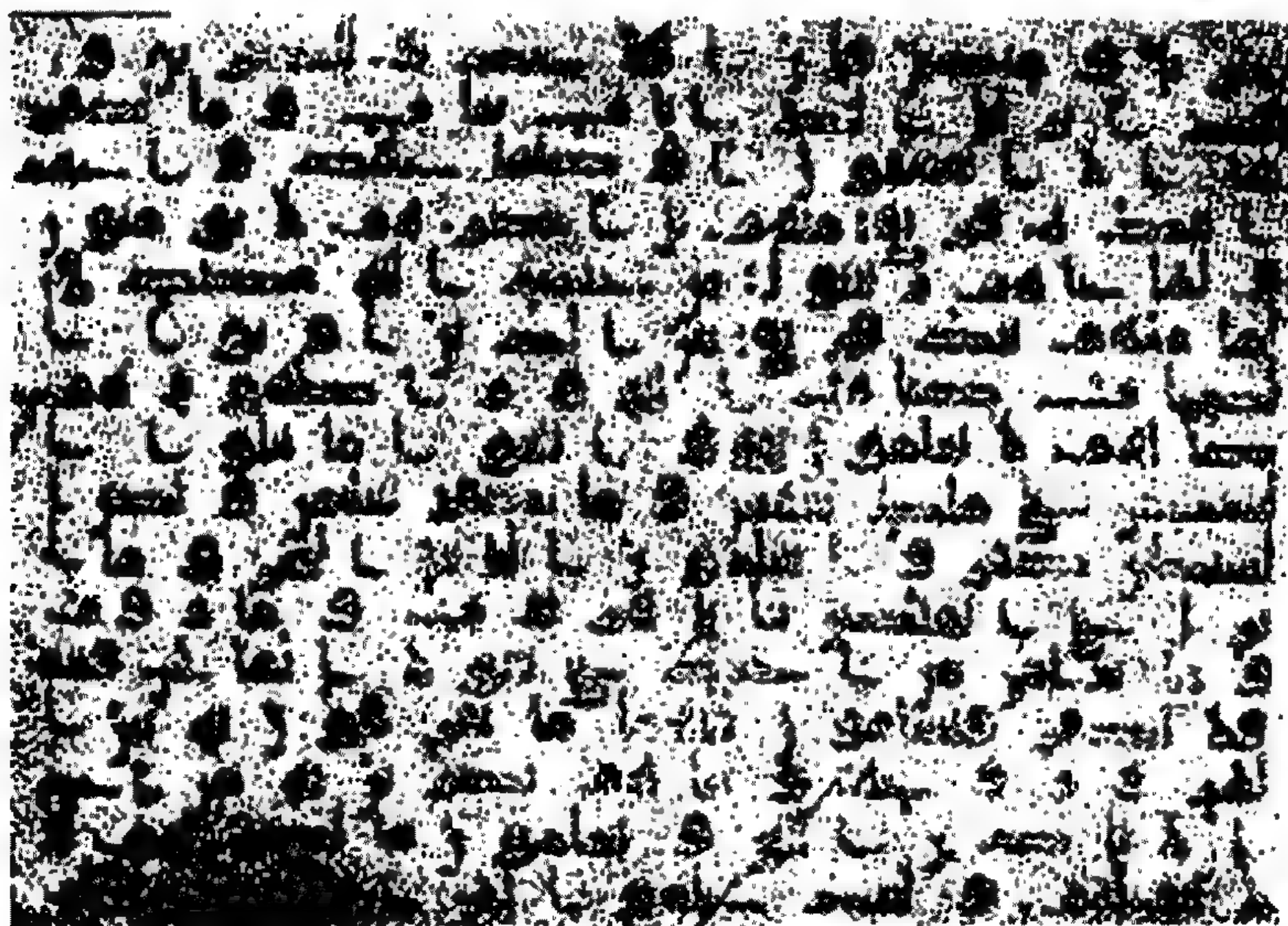
وأخذ الشارقة بهذه الطريقة ، وأباحت الأندلسيون أولا ، ثم مالوا إليها ثانيا .

ومن الخط السكوني أنبتق الخط الغربي ، وهو من أقدم الخطوط العربية ، وهو يسود شمال إفريقيا



ن : ١

صفحة من مصحف على رق مشكولة . القرن الثاني الهجرى



ن : ٢

صفحة من مصحف بالخط الكوفي . القرن الثاني الهجرى

غير مصر ، وكان قديماً يسمى الخط القيرواني - دبة إلى القيروان - عاصمة المغرب بعد الفتح الإسلامي سنة ٥٥٠ (ش : ٦)

يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له يا أيها الذين
 آمنوا من دوز اللذ لن يفلحوا ذبائلاً ولو اجتمعوا
 له وإن يسلمهم الزبيل شيطناً يستنفذوه له
 منه ضعف الطالب والمطلوب فافذروا الله
 خوفاً فربما يزل الله العيون عن غير الله يحكم
 من الملك كبره رسله ومن الملائكة الله جميع
 بهم
 ١٥ ربيع الثاني كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه
 ابن مرساة المراكبة بكنت سنة التي يقرء ونواحيها
 من المغرب ابن فخر قلع ٣٥٣

ش : ٦

الآيات من ٧٣ - ٧٥ من سورة الحج بالخط المغربي

وحين انتقلت العاصمة من القيروان إلى الأندلس ظهر خط جديد سمي الخط الأندلسي ، أو القرطبي ، وكان مستدير الشكل ، على العكس من الخط المغربي الذي كان مستطيلاً (ش : ٧) .

بسم الله الرحمن الرحيم

ش : ٧

خط أندلسي

وكذا تفرع من هذا الخط المغربي خط آخر في السودان ، وذلك بعد أن شاع الإسلام في أوطان
 إفريقية ، وأصبحت تكتبوا ، التي أسست سنة ٦١٠ هـ ، مركزاً إسلامياً ، وإليها عزى الخط النيبكي :
 أو السودان ، وهو يتميز عن غيره بكبره وغلظه .

وحين انتهى الخط العربي إلى العصر الحديث أصبح نجده أقلام مختلفة ، وهي : قلم الثلث ، قلم النسخ ، قلم الرقعة ، القلم الفارسي ، القلم الديواني ، قلم التمليق * يسمى : الإجازة ، وهو بين الثلث والنسخ ، القلم الريحاني ، القلم الكوفي ، القلم للعربي .

- ٣ -

وقد قدمنا أن أول من أجاد خط المصاحف «خالد بن أبي المهاجر» ، ثم جاء على إثره من كانوا على فهم بالتذهيب والزخرفة ، نذكر منهم : إبراهيم الصغير ، واليعقوبي ، وأبا موسى بن عمار ، وابن السفلي ، وأبا عبد الله الخزيمي ، ومحمد بن محمد الهمداني .

وكان نمة خطاطون وقفوا أقلامهم على كتاب الله لا يخطون غيره ، ومنهم من كتب من المصاحف كثيرة كثيرة ، أيام أن لم تكن مطابع .

ولقد شجع للوك والاملاطين هؤلاء الخطاطين على كتابة المصاحف ، التي كانوا يحسسونها على المساجد ، بما أغدقوا عليهم من نعم .

وقد أحصى الخُصُون لتريق من الخطاطين ، الذين وقفوا أقلامهم على كتابة المصاحف ، ما كتبوا من مصاحف ، فإذا هذا الإحصاء يطالملك بأن منهم من كتب ألف مصحف ، مثل : محمد بن عمر عرب زاده ، وأن منهم من كتب خمسمائة ، أو قريباً منها ، مثل : ابن الخازن الحسين بن علي ، واليهصري محمد بن أحمد ، والكردي عمر بن محمد .

وكان من بين هؤلاء الخطاطين من له ألوان من الإبداع في كتابة كتاب الله ، منهم من كتب للمصحف في ثلاثين ورقة ، وهو اللاهوري محمد روح الله .

فلقد كتب مصنفين على هذا النحو ما نرى بأن يكون أول كل سطر من الأسطر كلمة أوها حرف الألف ، غير السطر الأول .

وكتب على بن محمد مصنفاً في درج من الورق بقلم النسخ ، طوله سبعة أمتار وعرضه ثمانية سنتيمترات . ومن هذه الإبداعات جملة تحتفظ بها دار الكتب المصرية ، ومكتبة الأزهر ، ومكتبة الروضة بالديانة . كما أن نمة مصاحف بدار الكتب المصرية بخطوط مختلفة ، منها :

١ - مصحف بالخط الكوفي ، وهو صورة مصورة عن مصحف عثمان ، رضى الله عنه .

٢ - مصحف بقلم كوفي على رق غزال ، يقال إنه بقلم الإمام جعفر الصادق (١٤٨) هـ .

٣ - مصحف بخط ياقوت المستعصي (٦٧٩ هـ) بقلم نسخ مشكول ومنتوط ومذهب ومجدول .
٤ - مصحف السلطان برقوق ، بقلم عبد الرحمن الصائغ (٨٠١ هـ) ، وقد كتبه في ستين يوماً .
هذا إلى مصاحف أخرى يبلغ عددها نحواً من تسعة وعشرين ومائة (١٨٩ هـ) منها سبعة وعشرون بخط الكوفي .

وعلى الرغم من شيوع الطباعة فلا تزال السكثرة من المصاحف يهود بكتابتها إلى خطاطين معروفين ،
ثم تصور لتطبع بعد ذلك .

٢٦ - هذا المصحف
وهذا المصحف الذي تقدمه لك كتبه بخطه شيخ القاري . المصرية ، محمد بن هلي بن خلف الحميني ،
وكان من أعضاء اللجنة الأولى التي ألفت سنة ١٣٢٧ هـ ، منه :

١ - حفي ناصف .

٢ - مصطفى عتاني .

٣ - أحمد الإسكندري .

٤ - نصر المادل .

.. (ح)

للإشراف على مراجعة كتاب الله قبل طبعه ، تقامت بفضيلة على ما يوافق رواية حفص بن سليمان
ابن المغيرة الأسدي الكوفي لقراءة عامر بن أبي النجود الكوفي القاسمي ، عن أبي عبد الرحمن عبد الله
ابن حبيب السلي ، عن عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، عن النبي
صلى الله عليه وسلم .

وأخذ هواؤه مما رواه علماء الرسم عن المصاحف التي بعث بها عثمان بن عفان إلى البصرة والكوفة
والشام ومكة ، والمصحف الذي جهده لأهل المدينة ، والمصحف الذي اختص به نفسه ، وعن المصاحف
المنسوخة منها .

وكل حرف من حروفه يتفق ونظيره في كل مصحف من تلك المصاحف الستة ، وكان الاعتماد في ذلك
كله على منظومة الشريشي الخراز محمد بن محمد « مورد الظهآن » ، وشرحها لعبد الواحد بن عاشر الأنصاري
الأندلسي .

أما عن ضبطه فكان يوفق ما جاء عن علماء الضبط في كتاب « الطراز على ضبط الخراز » للإمام « الدنيسي » ، مع إحلل علامات « الخليل بن أحمد » وأتباعه من المشارة محل علامات الأندلسيين .

وكان الاسترشاد في هذا آياته بما جاء في كتاب « ناظمة الزهر » للشاطبي ، وشرحها للمخللاتي أبي عبيد رضوان ، وكتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي ، وكتاب « تحقيق البيان » لشيخ القراء بالديار المصرية محمد المتولي .

وهذه الكتب كلها تنتهي أخذاً عن الكوفيين ، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلي ، عن علي بن أبي طالب ، وهي متفقة على أن عدد آي القرآن الكريم : ٦٢٣٦

أما عن بيان أوائل أجزاء المصحف ثلاثين ، وأجزائه المئة ستين ، وأرباعها فهذا مستق من كتاب « غيث النفع » لسفاحي ، و « ناظمة الزهر » وشرحها ، و « تحقيق البيان » ، و « إرشاد القراء والكاتبين » للمخللاتي أبي عبد رضوان .

وعن هذه الكتب المتقدمة ، وكتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي ، وكتب القراءات والتفسير ، كان يبين السك والذني .

والشيخ القارئ المصرية محمد بن علي بن خلف الحسيني كان بيان الوقوف وعلاماتها .

وكان الاعتماد في بيان السجودات وأما كتبها على كتب الفقه في المذاهب الأربعة .

كما كان أخذ بيان السكتات الواجبة عند حفص من « الشاطبية » وشرحها .

هذا كله كان جهد اللجنة الأولى ، وما من شك في أنه كان جهداً عظيماً ، غير أنه حين فكر في طبع

هذا المصحف طبعة ثانية سنة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م - وهي هذه التي بين يديك - ألفت لهذا الغرض

لجنة ، من :

١ - علي محمد الضباع .

٢ - محمد علي النجار .

٣ - عبد الفتاح القاضي .

٤ - عبد الحليم بسيوني .

٥ — أحمد عبد العليم البردوني .

٦ — إبراهيم إطفيش

وكان على هذه اللجنة أن تنظر في المصحف نظرة ثانية ، فإذا هي نستدرك على الطبعة الأولى أشياء قليلة ، منها ما هو خاص بالرسم ، ومنها ما هو خاص بالضبط ، ومنها ما هو خاص بالوقوف ، ومنها ما هو خاص بترجمات الدور ، وهما في تلك الاستدراكات ، وقد أدخلت كلها على الطبعة الثانية التي تضمنها هذه الموسوعة :

الكلمة	الآية	السورة	الطبعة الأولى	الطبعة الثانية
كَلِمَةٌ	١٢٧	الأعراف ٥٧	بناء مربوطة	بناء مفتوحة « كَلِمَةٌ » . وقد أجمعت جميع الطرق عن حذف على الوقف عليها بالناء ، مراعاة لرسمها .
لِطَائِفِينَ	٥٥ ٢٢	ص ٥٣٨ الربا ٧٨	بالألف بعد الطاء	كتبت فيها بدونها ، كما رسم في الآيتين : ٣٠ ، الصفات ٣٧٥ ٣١ ، القلم ٥٨٨

٢ — الضبط :

(أ) كلمة « قائم » من قوله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) الرعد ١٣ : ٣٣ ، كتبت الهزة فوق صورة الياء ، وحقها أن تكتب تحنها على الأصل كمنظائرها في المصحف .

(ب) ضبطت في أواخر بعض السور وأوائل تالياتها كلمات ضبطاً مهنياً على أساس أن آخر السورة ، وصول بأول التي تليها ، من غير اعتداد بالبسملة بين السورتين ، وهذا لا يتفق وطريقة حذف ، إذ أن جميع الطرق عنه مجمعة على الفصل بالبسملة بين السورتين .

فهرست

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الجزيرة العربية قبل بعث الرسول ﷺ	٣	مبعث ﷺ	٣٦
الإرهاصات بمولد الرسول ﷺ	٦	بدء التنزيل	٣٨
نسب الرسول ﷺ	٩	فرض الصلاة	٣٩
ولاية البيت	١٣	إسلام علي بن أبي طالب	٤٠
ولاية فصي البيت	١٥	إسلام زيد بن حارثة	٤١
ولاية هاشم بن عبد مناف الرقادة	١٦	إسلام أبي بكر	٤٢
والسقيفة	١٦	من أسلم بدعوة أبي بكر	٤٢
ولاية المطلب ثم عبد المطلب ما كان	١٩	من أسلموا بعد ذلك	٤٣
عليه هاشم	٢٠	الجهار بالدعوة	٤٤
حفر زمزم	٢١	أمر قريش على المسلمين	٤٨
نذر عبد المطلب	٢٤	مالقى الرسول من قومه	٥٠
زواج عبد الله بآمنة	٢٤	إسلام حمزة	٥١
ولادته ﷺ	٢٥	ما كان بين عتبة والرسول	٥٢
حديث رضاعة الرسول ﷺ	٢٨	الرسول وأشرف قومه	٥٤
وفاة أمه وكفالة جده عبد المطلب له	٢٨	أول من جهار بالقرآن	٥٧
موت عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب له	٢٩	استماع قريش إلى قراءة الرسول	٥٨
حديث بحري الراهب	٣٢	عدوان قريش على المستضعفين من المسلمين	٥٩
زواجه ﷺ من خديجة	٣٣	الهجرة الأولى إلى الحبشة	٦٠
خلاف قريش في بيان الكعبة	٣٥	إسلام عمر بن الخطاب	٦٢
علم اليهود والنصارى بمبعثه ﷺ		تحالف الكفار وحديث الصحيفة	٦٦
		مالقى الرسول من أذى قومه	٦٧

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٤	حديث بئر معونة	٧١	رجوع مهاجري الحبشة
١٨٦	إجلاء بني النضير	٧٢	ابن مظهر وردة لجوار الوليد
١٨٨	غزوة ذات الرقاع	٧٣	استجارة أبي سلمة بأبي طالب
١٨٩	غزوة بدر الآخرة	٧٤	أبو بكر وردة لجواز ابن الدخنة
١٨٩	غزوة دومة الجندل	٧٥	نقض الصحيفة
١٩٠	غزوة الخندق	٧٧	إسلام الطفيل بن عمرو
٢٠٧	غزوة بني لحيان	٧٩	الإسراء والمعراج
٢٠٨	غزوة ذي قرد	٨٠	خروج الرسول إلى الطائف
٢٠٩	غزوة بني المصطلق	٨٢	عرض الرسول نفسه على قبائل مكة
٢١٣	حديث الإفك	٨٤	إسلام الأنصار
٢١٩	حديث الحديبية	٨٦	مبايعة الأنصار للرسول
٢٢٤	بيعة الرضوان	٩٠	الهجرة إلى المدينة
٢٢٥	المدينة	٩٤	هجرة الرسول إلى المدينة
٢٢٨	غزوة خيبر	١٠٢	مسجد الرسول بالمدينة وبيته
٢٣١	عمرة القضاء	١٠٤	المواخاة بين المهاجرين والأنصار
٢٣٢	غزوة مؤتة	١٠٥	حديث الأذان
٢٣٥	فتح مكة	١٠٦	الرسول ويهود المدينة
٢٤٣	غزوة حنين	١١٣	حديث المباحلة
٢٤٦	غزوة الطائف	١١٥	من أخبار منافق المدينة
٢٥١	غزوة تبوك	١١٧	غزواته ﷺ
٢٥٩	إسلام ثقيف	١٢١	غزوة بدر
٢٦١	حج ابن أبي بكر بالناس	١٥٥	غزوة السويق
٢٦١	سنة الوفود	١٥٦	غزوة ذي إمر
٢٧٢	حجة الوداع	١٥٦	غزوة الفرع
٢٧٤	مرضه ﷺ وموته	١٥٦	حديث بني قينقاع
٢٨٢	زوجاته ﷺ	١٥٨	سرية زيد
٢٨٥	سرايه ﷺ	١٥٨	مقتل كعب بن الأشرف
٢٨٦	أولاده ﷺ	١٥٩	غزوة أحد
٢٨٦	أعمامه وعلمته ﷺ	١٨١	يوم الرجيع

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٩١	مؤذنه ﷺ	٢٨٧	جداله ﷺ
٢٩٢	شعره ﷺ	٢٨٨	إخوته ﷺ
٢٩٢	سلاحه ﷺ	٢٨٩	خدمه ﷺ
٢٩٢	دوابه ﷺ	٢٩٠	مواليه ﷺ
٢٩٤	تلخيص وتعقيب	٢٩١	كابه ﷺ

الباب الثاني

تأريخ القرآن الكريم

٣٥٨	تعقيب على كتب المصاحف	٣٢٣	أمية الرسول
٣٦٤	القراءات	٣٢٦	نزول الوحي
٣٦٧	القراء	٣٢٧	ترتيب نزول السور
٣٦٩	رأى قبية في القراءات	٣٣٢	عدد المكي والمدني
٣٧١	تعقيب على القراءات	٣٣٢	عدد الآيات
٣٧٢	رسم المصحف	٣٣٨	أسماء السور
٣٧٦	كتابة المصحف وطبعه	٣٣٩	ترتيب السور
٣٧٨	تجزئة المصحف	٣٤٥	الحكمة في نزول القرآن متجماً
٣٨٢	الناسخ والمنسوخ	٣٤٧	نزول القرآن على سبعة أحرف
	الحكم والمشاوّه والحروف المقطعة	٣٤٧	اسم كتاب الله
٣٨٥	في أوائل السور	٣٤٨	جمع القرآن
٣٨٩	البسملة والاستعاذة والسجدة	٣٤٩	مصحف عثمان
٣٩٠	كتاب المصحف	٣٥٥	كتب المصاحف

رقم الايداع ٤٤٠٨ لسنة ١٩٨٤

مطابع سجل العرب